عبد العزيز كوكاس

ذاكرة الغياب

رواية

badawi

2022

ذاكرة الغياب

الكتاب	ذاكرة الغياب
الكاتب	عبد العزيز كوكاس
تاريخ النشر	الطبعة الثالثة 2022
الترقيم الدولي	
تصميم الغلاف والداخلي	الفنان التشكيلي بكري خضر

الناشر

دار بدوي للنشر والتوزيع (ألمانيا)

badawi
artes afro arabic

Bibliographic information from the German National Library:
The German National Library lists this publication in the German National Bibliography - detailed bibliographical data can be accessed via the Internet address http://dnb.ddb.de
badawi - artes afro arabica
Dr. Mohamed Badawi - Bodanrückweg 6 - 78467 Konstanz (Germany)
Telefon: +49 / (0) 7531 / 81 38 195
Fax: +49 / (0) 7531 / 81 38 196
E-Mail: info@badawi.de
Website: www.badawi.de

JPM32 Publishing (Doha – Qatar)
www.jpm32.com
E-Mail: info@jpm32.com

This work, including all of its parts, is protected by copyright. Accordingly, any use outside of the copyright law without the express consent of the publisher is considered inadmissible and punishable. This applies, among other things, to copying, translations, transferring to microfilms and saving and further processing in electronic data systems

عبد العزيز كوكاس

ذاكرة الغياب

رواية

الفهرست

- مقدمة كتاب «ذاكرة الغياب»..11

1ـ افتتاح مضلل..11

2ـ تصريح...11

- باب أول: في «صفة الرائد والقائد وما ضارع ذلك أو شاكله».................15

- باب ثاني: في «ذكر ما يعتري الإنسان بعد الخصاء

وكيف كان قبل الخصاء»..69

- باب ثالث: في «ذكر بعض أثار الرحلة وقرب المآل»...............155

- باب رابع: في «من أحبت رجلا لم تستحسن

بعده غيره ممن يخالفه»..203

- فصل الختام...249

«في القاع يتضح الغياب، أرى الغياب، أحسه وأراه جسما للغياب»

محمود درويش

إهداء

إلى روح أبي الرائع وبّا عمر الشامخ

مقدمة كتاب ذاكرة الغياب

1 ـ افتتاح مضلل:

(... واستر ما يرد عليك من الرؤيا في التأويل من أسرار المسلمين وعوراتهم، ولا تُخبر بها إلا صاحبها، ولا تنطق بها عند غيره، ولا تحكها عنه، ولا تُسمه فيها إن ذكرتها ولا تحك عن أحد مسألة رؤيا إن كان فيها عورة يكرهها، فإنك إن فعلت ذلك اغتصبت صاحبها. ولا تصدرن رأيك في مسألة حتى تفتشها وتعرف وجهها ومخرجها وقدرها واختلاف الطبائع التي وصفت لك، فإنك عند ذلك تُبصر ما عمل الشيطان في تخليطها وفسادها عليك وإدخال الشبهات والحشو فيها، فإن أنت صفّيتها من هذه الآفات التي وصفتُ لك ووجدت ما يحصل من كلام التأويل صحيحا مستقيما، فذلك تأويلها صحيح).

ابن سيرين «تفسير الأحلام الكبير».

2 ـ تصريح:

بالنسبة لي مثّلت لي الكتابة دائما حُلما بعيد المنال، قُدرة تنتمي إلى تلك الألمعية البعيدة عني بألغازها وأسرارها.. لا، ليست كلمة «حلم» و»ألمعية» و «ألغاز» هي المناسبة

لوصـف مـا أردت قولـه بالضبـط، ولكـن.. أقـول إنـي كنـت أرى في الكتابـة ممارسـة جـادة لا تخلـو مـن مجازفـة، وهـذا وحـده يبعـث عـلى التهيـب مـن خـوض غمـار تجربتهـا.. فخـارج الفـروض المدرسـية ورسـائل الهيـام، وخـارج صياغـة البيانـات الثقيلـة ذات العبـارات المسـكوكة والرسـائل الاعتياديـة الثقيلـة الباهتـة... ظلـت الكتابـة بالنسـبة لي تجربـة مرتبطـة بعبقريـة خارقـة ومؤهـلات لا أملكهـا.. نعـم لقـد جرّبـت الكتابـة قبـل اليـوم، لكنـي كنـت أحـس بـأن الكراسـات التـي دونتهـا شـبيهة بمحـاضر الشرطـة وأقـرب إلى كتابـة إنشـائية رديئـة..

(إن مجـرد الرغبـة في الكتابـة لا تكفـي عـلى مـا يبـدو، لأن يكتـب المـرء عـلى نحـو جيـد) ليـس هـذا وعـي زائـد عـن الحاجـة، فمنـذ الالتـزام الأول مـع صالـح، انقـدت بحمـاس لتتبـع المسـالك التـي عبَرهـا، بـل أجهـدت نفـسي في البحـث عـن لغـة قـادرة عـلى التقـاط ملامـح هـذه السـيرة الفجائعيـة، لغـة تكـون بمثابـة الجسـد الذي أسـتطيع أن أصـون فيـه دفء روح صالـح البشـير.. لكـن الشـعور باحتبـاس اللغـة ظـل يلازمنـي عـلى مـدار النـص، إذ خُيـل إليّ أن كل العبـارات التـي تعلمتهـا كسـيحة لا تقـوى عـلى حمـل كل هـذا القلـق، عبـارات جوفـاء وألفـاظ منخـورة.. وكثـيرا مـا نشـأ عـن كتابتـي خصـام مريـر بـين مبناهـا والمعانـي العنيفـة التـي تحملهـا انفعالاتـي، وظـل هاجـسي كمـا صرّحـت لكـم قبـل قليـل، البحـث عـن كلمـات سـوداء بحجـم ورطـة صالـح، كلمـات كالبوصلـة تحـدد بدقـة

زوايا الجغرافيا المُبهمة لفضاء القرية التي كانت تؤجج عواصف الفتنة في دمه وتدفعه إلى حافة العبث والجنون، كلمات حمراء كالجمر تستطيع أن تترك في وجه كل من يقرأها جراحا وبُثورا كالجدري، كلمات تلطخ الأعين وتحمل ذلك الإيقاع الجهنمي للموت البطيء..

لقد تبين لي أن البحث في سيرة المعلم صالح البشير أشبه بمطاردة خيط المتاه، ذاكرة مستحيلة تلتفع بأسرارها وسط حالة النّفي القصوى داخل فضاء مسيّج بالسّواد والفقر والتشوه، حيث تتناسل الحكاية في رحم الضياع.. إذ أحسست وأنا أتابع آثار خطاه، كالقابض على الريح الذي ينمو مع العاصفة، ففي رحم السّديم المتوحش لقرية جائعة، ظل صالح يراوغ شتاته ويخادع هشاشات مسننة تخدش جراحه.. وهذه حصيلة النبش في سيرة متشظية.

وأنا أتابع خيوط هذه السيرة، انتابني ذلك الوجع الذي لا زالت تحمله مليكة في بطنها، والذي سمّاه صالح «النبوءة المصادرة»، لذلك فإن ما سجلته هنا تعبير عن الحد الأدنى من العجز الذي شعرت به في تتبع المشاهد والأحداث، إذ اضطرت إلى حذف الكثير من التفاصيل التي تثير الاستغراب وعدم التصديق..

صالح هنا ليس بطلا، إذ يوجد في الواقع أبطال عمالقة يفوقون خيال أكثر الكتاب إبداعا ومهارة، صالح هنا

مجـرد حالـة ترسـم خريطـة ذاكـرة مسـتباحة، إنـه مـرآة لجيل بكاملـه يحمـل ندوبـا كالوشـم، جيـل ظـل يُهـرّب أسـئلته إلى مناطـق الظـل فيمـا كانـت أحلامـه تنمـو عـلى ضفـاف الآمـال المُحبطـة.

طوبة الوجدي

باب في «صفة الرائد والقائد وما ضارع ذلك أو شاكله»

«كلما حاصرني الحزن أشرعت بوابة الذاكرة على رصيف الجرح، وأسدلت الستار على مهزلة جديدة من حياتي، نوع من الحتمية الخارج عن حدود إرادتي، أو مدخل للوهم وأشباهه، كلما شعرت بالاحتراق تحت جمرة الصمت، تساءلت: كيف يمكن أن أهدم كل الأحاسيس والأفكار التي عَلَقَت بي أو تلك التي كوّنتها بمحض اختياري عبر مساري، لأعيد بناءها في لحظة، وأستعيد تدريجيا حاسّة التمييز بين الوقائع والحقائق، التمثلات والأحاسيس؟»

من «مذكرات» صالح البشير

حـين أتعبـه النظـر في وجـوه الراكبـين، أرسـل بصره عـبر نافذة الحافلـة وراح يراقـب الأفـق، لمـح سـحابة مـن الطيـور تقفـز إلى الأعـالي، تتمطّـى قليـلا وتُنصب أجنحتهـا كالـشراع، ممـددة أعناقهـا إلى الأمـام، فـاردة أقدامهـا النحيفـة إلى الـوراء، كاشـفة عـن صدورهـا البيضـاء.. والسـنابل تتمايـل في زَهـو تحـت ثقـل رؤوسـها الدّائخـة، ترقـص في عـرس الريـح التـي تُزغـرد وسـط الحقـول، فيمـا ظلـت أشـعة الشـمس تنزلـق داخـل الحافلـة وتنسـكب بشـكل منتظـم عـلى الـرؤوس والوجـوه.. كان النهـر يـبرز بـين فرجـات الأشـجار هادئـا وناعمـا، ومـن الأفـق البعيـد، أفـق ممتـد إلى مـا لا نهايـة حيـث ظلـت عينـا صالـح ترنـوان إلى منطقـة غـير مرئيـة، بـرز السـد.. سـد بـين الوديـان.. بـين التـواءات الطريـق ومُنعرجاتهـا، برز السـد قاسـيا وعنيـدا، كان هنـاك منتصبـا كالجـدار يفصـل بـين واديـن، جـسر لرحلتـين تحتجبـان وسـط شـوك المسـالك التـي تعيـد سـيرة العبـور الصاعـق، كأنـه يلتمـس حضـورا مباغتـا، يُشـطر انفـلات الزّمـن المتسربـل بهالـة مـن الضبـاب **«تتقـدم الحافلـة فتتضـح صـورة السـد أكثـر، عملاقـا وحارقـا، بـدت لـه لحظـة العبـور قاسـية، كان الجـسر الضخـم غامضـا ومروعـا في آن، لاح كالنعـش محمـولا عـلى أيـاد جبّـارة.. أشرف صالـح عـلى**

الهاوية من نافذة الحافلة، فأخذ يفقد تدريجيا السيطرة على هواجسه، هذا هو السد الذي سيقدّر عليه أن يعبره إلى الأبد.. سيعود مرارا من هنا، وكل مرة يشرف منه على انهياره..»

على نفس الطريق الحلزوني لأزيلال، بدت له سلسلة جبال الأطلس تطل بقامتها الساهرة على أمجاد بائدة، منذ الزمن الموغل في القدم إلى صدى طلقات بندقية أحمد الحنصالي، جبال تنطبق بزخم البطولة، فتنهّد: «هذه جغرافيا تحضن تاريخا».

«وبقلق بالغ راح يراقب صمته، كانت خيوط شمس شتنبر اللاهبة تتدفق متسللة بين أغصان شجر الصنوبر نحو الحقول التي تهالكت صرعى تحت سطوة الجفاف، أراضي جرداء كالفضيحة، تورث الناظر إليها روح الوحشة القاتلة، والإحساس المُضجر بالإحباط. وكمن يُساق مرغما إلى حتفه، شعر صالح بأنه يتيم لا ناصر له في هذا القفر الذي تطأه قدمه لأول مرة، فتح نافذة الإغاثة، حمل رأسه وأطرافه بين يديه، ثم لفهما وسط الجريدة.. لقد وجد نفسه مثل حيّة تسلخ جلدها عند خروجها من جُحرها في أول الخريف..

توغل الرأس بين الإطار الحديدي للنافذة، فدفعه بكل ما يملك من قوة، ثم عاد إلى مكانه.. أحس بالثقل ينزاح عن كاهله شيئا فشيئا، نوع من الاستسلام أو الإحساس باللاجدوى.. كان جسده يتدحرج ككرة ثلج تُضيء كوة في ذاكرة العتمة، ظل صالح يشرف من أعلى السد على

اندثاره، جسدا محطما وروحا ضائعة، كل الآمال تتقهقر إلى الوراء ويبدأ نوع من تحوير مصير الوجود الذاتي، عليه الآن أن يترك كل شيء وراء ظهره: مرتع الطفولة بوجدة، أمه الكسيحة الرابضة في ركن البيت، تلك الأماني التي كبرت فجأة على ضفاف الحزن، نداءات المساءات البعيدة، وجه نزهة المشتعل في الروح والجسد، تلك الخسارات التي تنسلّ من ثقوب الذاكرة، وكل الخيوط التي تجمعه بالحلم، عليه أن ينسى ما كانه، هو الآن مولود جديد.. إن اقتضى الأمر أن يتخلى كليا عن جلده، فلا بد أن يفعل، هذه هي المقايضة الأولى لوضعية الاندماج في بنية جديدة».

كانت الحافلة تسير ببطء ممتطية تعرجّات الطريق، فيما ظل صالح غارقا في تأملاته.. الأحلام الهاربة، الارتجاجات المتتالية في الجسد والروح، تلك الاشتباكات السرية للترابطات القبلية داخل الحافلة حيث تتكدس الأجساد والروائح، وحيث تعلو الأمازيغية فوق كل شيء، سيميولوجية العلامات الصماء.. فتح الجريدة، تأمل أسطرها فشعر بالاختناق، خلع سترته وعدل من كم قميصه، فتسمرت عيناه على الشابة الجالسة بجانبه، «ظلت عيناه تتابعان الصبية التي جلست فوق ركبة امرأة لم يستوعب فيض جسدها جلبابها المُهترئ، ابتسم لها ثم مرر أصابع يديه على شعرها، فزاغت عيناها عنه وأمسكت بيدها الحديدة الملتصقة بظهر الكرسي أمامها، بدت خجولة، طفلة في عمر الزهور تُشع شفتاها بابتسامة تائهة.. وفجأة بدا

عليهـا الاضطـراب، فأمسـكت بطنهـا منبهـة أمهـا التـي أخـذت تُفتـش في قُفـة تحـت قدميهـا عـن مغلـف بلاسـتيكي.

تقيـأت الطفلـة، فأورقـت الدمـوع في عينيهـا، كانـت رائحـة القـيء قـد جعلـت المسـافرين يضعـون أياديهـم عـلى خياشـيمهم، وقـد أبـدى بعضهـم نفـوره وتقـززه، أحسـت الأم بمـا حولهـا، فغرقـت في الشـكوى.. ففهـم أن المـرأة مـع ابنتهـا تضطـر يوميـا لركـوب الحافلـة قصـد زيـارة الـزوج في سـجن بنـي مـلال، أحـس صالـح بـأن خديجـة قريبـة منـه، فداعـب وجههـا ثـم لاذ بالصمـت احتمـاء مـن لحظـة جارحـة، هـذه هـي قسـمة القـدر المعتـوه تضطـره أيضـا أن يتّبـع السـبل الملتويـة لمتاهـة أحكمـت خيـوط أحابيلهـا عـلى رقبتـه بدقـة، هـو نفسـه لا يعلـم شـيئا مـن أسرار هـذه المخادعـة التـي تسـحبه إلى مسـارات متوحشـة، حيـث ينمـو المـوت المفتـون بتدمـير العلائـق والأشـياء، فيحـاول أن يفـر بتلـك الأفـكار والأحاسـيس التـي نمـت داخـل منطقـة الظـل، فبدونهـا لـن يبقـى أمامـه سـوى الانتحـار».

الآن، وبعـد الـذي حـدث، لسـت قـادرا عـلى اسـتيعاب تلـك الأحاسـيس التـي ولّدتهـا الرحلـة الأولى لصالـح إلى أزيـلال، والتـي ظلـت تـراوده باسـتمرار كلمـا عـبر سـد بـين الويـدان، مـا كان يسـميه هـو نفسـه: ب»عنـف المـكان»، هـل يمكـن أن يجتمـع لـدى المـرء، في ذات الوقـت، كُـره الأشـياء والأشـخاص والأمكنـة.. هكـذا، ودفعـة واحـدة؟ ذلـك أمـر ظـل غامضـا وغريبـا، بالنسـبة لي عـلى الأقـل، هـل مصـدر عـذاب صالـح

يعـــود إلى شـــعوره بنـــوع مـــن الإخصـــاء المـــزدوج، ذلـــك الانخطـــاف الغريـــب نحـــو ومضـــات الزمـــن المتسربـــل بهالـــة مـــن الحـــزن؟ أم يعـــود إلى افتقـــاده تلـــك القـــدرة الذاتيـــة للتوافـــق مـــع المحيـــط؟ أغلـــب الظـــن أن مـــرد ذلـــك يعـــود إلى كـــون صالـــح كانـــت لـــه عينـــان مجهريتـــان تنظـــران إلى الوقائـــع البســـيطة وربمـــا التافهـــة، كأنهـــا أمـــر جلـــل..

***

انعرجـــت الحافلـــة نحـــو طريـــق مُنحـــدر، فأخـــذت ملامـــح المدينـــة تتضـــح مـــع التـــواءات المســـالك وقمـــم الجبـــال، وعـــلى حافلـــة الإســـفلت الـــذي ظلـــت تلتهمـــه الحافلـــة، انتصبـــت لوحـــة علاهـــا الصـــدأ فتآكلـــت حروفهـــا: «..دينـــة أز..لال تـــر..ب بـــم» تحتهـــا مبـــاشرة، قـــرأ جملـــة (يـــا مـــن تدخـــل إلى هنـــا تخـــلّ عـــن كل أمـــل)، هـــل قـــرأ هـــذه الجملـــة فعـــلا، أم أن ذهنـــه المشـــوش كان مســـتعدا لمســـخ كل مـــا يـــراه، هـــذا مـــا رواه لي إذ أحـــس كأنـــه يدخـــل بلـــدة ملقّحـــة بالنســـيان، كل شيء فيهـــا محـــاصر بالمَحـــل والمـــوت: «مـــا أصعـــب أن يجـــد المـــرء نفســـه في مـــكان لا تربطـــه بـــه رابطـــة، ولا يســـتطيع أن يشـــيد معـــه أيـــة علاقـــة.. إلهـــي هـــل أكـــون ولجـــتُ مكانـــا قبـــل تكوينـــه ونُضجـــه».

لفتـــت انتباهـــه رائحـــة الشـــواء والدخـــان المتصاعـــد مـــن المقاهـــي التـــي انتـــشرت عـــلى طـــرفي الشـــارع، ظلـــت دوائـــر الأدخنـــة تتســـع لتُرَقّـــع الهـــواء، فيمـــا كانـــت الأرض مـــن الناحيـــة الغربيـــة تســـتدرج القـــرص البرتقـــالي نحـــو مخدعهـــا، ألقـــى صالـــح

بجسده فوق الكرسي... هي ذات المقهى التي وجد نفسه فيها منذ أربع سنوات ينساق نحو مسارب مُنحرفة، يجثو على جمرة في سواد فضاء عاقر عاريا إلا من بقايا حلم ينبجس كضوء المنارة في بهيم الليل، يتأمل الوجوه والسّحنات محاولا أن يقرأ أسرار مدينة بدت له بعيدة كالفرح.

***

«كانت المدينة صغيرة جدا، يخرقها شارع يعج بالحركة والضوضاء، أجواق من الأصوات تتطاير كالشعلة من النار يرتفع لهيبها عاليا، وعلى طرفي الطريق انتصبت المقاهي والمحلات التجارية، فيما غُرست على طول جانبي الرصيف أشجار علاها الشحوب والغبار، رشف صالح من كوب الماء الذي لم يستسغ مذاقه، وتوجه يسأل عن نيابة أزيلال.

تأمل ورقة تعيينه، قرأ أحرفها الجامدة، ثم طواها وتأكد من استقرارها في جيبه.. ألقى بجُثّته داخل السيارة، بجانب شيخ مسن ولفظ التحية بصوت منكسر، فأجابه الشابان اللذان احتلا المقعدين الأماميين والشيخ الذي طلب من المرأتين المختفيتين وراء الحائك الأصفر أن تنتحيا جانب الباب.. بدا الجو خانقا داخل السيارة المكدسة بالأجساد، فالسائق يضع مكان الراكب راكبين، وحتى مقعد سياقته اقتسمه مع سائق محيف اختاره من بين الركاب.. طوال الطريق، ظل صالح صامتا وأنفاسه مضغوطة، أحس بالاختناق، فالنوافذ غير مفتوحة خوفا من الغبار الذي

يتسرب إلى الداخل، غبار كثيف يرتفع من تحت عَجَلات السيارة محدثا زوبعة رهيبة، غبار خانق ليس كأي غبار، يتسلق الهواء ويحيط بالأعناق، ينغرز في الأعين كالإبر ويُجفف الشفاه والحلق.. لا شيء هنا غير الغبار والقسوة، كل شيء يبدو جارحا كنصل السكين..

تبرم من ثرثرة السائق الذي ظل يشتكي من الحفر والممر الجبلي والسيارة المعطوبة والضرائب، وبقي محلقا في دوّامة صمته يتفرّس الخيوط السرية التي قادته إلى هذا المكان.. بدا كما لو أنه يطأ قارة محجوبة بضباب كثيف من الغبار...

كان الطريق يمتد أمام السيارة كتنين خُرافي، فيما ظل صالح يناجي البلدة العارية: «أيتها البلدة، إني أخطب ودك وأقبل ترابك ملتمسا النجاة من المهالك التي تترصدني، فأنا لست غازيا، بل أنا رسول يقوم له أطفالك ليوفوه التبجيلا، أنا صالح البشير أمارس هجرتي إليك حاملا حكمتي، فرُدّي كرامتي التي سرقتها بلدتي وكُوني لي أهلا وسهلا..»

نزل من السيارة، كان أول صوت يفرَعُ أذنيه، نواح امرأة ونهيق حمار يقف على خمس قوائم، أو هكذا خُيّل إليه الأمر لأول وهلة، أفزعه هذا المشهد حتى حمله على التطير، كاد يعتبره علامة شؤم لمصير يجهله.. دلّه السائق على المدرسة، فدَلَف الباب الحديدي، **«لم أكن أرى شيئا من حولي بسبب العصّابة التي عُصبت بها عيناي حدست المكان فقط: صرير الأبواب، فرقعة المفاتيح، ووقع**

الأحذيـة الثقيلـة عـلى البـلاط، دفعنـي الشرطـي بقـوة حتـى اصطـدم رأسي بالجـدار، فانفجـر الـدم مـن رأسي، خيـط دافـئ أحسـه ينتـشر عـبر وجهـي»، وجـد الحـارس الـذي أمطـره بأسـئلة فضوليـة أجـاب عـن بعضهـا باقتضـاب: **«لا أعرفـه.. ـ أترفـض الجـواب.. ـ مـا اسـم الجمعيـة السريـة التـي...؟ أجـب عـن السـؤال بنعـم أو لا... ـ لا علـم لي.. مـا اسـمك المسـتعار...؟ ـ ليـس لـدي مـا أسـتعيره..»** ثـم قـاده إلى مكتـب كئيـب، **«أحسسـت بالـدم يخـترق العصّابـة ويتسـلل إلى خـدّي وفمـي، فسـقطت عـلى الأرض لا حيلـة لي، بعـد الإنهـاك الـذي تعرضـت لـه في قسـم الاسـتنطاق، ظنّهـا الشرطـي مكيـدة فرفسـني عـلى وجهـي بجزمتـه، ثـم قادنـي بعنـف نحـو مديـر السـجن»**، نقـر صالـح البـاب ثـم فتحـه، فوجـد رجـلا كهـلا جالسـا وراء مكتبـه، نظـر إليـه مـن وراء نظارتـين سـميكتين، **«ثـم وقـف مرحبـا وقـد ارتسـمت عـلى وجهـه غمازتـان ضيقتـان: ـ هـل رحبتـم بـه كمـا يجـب؟**

ـ كل ذلك حسب التعليمات سيدي..

ـ ألا تريد أن تعترف يا ابن الزانية، ما اسمك الحقيقي؟»

ـ صالح البشير، تعيين جديد.

كان يبـدو بشوشـا، سـلّم صالـح بعـض الأوراق، ثـم أردف بصـوت واضـح:

ـ الأخ من وجدة؟

أجـاب بإشـارة مـن رأسـه وهـو يوقـع الأوراق الذابلـة، ظـل يتابـع ملامـح الكهـل الـذي تخيـل فيـه هيبـة وأبهـة تُسـاير مـا ألفـه مـن عُنـف الإدارة الرمـزي، ببـذخ مظاهرهـا وسـلطة فضائهـا.. بـدا كل شيء فقـيرا، وزاد قـصر المديـر وتكرّشـه مـن بشـاعة المنظـر، لـم يحـس صالـح بـأي رغبـة في متابعـة شروحاتـه الضافيـة عـن القريـة والقحـط وعـن طبيعـة دوار القنادلـة وهـو أقـرب مـكان للمدرسـة التـي تبعـد عـن المركـز بأكثـر مـن تسـعة كيلومـترات، لـم يكـن يملـك الصفـاء الذهني لتتبـع سـيرة قريـة وقوانـين عمـل في مؤسسـة جديـدة، فوقـع محـضر الدخـول وشـكر المديـر، ثـم توجـه يسـأل الطريـق إلى دوار القنادلـة.

***

يـأكل التعـب قدميـه، وتسـتوي دروب المهـاوي شرهـة أمـام خطـاه، في أقـصى حـالات انشـطاره يُصغـي إلى دبيـب مرعـب يطـوف بدمـه وسـط متاهـة تـأكل ـ بطريقـة يصعـب تصديقهـا ـ قدميـه وأحلامـه، جلـس بجانـب شـجرة ليتّقـي القيـظ وألسـنة النـار، حيـث كانـت الشـمس تبـدو قريبـة كيـوم الحـشر: «ليـس هنـا غـير الخـراب، وهـذه الشـمس التـي تنتصـب كالجمـر في كبـد السـماء، تُشـعل الحرائـق في الـتراب والـرأس والقلـب.. إلاهـي.. كيـف يمكـن أن تطـأ قـدم رسـول أرضَ سَـقر؟»

أزال الحـذاء، كانـت الجـوارب قـد التصقـت بجلـده، ثـم مـدد

رجليه ليُفسح الطريق أمام دبيب التعب، وأخذ يتأمل القرية التي بدت غارقة في همومها وجراحها.. هناك تحت الشجرة، جلس صالح وحيدا في عَراء لا عراء يضاهيه في عُريه، أحس أنه مجرد عابر سبيل يتسلل إلى مقبرة جماعية على إيقاع الكورس الجنائزي، يرتقي سلم النهايات على مهل، ويطل على مشارف هاوية تقوده نحو وليمة الموتى، وكمن يبحث عن يقين استأنف سيره، فصدمت إحساسه الوجوه الملبدة بالغبار لعابرين يُلقون عليه السلام بشحوب، ألقى نظرة تغوص في تضاريس الخراب: التراب الصلب المائل إلى السواد، الأرض المتشققة كجلد تمساح هرم، وعيدان الشوك الجافة.. كل شيء حوله يتحول إلى كهف مقفر تتنزه داخله أشباح لها قدرة فائقة على المسخ والتشويه، أخذ يحدق في الأشكال الآدمية الساحبة خطاها إلى هاويات حتمية، فاستغرب باندهاش: «حتى الفقر هنا له طعم مختلف، فقر من طينة أخرى.. إن استمرار هؤلاء البدو أمام هذا الحرمان والتهميش وكل الأشكال الضارية والأكثر قساوة، مجرد هذا الاستمرار يتبدّى لي أشبه بالمعجزة.. إن الحفاظ على الحركة وسط هذا الحداد الوجودي يعتبر أمرا خارقا».

أحس صالح بظله ينسل منه ويتبعثر على الطريق، يسبقه إلى مسارات مجهولة، يلتوي كأفعى، يرقص متموجا، طويلا كعملاق كان، «ليس هذا ظلي، أحس به بعيدا عني ناصبا خيمته على ناصية جُرحي، أوسّع من

زوايا خطواتي لأتوحد بظلي، أركض وراءه فيهرب مني، أبحث عن خيط أرتّق به الشروخ الفاصلة بيننا»، توقف قليلا وانبسط فوق الرمل يستمتع إلى وجيب الأرض، يجس قلبها ويرصد نبض دمها باحثا عن سر يخفف به وطأة الحزن الذي يكلل هامته، ثم استأنف سيره، وعلى غير ما توقع، أخذت معالم القرية المتاخمة لحدود الحزن، تتضح شيئا فشيا عبر الطريق المغبر الذي رُصفت بعض جوانبه بنبات الصبّار، قربة عارية متروكة للنسيان ولجميع التشوهات، بدت البلدة مثل خشبة مسرح عتيق، ديكور فقير بدون إنارة والريح تموج أصوات موسيقى صاخبة، وصالح ينتظر الدقات الثلاث لولوج مسرحية بصكّ تعيين رسمي..»

***

أخرجته من وعناء شروده أصوات شحّاذين تعلو مع دخان الشواء في مقهى أزيلال، تُردد بنبرات مفعمة بالحسرة والأسى: «المسافرين عاونونا باش نركبو، راه تقطع بينا الحبل، الله يرحم الوالدين»، تقدم منه متسول عجوز يتكئ على عصاه، دسّ صالح يده في جيبه وأخرج سيجارة، ثم عضّ شفتيه في عنف وحقد على بؤس ذاكرة تثير في دماغه عاصفة من الانفعالات: «سوف ألعن بُؤس خيال عقيم، ما جدوى بعث ذكرى عبور يسحبني إلى مأوى قاس أشبه بالمتاهة، يجب أن أنفض عني هذه الأخيلة مثلما يُنفض الغبار عن الحذاء.. أشعر بأني في

مثل موقف خالد طوبال حين قال: (وفي مواسم الخيبة، تصبح الذاكرة مشروبا مُرّا يبتلع دفعة واحدة، بعدما كانت حُلما مشتكا يُحتسى على مهل)».

قدم الحساب للنادل، وأخذت قدماه تبتلع الشارع الذي يفصل مدينة أزيلال بخطوات نهمة، سار يستنشق مفاتن الجسد الذي أشعل روحه، لقد ألف هذه المرأة وتوثقت علاقته بها حتى صار من المستحيل أن يحس بالوجود خارج حدود دائرتها، فهي النجمة التي تنهض من بين الخرائب لتضيء عتمات دروبه.. يبدو له الأمر أكثر بساطة، إن الوزارة لم ترم به إلى هنا إلا لملاقاة هذا الكائن الفاتن، وهي أيضا ما كانت لتعمل ممرضة هنا، لولا نداء عميقا مستقلا عن إرادتها، كان يقول لي بمرح: «لقد أحب بعير وزارتي بعير وزارتها».

وقف صالح أمام بيت مليكة، تريث قليلا ليسمع صوت حذائها ثم عالج قفل الباب، وأخذ

يصيخ السمع لصرير المفتاح في ثقب القفل يدخل هادئا وناعما، فيشعر بامتلاء يخدّر أطرافه، يتوغل المفتاح عميقا في سراديب القفل، ودورة واحدة إلى الشمال ينفتح الباب، فيتسلل ظله، يسبقه إلى الداخل.. كان المنزل يسبح في الظلمة والصمت، ضغط على زر النور، واتجه نحو غرفة نومها، فجذبته رائحة نافذة للعطر، رائحة جسد يصل أمسه بحاضره.

علـى ضـوء شـعاع النافـذة بـدت هنـاك ببهائهـا الأنثـوي قمـرا نائمـا، تأمـل قدهـا الـذي ينفـث السـحر، ولـون بشرتهـا الـذي يُشـبه الرؤيـا، كانـت تنـام مـلء جفونهـا فـوق فراشـها، وقـد تدلـت يدهـا اليمنـى لتلامـس المائـدة المنتصبـة بـين الأريكـة والسريـر، تسـللت حزمـة ضـوء فغسـلت غدائـر شـعرها المتمـوج فـوق الوسـادة، كأنهـا في هيئـة نومهـا حوريـة أسـطورية، نصـف جسـدها الأعـلى يهبـط ويعلـو في تناغـم مـع إيقـاع تنفسـها الـذي ظـل يعـزف سـمفونية هادئـة.. لـم يشـأ أن يزعجهـا فجلـس فـوق الأريكـة دون أن يُـضيء نـور الغرفـة، أخـذ وضعـا مريحـا ثـم تـاه سـارحا في أسرار الجسـد الـذي افتتـن بـه.. «بـدوتُ مثـل ناسـك يتوحـد بمـكان مقـدس، أرفـع يـدي وأتوجـه بالدعـاء إلى رافـع السـماء بـلا عمـاد، والـذي يفضـل ذكـره عنـد سـائر العبـاد، بـأن يجعـل لي مليكـة خـير مهـاد».

أخـذ جسـمها يرتعـش داخـل الغطـاء، فأشـعل سـيجارة بهدوء، وعـلى ضـوء عـود الثقـاب انتبـه إلى الألـق النابـع مـن عينيهـا المنسـدلتين، فمـال بـصره إلى جسـدها اللـدن يتأملـه بـشره، ينـزع عنهـا الغطـاء والثـوب، ثـم يسـبح بـين تخـوم الجسـد المُخمـلي، بابتهـال ينشـد:

«تمددي أيتها الغزالة فوق موجة أحلامي

أضيئي بنورك عتمة هذا السواد

وطوفي داخل مساحات بحاري المتعبة

زلزلي هذا الأرخبيل الكسلان..

هل تسمعين أجراس القلب تقرع للعصافير نشيد الحياة؟

نامي يا حمامة في حدائق النخيل

واتركي النشيج الساهر في مواقد دمي

يسرح في الزوايا الشاردة..

أنا حارس أحلامك، تمططي قليلا

فوق الموج العالي للشهوة، مددي عنقك أكثر

وتطلعي إلى عمر ينط من السماء كطائر

يفرد جناحيه للهواء، ويوحد اسمك بظلالي.

فوق سحابة تخترق حجاب الوقت سافري

وحطمي جدار الغموض الكامن في فجوات فضاء معتم

حبيبتي لن يوقد آمور الضوء كي لا تفارقيه إلى الأبد

نامي يا بسيشيه، آمور أنا

المفتون بتفاصيل أنفاسك، آتيك من علياء الأولمب

شاهرا حبي في زمن شائخ

يطارد عصافيره بألف بندقية».

غـرق صالـح وسـط أحاسـيس وتداعيـات مسترسـلة نابعـة

مـن احتفـال داخـلي بصـورة مليكـة التـي تململـت وسـط الفـراش، فـبرز ثوبهـا السـماوي وانحـسر جـزء مـن الغطـاء عـن فخذيـن متناغمـين بدتـا كـبرج مائـل، فتحـت عينيهـا ثـم حدّقـت فيـه بدهشـة:

ـ صالـح.. منـذ متـى وأنـت هنـا؟ هـل كنـت تتجسـس عـلى أحلامـي؟

ـ بل كنت أحرسها من النسيان.

فتحـت عينـا فيمـا ظلـت العـين الأخـرى شـبه ناعسـة، وتثاءبت مـن جديـد، فتابـع صالـح دون أن يتحـرك مـن مكانه:

ـ لقد جلست بالمقهى، أنتظر عودتك من العمل.

قامـت مليكـة مـن السريـر، قبّلـت جبينـه فأمسـك بذراعهـا وأجلسـها فـوق الأريكـة:

ـ لمَ تنتظر إلي هكذا.. كأنك تراني لأول مرة؟

ـ لقد فتنتني والفتنة أشد من القتل !

ـ إني أقدم لك نفسي قربانا..

ـ لست امرأة، أنت مجرد حلم لذيذ !

ـ هل التمست طريق الغواية؟

ـ أريـد أن أعيـش هـذا الوهـم وأضيـع في تفاصيلـه، حتـى تلـك التـي تدفعنـي إلى الاسـتهتار والنّـزق بـل إلى الجنـون..

ـ إن الحب نهم يا صالح.

ـ نحن معا امتداد لرحلة الضياع..

طوّقت مليكة عنقه بذراعيها، بقي محدقا في تقاسيم وجهها ففاجأته بابتسامتها:

ـ لا أعرف حقيقة ما يجول في خاطرك؟

ـ دعي عينيك تسرح في صفحة وجهي.

ـ هل تحس بالشحوب؟!

ـ أريدك أن تُشعلي الحرائق في قشرة جلدي..

ـ عمّ تبحث أيها الدكتاتور العاشق؟

ـ عن مركز للدائرة تقف عنده خطواتي، عن مرافئ ترسو عليها مراكبي، لعلي أُنهي رحلة الجذب.. آه لو انقاد العالم لحظة واحدة لنواياي!

ـ أنت وريث عرشي، فلتسترح من تعب الرحيل وابسط سلطانك على مملكتك، إني أمنحك هاوية للجنون تُطل منها على عريك في نزيف الفراغ..

فكّت أزرار سترته وهي تداري خجلا اعترى ملامح وجهها، ثم مالت عليه بعنقها وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة لامعة، فأخرج صالح من جيبه هدية جلبها معه من وجدة.. أمسكت بقارورة العطر، فتحتها، ثم بسطت

كفهـا أمـام الفتحـة الصغـيرة وضغطـت عـلى المضخـة، فتناثـر العطـر فـوق رائحـة يدهـا مصـدرا صوتـا موسـيقيا، سـيطرت عليهـا حالـة انتشـاء فعلقـت بانبهـار:

ـ واو.. ذوق فنان، ولكن لماذا العطر؟

ـ رسالة تشق خرس الكلام أو وسيلة غزو..

ـ ها نحن نعود إلى الغزو والحرب !

ـ أردت فقـط أن أعـرف أي سـحر يمكـن أن يُحدثـه تفاعـل نشـوان، عندمـا يمتـزج هـذا العطـر الكيمـاوي برائحـة جسـدك.

قامـت مليكـة في اتجـاه المطبـخ، فيمـا تابعـت عينـاه قوامهـا وهـي تميـس في مشـيتها، ثـم تـاه يتجسـس عـلى أنفاسـه الذائبـة في غبطـة الروائـح، أوصـل المنشـب الكهربائـي بالتيـار وضغـط عـلى زر التلفـاز، فلـم يجذبـه البرنامـج الريـاضي.. جـاءه صـوت مليكـة وهـي تغنـي في المطبـخ، فقـام ليسـاعدها.

ـ قلت.. كان لديك اجتماع نقابي؟

ـ نعم، حضرت الاجتماع وتفرّجت على الخطب..

ثم التفتت إليه مبتسمة وتابعت باهتمام ظاهري:

ـ لقد انتخبوا مكتبا أبيسيا..

وبنفس الجدية التي أضفاها على الموقف سألها:

ـ لماذا لم تتقدمي للانتخاب؟

تأملته بعمق، وأردفت دون أن تُخفي تأفّفها من الموضوع:

ـ أعتقد أن هذا المجال لا يقبل الفتوى.. ثم لماذا تأخذ الأمر بهذه الجدية، هل يستحق العالم من حولنا كل هذا الحزم والصرّامة..

صمتت برهة ثم استأنفت بسخرية مرحة:

ـ مالك رافد الخشبة من جهة الثقل؟

ضحك صالح محاولا إعادة الاطمئنان لصلابته فيما تابعت مليكة:

ـ يجب على المرء أن يتخلص من ماضيه وإلا كرره بشكل رديء..

ـ كيف؟

ـ أن يضع جمجمته مثلا في مجرى التيار الهوائي لتبرد أفكاره أو تتبخر!

حتى حينما غادر السجن واتسعت المسافة بيننا، كان صالح لا يقوى على استئصال تلك الدودة التي تنغل في دماغه، كنت أتساءل: من أين كان يأتي بهذه الطاقة المذهلة، تلك اللهجة الرصينة وذلك التحدي الغامض؟ ظلت نبرات صوته هي هي، وحتى لو انهار العالم من حوله في لحظة رعب قاسية، كان يمكن أن يتكلم بنفس

الرصانــة وبتلــك الجديــة المفرطــة، أفــسّر الأمــر الآن بنــوع مــن الكبريــاء الجريــح.. لقــد ظــل الحقــد العنيــف يســكن صالــح حتــى بعــد انتهــاء التوتــر وانقــلاب أحــوال الزمــن، وهــو نفســه كان يشــبّه ذاتــه بلُغــم يســتمر في إخفــاء ســلاحه حتــى بعــد انتهــاء الحــرب.

***

بقــي صالــح مشــدودا إلى جمــال مليكــة: الجســد الطــري الناعم والوجــه الملائكــي في اســتدارة القمــر، صفــاء البــشرة، شــكل اســتدارة النهديــن اللذيــن يثــيران موجــة الشــبق في الصخــر، كانــت تضحــك مثــل طفــل، ترتمــي فوقــه وتلمــس جســده باهتيــاج، تأمــل قســمات وجههــا وانســاق في شــعاب الغوايــة، هــو نفســه لا يعــرف كيــف فكّــر في كل هــذا الجنــون كأنــه كان يبحــث عمّــا يُطهــر جســده وذاكرتــه في آن..

(يا مليكتي التي هي.. الرأس

يا مليكتي التي هي.. الشعر

يا إلاهي، عذب هو شراب فتاة الخمر

كشرابها عذب هو فرجها، عذب هو شرابها).

امتصــه جســدها البلــوري إذ لــم يــر مــن قبــل جســما بهــذا الاتســاق والانســجام، فاقــترب منهــا وهمــس في أذنهــا:

ـ أي ســحر يشــدني إليــك يــا فتنتــي القادمــة مــن عبــق

التاريـــخ وبطـــون الكتـــب الباذخـــة؟

ـ سحر النبض الحارق الذي يعرّش في قلبينا..

ـ لقد أصبحت وحدك مبررا لتشبثي بالحياة.

ـ أدركـت منــذ اللحظــة الأولى للقائنــا شعشــعة هــذا العصــف الــذي يوقــظ ذرّات الحيــاة فينــا، هــل تتذكــر يــا صالــح أول لقــاء بيننــا بالمســتوصف؟ لقــد كان هنــاك مــا يشــبه التواطــؤ في نظراتنــا!

***

«عندمــا ســأل عــن المستشــفى، قيــل لــه: عليــك بالذهــاب إلى المســتوصف بأزيــلال، اســتغرب إذ وجــد نفســه مرغمــا عــلى حمــل جراحــه إلى أماكــن بعيــدة جــدا.. اســتقبلته ممرضــة، ســاقته إليهــا ظــروف غامضــة فوجــد نفســه يفتــح البــاب الموصــدة، ويُطــل مــن جراحــه عــلى بريــق أضــواء تشــع كاليراعــة، تُوصلــه بالتخــوم الشــائقة لجســدها.. نــادت عــلى اســمه بصــوت مبتهــج، فشــدّت انتباهــه بقامتهــا.. كانــت تمــشي بإيقــاع مُتناســق يُنعــش تــوازن جســمه، قدمتــه إلى الطبيــب، وتــوارت خلــف البــاب.. بعــد الفحــص قادتــه إلى غرفــة عبــث الزمــن وإهمــال المصالــح المختصــة بطلائهــا، فتشــققت الجــدران وعلَــت البقــع الزوايــا، والتهمــت الرّطوبــة السّــقف، فيمــا كانــت رائحــة الــدواء تلــف المــكان.

تابــع صالــح إيقــاع الحــذاء وهــو يرتطــم بــالأرض مشــيعا

الـدفء في الغرفـة البـاردة، فتحـت الممرضـة صنبـور المـاء وأخـذت تنظـف يديهـا، وتجفـف كفّهـا بمنديـل أصفـر، فأحس أن جراحـه تقفـز كفراشـات تطـير بعيـدا وتسـحب معهـا روحـا معطوبـة.. تتبـع حـركات الممرضـة وهـي تحـضر الـدواء فاهتـز جلـده حـين رأى مـن فتحـة قميصهـا سـاقين تنشـدان ألحانـا موقعـة بالشـبق.. **اقتربـت منـه، فأمسـك بكفهـا، وسـل المقـص مـن بـين أناملهـا، كانـت أظافرهـا مطليـة بلـون وردي ينسـجم مـع أحمـر الشـفاه الـذي زيّـن شـفتيها، وضـع قنينـة الـدواء وسـط طسـت الألمنيـوم فـوق الطاولـة، نظـرت إليـه خلسـة ولـم تفُـه بكلمـة، فاقـترب مـن فمهـا ولمـس حمـرة الشـفتين، ثـم مـرر أناملـه عـلى جفنيهـا الكحيلـين، تفحّصـت هامتـه فاكتسـحته عيناهـا وأنعشـته أنفاسـها، فـشرع يفـكّ أزرار قميصهـا ممسـكا بخصرهـا، وبانتشـاء حملهـا بـين ذراعيـه إلى السريـر وهـو يدنـدن:**

«(تعالي يا عروسي..

خمرتي، عسلي

عيناك ـ إذا رنتا أمتعتاني، تعالي الآن يا أختي الحبيبة

ثغرك ـ كلمات الترحيب منه تُمتعني..

شفتاك ـ لمسة الصدر منك تُمتعني..

أختاه، حبك ـ جعته لذيذة..

أعشابك ـ عصيرها لذيذ، تعالي أختي الحبيبة)».

أطبق على فمها بفمه، ثم أخذ يجردها من ملابسها قطعة قطعة، فبدأت يدها تزيل عن جسده بقايا الجروح والطعنات، تطهره من حروب لم يخضها، فيما كانت أظافرها تنغرز في كتفه، وفمها يُدمدم بكلمات متقطعة الأحرف..

لم يفق صالح من انزلاقه الوهمي إلا على القطن المبلل بالدواء، تمرره الممرضة فوق جراحه، فعلته قشعريرة انكمش لها جلده، وأحس بضغط مؤلم على خصيته، فمال بقدمه ليخفي جُرحه المنتصب كأفعى يوقظها مزمار حاو.. دهنت الممرضة جراحه بمحلول مطهر، ثم طلت وجهه بمرهم لزج، ولم تكن تعلم أنها كانت تسقيه الدواء وتفتح نافذة في ثغر روحه، تدخل فتسكن هناك إلى الأبد، فالمرأة كالوشم تدخل الكيان من باب الجرح، ولا تغادره إلا من باب الجرح أيضا.. والجراح العميقة لا تُنسى، إذ ما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا!

***

أذكر الآن كل التفاصيل بمدينة وجدة: كان صالح يهتز انتشاء كلما ابتسمت له نزهة، يُحس بعبير يُنعش أزهار قلبه، ظمأ يجرفه إلى النبع الذي كان مرعى لسمات التحول النابتة على مسار يشهد بجروح العشق وجموح الشوق.. كنا نستغرب كيف يمكن أن يجمع كائن واحد في ذاته بين تلك الصرامة والجدية في العمل، وبين تلك الرومانسية التي

تجعـل أعطافـه تهتـز أمـام امـرأة مثـل نزهـة، في حضرتهـا كان صالـح يبـدو مثـل طفـل، يتـلاشى الجـدل ويـذوب المنطـق، كان يحـس بهـا تمتـد داخـل ضلوعـه كنخلـة تغسـل ضفائـر شـعرها في نهـر الصبابـة، فيعـبر النشـيد حجـاب الكتمـان.. بمناجـاة حالمـة يخاطبنـي:

ـ صعب أن يتورط الإنسان في قضية ما، يا طوبة!

ـ ولكنـك مجـرد عاشـق تـرى آسرتـك ترقـص عـلى مرايـا القلـب.

ـ إن الحب قضية كالوطن والحرية والطفولة..

مـرة في مقهـى الوشّـاني، في لحظـة صفـاء نـادرة اسـتغفلت صالـح:

ـ أين وصلت رحلتك أيها الرومانسي؟

ـ أطفئ شمعتي الثانية وأفكر في التقدم خطوة.

كـدت أمـوت مـن شـدة الضحـك، بـدا لي الأمـر أشـبه بالمـزاح فقلـت بمكـر:

ـ ها نحن نعود إلى حديث المؤسسة ونهاية رحلة الاشتداد..

ـ ليست هذه إلا بداية مغامرة أكثر حميمية.

ـ ولكن لماذا تستعجل الأمور؟

ـ أخشى من جرح انتظار قمر شارد.

كان لـه حـدس صـادق، وقـد ظـل يركـض كالحالـم وراء صورة نزهــة التــي أطرهــا خيالــه في لحظــة دفء ليضمــد جــراح الوجــع الــذي أخــذ يتســلق ســهوا شــجرة عمــره.. وعندمــا وجـد جسـده وراء الأسـوار، أغلقـت عليـه أسـوارا إضافيـة مـن النسـيان، فـكاد يُجـن في زنزانتـه: «أعتـذر لـك رفيقـي صالـح، إنــي رازحــة تحــت ثقــل التقاليــد الأسريــة، ليــس لي مســار آخر، ضغــوط القبيلــة تبتلعنــي، فأنــا جــزء مــن هــذه القوانــين غــير الطبيعيــة، وللأســف، أجدنــي بكامــل وعيــي كضحيــة لهــذه العلاقــات التاريخيــة مكبّلــة بألــف قيــد، لــم أســتطع التوفيــق بــين الأواصر القاهــرة لــلأسرة التــي تفــرض عــليّ الــزواج الآن باعتبــاره فرصــة نــادرة لإبــرام صفقــة الــرّق الوجــودي، وبــين حبنــا الــذي انصهــر في بوتقــة ولادة حملناهــا.. أعــرف أن القــرار صعــب، وقــد تعتبرنــي خائنــة تــرضى بالعــودة إلى البيــت المبلّــد للعقــل والجســد، مفضلــة إيــاه عــلى حــب عــرّش في زمــن المحنــة، وصــار جــزءا مــن إمبراطوريــة الحلــم التــي شــيدناها !

أتذكـر يـا صالـح، أتذكـر مـا كان يقولـه طوبـة حينمـا يصادق أطيــاف الذاكــرة ويحلــم بإنســان جديــد ينمــو عــلى ســهول الأرض الخـضراء، يفـترش العشـب، يمـارس الحـب، يسـتمع إلى الموســيقى ويتجنــب الــكلام الفــارغ والهرطقــة.. إنســان متحرر مــن الانهيــارات والانكســارات والخيانــات التــي أفرزهــا تاريــخ يرشــح بالــدم وتفــوح منــه رائحــة المنــي.. أتتذكــر ذلــك الصــوفي الــذي ظــل يلامــس الصــدع الــذي يســكن مفاصــل

الأشـياء؟ إنـه بـشرة أمـل «النبـوءة المصـادرة»، أمـا أنـت وأنـا والأحـلام الكـبرى فـكل ذلـك راح سـدى (..) إنـي أخـشى أن أصبـح مثـل ذرة رمـل مقذوفـة في الفـراغ ومتروكـة لمصـير مجهـول، صدقنـي يـا صالـح، إن الأفـكار الكـبرى هـي غالبـا مجـرد أحـلام طوباويـة أو مجـرد إحسـاس نبيـل بقيمـة الوجـود، لكنهـا تظـل غـير عمليـة..

وداعـا حبيبـي، هـي رحلـة أخـرى للملهـاة البشريـة، حيـث نجـترّ آلامنـا في صمـت ونعـود أدراجنـا حالمـين بالمسـتحيل»!

***

«بادرت الممرضة متسائلة باهتمام:

ـ ما بك؟ من أين أتتك كل هذه الجروح؟

لـم يُعـر سـؤالها أي جـواب، فقد اسـتغرق جسـدُها كل شـظايا تأملـه، أحسـت بـه يحـدق في تقاسـيم وجههـا، فتابعـت وهـي تـكاد تمـوت مـن الضحـك:

ـ هل سقطت من فوق ظهر حمار مُشاكس؟

ـ لا لا أبدا، فقط...

تلعثمـت الكلمـات بـين شـفتيه: «مـاذا سـتقول لهـا، وأنـت الفاتـح البطـل، المعلـم الرسـول، تقـول: انهزمـت.. ضربنـي لصـوص، أربعـة لصـوص، سـتة، لا بـل عـشرة.. أو كانـوا مـن الكثـرة بحيـث لـم تسـتطع أن تُعدّهـم؟» تـردد مليـا ثـم

اســتأنف حديثــه:

ـ شجار بسيط».

***

كانــت الشــمس تنحــدر نحــو المغيــب، والليــل يمتــص بقايــا النــور التائــه في درب الكــون.. غــادر التلاميــذ القســم، فحمــل صالــح محفظتــه عائــدا إلى الــدوار.. اســتوقفته رائحــة النعنــاع ومشــاتل أزهــار الفــل والياســمين التــي زرعهــا وقــد بــدأت تُبرعــم وتتفتــح، وشــجرة الكــرم التــي نمــت ببــطء، ظــل يراقبهــا مــن قريــب، لقــد نمــت بينــه وبينها ألفــة أنســته بعض القــرف الــذي كان ينفجــر داخلــه.. كاد يُجّــن جنونــه عندمــا رأى مــرة بقــرة تقتحــم باحــة المدرســة غــير المســوّرة وتبتلــع أوراق التــين، حمــل عصــا وجــرى وراءهــا حتــى أبعدهــا، صرخ في وجههــا كالمخبــول فيمــا ظــل الأطفــال يتابعــون حركاتــه في شــبه ذهــول، وبعضهــم لــم يُخــف ابتســامته.

كان يحــس أن تلــك الكرمــة هــي التــي ســتعيد للقســم بهــاءه، ســتورق ويُثمــر تينهــا فتقــف في وجــه الريــح، كانــت تبــدو لــه كرمــة شــامخة، جذورهــا ضاربــة في أعمــاق الأرض، تُعيــد لــه بهجــة نقيّــة وترمــم قلبــه المخــروم.. اقــترب صالــح مــن الشــجرة، ثــم جلــس بجانبهــا كراهــب يعــبر طقــوس المــدارات الســماوية: «أيهــا الــرب آتينــي بوحيــك، وهبنــي حكمتــك، أنــا «بــوذا» أجلــس تحــت شــجرة التــين المقدســة لأبــشر برســالة التنويــر في جاهليــة هــذه البلــدة البليــدة».

التفت إلى الضوء المنفلت من أفق الفضاء، وقفل عائدا إلى القرية.. كانت الطريق خالية، وكأن الكون كله قد أسلم نفسه لإغفاءة لذيذة، وحدها ظلال الأشجار الباسقة ظلت تتراقص على ماء النهر، وأعطاف الزهور تتمايل من لمسات النسيم.. على بُعد خطوات، تقدم نحوه ثلاثة أشخاص، لم يدر كيف طلعوا من الأرض، ولم يستطع تبيّن ملامحهم بدقة، أعينهم وحدها كانت تتقد شررا، فداهمته موجة من الذّعر، إذ تيقن أنه يعرض إلى الهلاك.. ومواربا هلعه، استجمع قواه وأخذ يصفّر ويضبط إيقاع خطوه ليبدو أكثر اتزانا.. تقدم أحدهم ولمس سترة صالح ثم دسّ يده في جيب سرواله، فيما هجم الاثنان على محفظته، حاول أن يتراجع إلى الوراء فصفعه أحدهم، «**أحسست بالوجع يسري في كل أعضائي: ما هي الخلية التي تنتمي إليها؟ من سلّمك هذا الكتاب؟**» التزم صالح بالصمت كي لا يُذكي الموقف، «**تحصّنتُ بالصمت لأحفظ كينونتي من بلادة الانهيار، كنت أرى في الصمت أكبر دفاع عن حقي في الحياة والحرية، فليس ثمة فكاك آخر أمام بشاعة الجلاّدين وآلة القمع الجاهزة لتدمير الجسد والروح**»، تساوت لديه الحياة والموت، وكبُر الخطر في عينيه بعد أن لاح بريق السكين في يد أحدهم، اقترب منه بخطو وئيد حتى بدا لصالح مثل الجدار يسدّ عليه الطريق، فصاح بوحشية في وجه صالح الذي ركبه انفعال شديد، بحث عن فجوة ليطلق ساقه للريح وينجو بجلده، لكن الحصار كان مطبقا، «**أقدام أخطبوطية تفترس جسدي، جزمة على وجهي وجزمة على خصيتي**

وأخـرى فـوق الـرأس والبطـن.. أقنعـة سـوداء تخفي التشـوهات الغامـرة للجسـد الآلي»، ركل صالـح الشـاب الماسـك بالسـكين في بطنـه وعالجـه بلكمَـة قويـة عـلى الوجـه حتـى آلمتـه أصابعـه، فأمسـك أحدهـم برجلـه حتـى فقـد توازنـه، تراجـع إلى الـوراء وحـاول أن يُعيـد التـوازن لجسـمه.. «**كنـت أترنّـح كمـن تلقـى طعنـة خنجـر مسـموم في ظهـره غـدرا»**، فعاودتـه قذيفـة مـن قـدم زائغـة حتـى هـوى عـلى الأرض، وأحـس بلكمَـة كالهـراوة تنـزل عـلى رأسـه، ثـم أطبـق أحدهـم عليـه بقبضتـي يديـن بدتـا كفكـيّ تمسـاح، «**فكـدت أختنـق بسـبب الإسـفنج المبلـل بالقـذارة والبـول، شـعرت بالعجـز»**، وبالألـم يـسري عـبر وريـد العنـق صاعـدا نحـو الدمـاغ، «**ثـم صرت ألتـوي تحـت سـياط الكرابيـج، والشـحنات الكهربائيـة تحـت خصيتـي تُزلزلنـي فأعـوي مثـل ذئـب جريـح، فيمـا ظـل السريـر الإسـمنتي يصعّـد الـبرودة الصاعقـة إلى عمـودي الفقـري.. كان الـضرب يـزداد مصاحبـا بالإهانـات التـي أُحـس معهـا بقـوة خارقـة للمقاومـة، لكـن جسـدي كان أضعـف مـن أن يحتمـل»**، حـاول أن يقـوم لكنـه سـقط، «**فتـوالى الـضرب واللكـم والرفـس، وظـل الـدم ينبجـس مـن فمـي وجمجمتـي، ولـم أتذكـر بعدهـا مـا حـدث..»**

وجد صالح نفسه في بيت غريب، حملق في الوجوه بصعوبة:

ـ الفقيه صالح على سلامتك، حفظك الله..

ميّـز مـن خـلال الصـوت الشـيخ عبـاس القنـادلي.. فـأدرك أنـه كان ممـددا في المضافـة نفسـها التـي آوتـه أول عهـده بالقريـة مـن حـرّ الهجـيرة».

***

للعاشق حاسة غريبة، حدس غامض يدفعه نحو المغامرة والدخول إلى حلبة الجنون فرغم مثول صالح للشفاء، ظل يقاوم جوعه وفقره ويضحي بالقروش التي أرسلها له طيلة الشهور الأولى من تعيينه ليطل على مليكة بالمستوصف، كان يحس بأنها تريد أن تطيل مدة استشفائه، وفيما يشبه التواطؤ صار يكثر من تردده على أزيلال خالقا لنفسه أكثر من ذريعة حتى بدا كما لو أن صحته سريعة العطب، وكان يحس مع كل إطلالة بأن مليكة تتفتح مثل زهرة، إلى أن تجرّأ يوما لاستدعائها إلى مقهى بمدينة بني ملال.

«جلس في المقهى يترقب اندلاع ثورة تقوده إلى مسالك مجهولة، شعر بالملل فقام حائرا، أين سيقود خطاه المكبلة بخيوط موعد جريح.. وفجأة، لاحت مليكة، ها هي تأتي كمطر الرحمة من جهة الشمال، عندما لمعت في ثغرها تلك البسمة التي تشبه النسيم، ابتسمت له الحياة، فنظر إلى ساعته.. كانت بداوة الصحراء الملتصقة بجسده كاللعنة تنفلت إلى السطح وتفضح تمدّنه، اقتربت منه وقبّلت خده لتطفئ نار الحريق، فقال بلهجة حازمة:

ـ انتظرتك أكثر من ساعة..

ـ فقط، وسئمت هكذا.. ماذا سأقول أنا التي انتظرتك خمسة وعشرين عاما؟

ـ إنك ماكرة.. هات خدّك لأرسم عليه قبلة تمتص غضب سنينك الخرساء ودقائق انتظاري المتمردة !

صوتها وحده كان كافيا لتضميد جراح الغضب داخل صدره.. تأبطت ذراعه فانطلقا مثل عصفورين يجوبان شوارع المدينة، ويختزنان داخل أعضائهما تفاصيل شائقة مترعة بالعشق والحلم».

يعود صالح من شروده محملا بالرؤى العذبة، يدحرج قدميه نحو مصب نشيد شيق، ويشعر كأنه يطأ أرضا من أراضي الحلم الذي يتألق في غياهب سرية، فأخذ يداعب حلمة نهد مليكة التي كانت ممددة بجانبه على السرير، يمرر يدا مرتعشة فوق الصدر، منبت النهدين، مارّا بالعنق والسرة، يلمس بأنامله وجنتيها وطرف شفتيها برفق فيضطرب تنفسها، ويتفتق جسدها عن نبض يزوبع حواس صالح وذاكرته، «**عندما أركب مليكة أحس كأني أركب الحياة كلها، أتمرغ فوق بساط متموّج يحملني إلى أصقاع شهية، أعصرها فتئنّ: آه ! يا ملكي الجميل.. ترتفع تأوهاتها، فأحس أني أعبر جسد مليكة كما اقتحم كولومبوس الأطلسي، مصحوبا بلذة استكشاف مُغايرة أطأ أرضا جديدة، فتعلق الأندلس بذاكرتي حين يُطلّ وجه نزهة العمراني متلألئا متوهجا.. لا رغبة لي لأنفي الهنود الحمر ولا لأحمل سفن الذهب والفضة إلى فردوسي المفقود، أنزلق صعودا وهبوطا كما يتمايل قارب فوق الموج في نشوة مهرجان الشبق، ومليكة تلتوي وتصرخ باستمتاع لذيذ..**

لـو خُـيّرت بـين جسـد مليكـة وحكمـة الأنـكا وذهـب الإزتيـك، لفضلـت أن أصلـب عـلى جسـدها إلى الأبـد، فهـي التـي حولـت صقيـع هـذه البلـدة المغـبرّة إلى فـردوس إنسـاني، بجمـال منفـرد عـبرت متاهتـي.. تُـرى مـاذا كان سيسـاوي العالـم بـدون امرأة؟ فحتـى لـو صـحّ أنهـا أخرجـت آدم مـن الجنـة، فهـي الآن جنـة الأرض، وحسـب ذلـك تكفـيرا رائعـا..».

استـيقظ صالـح مـن النـوم، توجـه إلى الحمـام، نظـر إلى المـرآة فانتبـه إلى أحمـر الشـفاه فـوق القميـص، ابتسـم، كان دائمـا يفهـم رسـائلها الذكيـة التـي تجعلهـا حـاضرة بقـوة في ذاكرتـه.. أغلـق البـاب وراءه وحمـل حقيبتـه قاصـدا مربـض الطاكسـيات المتوجهـة إلى آيـت بوكمـاز.

***

ظـل قطـر النـدى يترقـرق عـلى صفحـات أوراق العشـب، والنسـيم يتدفـق مـن النافـذة فينعـش خلايـا الجسـد، فيمـا كانـت الشـمس تغمـر الحقـول بنورهـا الفـضيّ، تصافـح السـنابل الناعسـة، والريـح تلهـو بأفنـان الشـجر وتسـحب الغطـاء عـن الـورود والأزهـار، وعـبر الزجـاج ظلـت الحقـول المتموجـة تترامـى كالبحـر أمـام بـصره، بـدت لـه البلـدة كجنة عـدن، ففكـر: «كل هـذه الخـيرات وينهـش الجـوع قلـب هـذه القريـة»!

«كان صالـح يُلقـن تلاميـذه درسـا في الجغرافيـا حـول المعـادن، لفـت نظـره تلميـذان يوشوشـان فقصدهمـا غاضبـا، تلعثـم

أحـد التلميذيـن وقـد امتقـع وجهـه خجـلا وقـال بتوسـل:

ـ واللـه يـا أسـتاذ، فقـط سـألته كيـف أن المغـرب يملـك الفوسـفاط، وأبـي يشـتريه بثمـن غـال مـن المركـز الفلاحـي..

أحـس بصدمـة، فعفـا عنهمـا مداريـا انفعالـه بابتسـامة رخوة: «صحيـح ـ قلـت لنفـسي ـ هـذه جغرافيـا غـير محايـدة، لأنهـا لا تعلمنـا كيـف نملـك كل هـذه الخـيرات بالتسـاوي!''

ظـل صالـح يحلـم بجغرافيـا عادلـة، بينمـا تابعـت السـيارة طريقهـا عـلى غـير العـادة، حيـث أخـذت معالـم دوار القنادلـة تـبرز مـن بعيـد، كمـا رآهـا لأول مـرة لتعـود صـور البدايـات، صدمـة الحـواس أمـام مـكان عنيـف في كل تفاصيلـه.. «**بيـوت واطئـة متفرقـة يمكـن للرّائـي مـن بعيـد أن يـرى على سـطوحها جـرارا صُنعـت كأبـراج للحمـام والحجـل، جـدران ذات حجـارة فاقعـة اللـون، دور مـن الطـين الأحمـر خلـط بالقـش مـن أجـل تماسـك البنـاء، أشـجار تـين وصفصـاف وجميـز تنتـشر بـين الـدّور وعـلى جنبـات الحقـول، بـدت القريـة وكأنهـا تنفتـح عـلى ريـح الشـمال، وتسـتقبل حُبـاب الشـمس كل صبـاح مـن الجهـة الشرقيـة حيـث يجثُـم جبـل سـيعرف فيمـا بعـد اسـمه وأسراره الأسـطورية، تقـدّم صالـح مـن شـيخ مُسـن يرتـدي جلبابـا أبيـض، سـأله عـن طريـق المدرسـة فتفـرّس الشـيخ في وجهـه وخاطبـه بصـوت أجـش:**

ـ أنت معلم جديد إذن، أليس كذلك؟

أجابـه بإيمـاءة مـن رأسـه فهـشّ الشـيخ للقائـه، ونـادى طفـلا

بملابس مُغبرة وشعر أشعت، تكلم معه بالأمازيغية فلم يفهم صالح شيئا، «وجدت نفسي أمام مَغرب لا يعرف مغربه»!

دخل صالح المضافة، كانت عبارة عن قُبّة واسعة بأثاث تقليدي يدل على قليل من الثراء في غير بذخ، وعلى الجدار عُلّقت صور تبدو واحدة منها للشيخ:

ـ مرحبا آسي الفقيه..

ـ المعلم صالح، المعلم صالح البشير.

بدا تأكيده كأنه يلمح إلى مهمته، فعانقه طيف يعبر عبر ذاكرته إلى طريق الطفولة بوجدة، حيث الصور الغافية تحت الجلد: فضاء الكتاب العابق برائحة الألواح والسّمق والصّلصال، والبول المعتق في ملابس الصبية.. شيطنة الطفولة ووصايا الأب: «أنت اذبح وأنا نسلخ» كنا نتابع نومة الفقيه سي احمد ونتهامس خفية، كانت تلك عادته، يجلس فوق الدّكّة ويضع جلبابه تحت رجله اليسرى، ثم يرفع صوته بقوة ولا يلبث أن ينام فيعلو شخيره، ويقوم عبد الرحيم ابن خالة صالح بدغدغة الفقيه بخيط يُبلله بلعابه أو بعود حصير، ونحن نضحك، وعندما تعلو قهقهاتنا يضرب سي احمد أمامه كيفما اتفق بعصا النخيل التي ظل يُمسك بها إلى أن ووري القبر.

ألح صالح على الذهاب إلى المدرسة وحده رغم إصرار الشيخ الذي أكرم مثواه ونوّر باله.. بدت له الشمس الكبريتية المعلقة فوق رأسه مرعبة كالحمى، قاسية مثل دمّل

يلتصق بوجه السماء، فوجد نفسه كمن يعبر مفازات وحشية بلا درع يقي به سمّ النّبال المحتجبة وراء الغبار وسط قرية ستلتهم شبابه، ويمحو غبارُها آثار أقدامه فلا عين رأت ولا قلب توجع.. التفت خلفه، فبدت له القرية الذابلة جغرافيا هاربة من خرائط العالم، كان كل شيء من حوله يعطيه الإحساس الفائض بالحرمان، فعادت إليه كل الملامح والنظرات التي تحمل لعنة الفجيعة، «هل عبرت أحصنة هولاكو هذه الأرض البعيدة كالأمل؟»

أحس بالتعب يتسلل إلى كيانه، فقد كانت المسافة طويلة كالسُّم يسري في الدم وئيدا موزعا على كل خلية حصتها، وهو الرسول المعلم وحيدا، تمتد الطريق أمام بصره كتنين يغرق في جوفه عميقا، لا من يطعمه من جوع ولا من يؤمنه من خوف، أو يؤنسه من وحشة تنخر عظامه كالسّوس».

***

كانت السيارة تتابع طريقها في اتجاه الجبل المتاخم لدوار القنادلة فتذكر أن اليوم موعد السوق الأسبوعي، أطل من النافذة الخلفية للسيارة.. كانت القرية تتوارى خلف ظهره مثل كيس رمال، «**فتمنى لو تحتجب عن بصره إلى الأبد. سار صالح يتقدم متهالكا نحو القسم الذي لاح له كنقطة في السماء، وتراجع الدوار وراء خطوات الغبار، فيما صارت النقطة تكبر رويدا رويدا كأرجوحة منتصبة بين جبلين.. شعر كما لو أن كل شيء يُناصبه العداء، فبصق**

على الأرض باحتقار، فحين يغوص الإنسان في دوامة القلق، يحس دوما بانفلات الأفكار المدمرة عوض تلك الأفكار الدقيقة المضبوطة التي حرص على مراكمتها..

وفجأة غطّت الأرض سحابة من الغبار حتى أظلمت السماء فهبّت أمطار غزيرة، توقف صالح وأسلم جسده لرذاذ المطر كنبتة يابسة تنفتح أنسجتها لغزو الماء المتسرب من التراب قطرة قطرة، وفتح شرايين قلبه لرائحة الغبار التي صعدت خياشيمه، فأحس بدفء ناعم يتسلّق أدراج أعضائه.

استغرب صالح من فقر المدرسة، إذ لم يكن يتصور حينئذ وجود مدرسة بتلك الهندسة: قسمان جاهزان بأبواب مهترئة، ونوافذ تكسر زجاجها، ولكي يقي المعلم تلاميذه ونفسه من التيّارات الهوائية والغبار والرياح، استعان بما أتيح له من قطع قصديرية لإقفال النوافذ إلى الأبد.. ولج باب القسم، نظر إلى السبورة التي علاها الغبار وأكلتها الثقوب، والمنضدة القديمة التي وُضعت حَدوَ السبورة المثبتة على الجدار بمسمارين معقوفين، أخرج من جيبه منديلا ليمسح به الكرسي، فانتبه إلى إحدى قوائمه التي اعوجت، حاول أن يعيدها إلى مكانها ليحصل التوازن المرجو، فتكسرت وأصيب بجرح في يده، فقذف الكرسي بقدمه مختزلا فيه كل غضبه، ثم خرج من القسم، بدا له المكان كأنه ظل مهجورا لسنين خلت، جال ببصره من أعلى التل حيث انتصب القسم مثل حدبة، وفي الأسفل انبسطت دور متفرقة تناثرت كالنمل.. اشتدت الأمطار، أحس بالبرد فهرول نحو القسم..

استفاق صالح على صوت الريح وهي تعوي في جوف الليل، كانت المياه قد هجمت على القسم فاحتار ماذا سيفعل وسط العتمة.. أشعل سيجارة وسمّر عينيه محدقا في الفراغ، ومسكونا بهاجس الرعب، تركزّت كل حواسه في الأذن مثل أعمى: هفيف أوراق الأشجار، صوت الصراصير، نقيق الضفادع، صوت الريح وهي تعوي مثل الذئاب الجريحة، وزخّات المطر تنزلق بإيقاع متسارع.. أجواق من الأصوات تنهمر داخله كشلال مُريع يصمّ أذنيه ويوتّر أعصابه، تجمّأ وسط قميصه واستسلم لهواجسه، فعاد إلى مسامعه كلام عباس القنادلي:

- إن الناس يا بني يعيشون حياة رهيبة في هذه القرية، فسنوات الوباء الذي هبّ مع الريح الشرقية كانت قاسية، حملت معها الموت والفجيعة، كانت أياما سوداء حيث ابتلع القحط خضرة الأرض، فجفت موارد الماء وأصبح العطش يهدد القرية.. وها أنت ترى كيف التهم الوباء كل شيء، ظلت الريح الناحبة تخطف كل مرة صبيا أو دابة أو طيرا.. إن الإحساس بالموت كان ثقيلا، بعد أن اصفرت الحقول وذبلت البساتين، فانهارت النفوس تحت الضربات الموجعة التي وجهها الوباء والقحط.. أصبحت الأرض جرداء وأسياط الشمس المعلقة في سطح السماء كجمرة دائمة التوقد ظلت تجلد بأشعتها الوجوه والحقول وتُذيب أمخاخ الرجال. في البداية كان المنظر مخيفا، إذ أهلكت رياحُ الموت النسل والحرث، وكادت لا تبقي أثرا لإنس أو دابة أو طير لولا ألطاف القدرة الإلاهية، لكن اليوم، يبدو كما لو أن

الناس قد ألفوا مشهد الموت والخراب!

إن الوباء جاء مرفوقا بالجفاف، لا يتذكر أحد من كان الأسبق القحط أم الوباء؟ ظلت عيوننا تراقب السماء بقلق باحثة عن بشارة.. كل السحب تمرّ فوق رؤوسنا غير مكترثة بهذا المحل الذي يقتل القرية ويمحو وجودها، ظللنا بعد كل صلاة جمعة ننتظم حشودا من الرجال والنساء، الأطفال والشيوخ ونخرج في مسيرات جماعية بقلوب خاشعة ضارعين إلى الله ليسقي عباده ويروي بهيمته وأرضه.. حيث يمسك الصغار بعصا مثل فزاعة، وقد ربط أعلاها بغصن شجرة تين، فيما حناجرنا تبتهل باسم الله وحده فترتعش الدعوات الصارخة «السبولة عطشانة، اسقيها يا مولانا» و«الزرع وصل حدُّو، اسقيه يا من خلقو» و«تَا غَنجَا تَا غَنجا، يا ربي تَعطينا الشتا»، ولم تأت «الشتا» ولا كفّت السماء عن إطلاق سهامها المسمومة التي قتلت الورود والسنابل، فمات معها الحلم والأمل..

وحينما سأله صالح عن المدرسة هزّ رأسه متبرما وأردف دون أن يخفي سخريته:

ـ ليس عندنا مدرسة، بمعنى مدرسة وكما يمكن أن تفهم، هناك بيتان بُنيا منذ تسع سنوات خلت تحت ضغط أهل القرية، وآخر المعلمين هما السي السليماني، ذهب يوما يغسل ثيابه في الواد فلم يعد..

خمّن للصدفة الغريبة التي جعلته حزينا، كيف يحل محل معلم مات خلال الصيف، أكله النهر، فحاول أن يخضع

هـذه الميتـة للتأمـل: «هـل سـتأكلني يومـا الـدروب الأخطبوطيـة لهـذه القريـة، وتبتلعنـي تلالهـا ورمالهـا، هكـذا تشـاء الصدفـة أن أحتـل مـكان معلـم مـات في النهـر.. ابتلعـه أنكـي، إلاه المـاء يجـرف الحكمـة بفيـض ينابيعيـه، أنكـي يـا إلاه المـاء العـذب، لـم لا تبعـث الحيـاة في هـذه القريـة، لـم لا تُحيـي موتاهـا، وتخلـق بحكمتـك كونـا جديـدا بـدل هـذه القمامـة مـن المـوت والفنـاء والتّشـوه..»

انبلـج الفجـر كلؤلـؤة، فطـرح الكـون رداءه الأسـود، وكفّـت خيـوط المطـر عـن النـزول، خـرج صالـح مـن القسـم فداعبـت وجهـه نسـمة الصبـاح، فسـار يلتمـس الطريـق إلى القريـة.. كانـت الأشـجار مُبلّلـة وسـيول الميـاه قـد جرفـت الجسـور التـي انتصبـت فـوق الجـداول، فامتـلأت الطرقـات بالـبرك والوحـل».

***

حـين وصلـت سـيارة الطاكـسي إلى السـوق، كان صالـح يحـاول أن يتخلـص مـن ثقـل الذاكـرة وجراحهـا الغائـرة..

السـوق في الباديـة مهرجـان للصـور، عيـد للحـواس كلهـا: وصـف للاشـتباكات السريـة، ضجيـج أصـوات الباعـة، صفقات مُريبـة، عقـود زواج، بـوادر المصالحـة، تفاصيـل سرية للعشـق، شـبق صامـت يتـوارى خلـف العيـون، الاحتـكاك بالمؤخـرات، صدفـة اللصـوص والنشّـالين الذيـن تنشـط عيونهـم في الزحام، المجـال الحيـوي لتجديـد السـلطة، فـم الإقطـاع الـشّره، أكيـاس

الخضر والفواكه الطرية المهرّبة لرجال الدرك، كشف الأسرار ومراسيم البوح الجماعي، مطالعة الحظ على الورق، قراءة الطّالع على عظمة كتف خروف، أسرار نسائية، زوج عنّين أو غيرة فاضحة.. قُبّة الولي الصالح حيث يأتي الكسحاء والمعتوهون وذوو الحظ المنكود من كل فج عميق، زمن بطيء كالموت، فَقد قاس تبرز آثار ندوبه على المحاجر والشفاه.. توابل متراكمة كالتلال، مواد غذائية يعلوها الغبار والذباب، علب الصابون والشاي والسكر التي فقدت ألوانها لفرط ما احتملت من أشعة الشمس ورذاذ المطر.. شيوخ طاعنون في السن يجرجرون معهم الخيبة والآهات المكبوتة، حواة ورواة وفكاهيون، أطفال شاحبون، طالب معاشو: «بالاك.. بالاك..» أدعية المتسولين، تَهارُش كلاب جائعة قرب المجزرة، قذارة وبول، شتائم وملاسنة، شبكة سرية للترابطات القبلية..

تقدم صالح منتشيا بهذا الاحتفال الكرنفالي، يستقصي الأشياء بنوع من الإسراف في إمتاع الحواس وكأنه يزور السوق لأول مرة، يبدو مثل سائح مُفعم بمظاهر الشرق البدائية يتذوّق كل التفاصيل بنوع من الهوس والجنون.. أحسّ بالجوع، فقصد سُرادقا اتُّخذَ مطعما في منعطف الطريق.

كان السُّرادق عبارة عن خيمة شُدّت إلى الأعلى بركائز خشبية، وفرشت بالحصير حيث انتشر فلاحون ملتصقون بالأرض بجلاليبهم الرثة ووجوههم الشاحبة، معظمهم

نزحـوا مــن قــرى مجــاورة جــرداء مســكونة بالجــوع والقهــر، جــاؤوا يَجــرون وراء لقمــة العيــش. ظــل مســاعد الشــواء يحرك النــار، ويطــري شرائــح مــن لحــم عريــض، قطــع مــن الكبــد والرئــة ملفوفــة وســط الشــحم، فيمــا ظــل الرجــل الحــافي يُلبي طلبــات الــرواد التــي تنبعــث مــن هنــا وهنــاك طالبــة الشــواء وصينيــة الشــاي، انــزوى صالــح في الركــن المقابــل لمدخــل الــسرادق، يراقــب المــارة ويتفــرّس وجــوه الفلاحــين.. فطالعتــه خيمــة الحــدوشي بنفحــة صــور الذاكــرة المشرعــة عــلى العــراء، في عتبــات أزمنــة مدججــة بالدبابيــس والفخــاخ التــي لا تكــف عــن بَســط غوايتهــا، صــور ضبابيــة تبــدو كمــا لــو أنهــا تريــد أن تحصــن ذاكرتــه مــن النســيان.

لقــد ظلــت خيمــة الحــدوشي، محــط ذكــرى جارحــة لصالــح، حيــث انتحــى ذات مــرة في ركــن منهــا فــوق الحصــير، كان الــكل يتأملــه وهــو يلتهــم البيصــارة في صحــن معدنــي متهالــك في القــدم، «أوصــدت أجفانــي تــاركا فســحة مــن الوقــت لمزيــد مــن الصّــور التــي ازدحمــت في غرفــة رأسي لكــي تطــل واحــدة واحــدة عــلى مداهــا البعيــد، هكــذا أســتطيع تأمــل ســيري وســط هــذه القريــة قبــل أربــع ســنوات، حيــث آخيــت ولــه التيــه بــلا مصبــاح في مــكان تتشــابك فيــه البشــاعة بشــكل قاتــل، وينتصــب القهــر كأخطبــوط أســطوري بألــف رجــل وألــف يــد»!

***

«في اليـوم التـالي لوصـول صالـح اكـترى بمسـاعدة الشـيخ عباس القنـادلي بيتـا في ملـك المعطـي المراكـشي.. كان المنـزل صغـيرا أشـبه بخـم الدجـاج: بنـاء مهلهـل بحجـر غـير مُسـتو وغـير مُبلّـط، أرضـه المتربـة بـدت مسرفـة في الانخفـاض عـن مسـتوى سـطح البهـو، والطـلاء الـذي طليـت بـه جدرانـه بـدا حديثـا وغـير منسـجم، وقـد سُـقف البيـت الوحيـد بأعمـدة خشـبية متراصـة طـولا، رصّ فوقهـا قصـب كثيـف، فيمـا تتوسـط المنـزل باحـة واسـعة نبتـت في إحـدى جوانبهـا شـجرة فارعـة الطـول بجانبهـا انتصبـت بـئر صغـيرة، وفي الجانـب الخلفـي للجـدار الملتصـق بالبـاب كانـت العرائـش تتشـابك متعانقـة تتسـلق الحائـط، وينتهـي مدخـل الـدّار ببـاب ثقيـل يفضـح كل مـن فتحـه بصريـره المـدوّي.

اسـتطاع صالـح بخيالـه أن يؤثـث المنـزل، وضـع السريـر بعيـدا عـن مجـرى الهـواء في الجهـة المقابلـة للنافـذة حيـث يسـتطيع رؤيـة النجـوم والقمـر ليـلا، وبسـط فـروة خـروف بجانـب السريـر، ثـم نظّـف اللحـاف ووضـع فوقـه الوسـادة، وفي الجانـب المقابـل للسرير صـفّ كتبـه، ثـم بسـط زربيـة فاخـرة في الوسـط.. وأخـذ يتأمـل غرفتـه التـي بـدت عاريـة ومأهولـة بالعواصـف تنفتـح عـلى هـوّة سريـة..

ولأن التعـب أكل جسـده فقـد اسـتلقى عـلى ظهـره، فشـعر بالـبرودة تتسـلق بدنـه، خُيـل إليـه أنـه محـاصر بأعـداء وهميـين يلتبسـون بدمـه رغبـة في التمويـه، فيمـا ظـل إيقـاع المطـر يُنمـي شـعور الوحـدة داخلـه، فغمغـم بسُـخط: «أي منفعـة تُرجـى مـن شـجرة محـزوزة العنـق ومقطوعـة الجـذور

سوى أن تُرمى في موقد نار؟؟

بقي مُتكوّرا في ثيابه يلتوي من شدة البرد والجوع، فيما أخذت جيوش البقّ والبراغيث تعبث بجلده، لم يُطاوع النوم جفنيه، فهام وراء صور أحزان تشده إلى ليل يغمر قلبه بضباب كثيف، ثم قام حائرا من مكانه «وأخذ يذرع الزنزانة جيئة وذهابا، هكذا يتعلم المرء كيف يُذيب مللـه وحزنه وكيف يُحافظ على الحد الأدنى من الصلابة.. أحس بالأرض تنزف من تحت قدميه»، فآوى إلى فراش النوم.

في الصباح، زار صالح السوق، كان يموت جوعا لأنه لم يُصب من الطعام شيئا منذ غذاء البارحة.. عند المنعطف التقى الشيخ عباس بصحبة الحاج اسماعيل الميلودي صاحب دكان القرية، رجل في الخمسين من عمره بوجه مستطيل ورقبة طويلة، حليق الوجه، بدا مهتمّا بمظهره، ولم تكن عيناه ترسوان في مكانهما.. احتضنا صالح بحرارة، فاستغرب لهذا الاندماج السريع، كل الناس يتهامسون مشيرين إليه، لم يحاول أن يسأل، ففيما بعد سيفهم سبب هذا الفرح الذي يعلو الوجوه فجأة، فيستنفر الابتسامة الهاجعة في مكانها، إنه الماء.. فالمطر الذي يغسل هامات الأشجار وينبت الزرع، له بلسم آخر غير الحزن والكآبة، إنه هنا نبتة سحرية تلتفع بأسرارها، فتدفء قلوب البدو وتوقظ الفرح في أعين الفلاحين المكبلين بقيود السماء والأرض التي يزرعونها ويودعونها آلامهم وآمالهم..

كان السوق ممتلئا بالوحل وببرك الماء، والفرحة بادية على

وجـوه النـاس.. جلـب صالـح عربـة وحمـل فوقهـا بعـض المتـاع الـذي اسـتطاع المغامـرة باقتنائـه، وعـاد منهـكا إلى المنـزل».

وضـع مسـاعد الشـواء إنـاء اللحـم أمـام صالـح، فعـاد مـن الريـح التـي تعـوي في قـاع مُخـه، «لا أجـد في نفـسي مـن اللـذة والشـغف مـا أتابـع بهمـا لعبـة معقـدة، لضعـف حيلتـي وسـقوط همتـي واضطـراب شـأني.. إن الذاكـرة لا تصلـح إلا للنسـيان، بـل للتدمـير أحيانـا.. فيمـا سـينفعني تذكـر أحـداث مـاض يثـير ألـم جـراح قديمـة ويولـد في النفـس حزنـا.. كل مـا كان مـن أمـري أنـي قـد بذلـت مـا في وسـعي لأتـلاءم مـع مـكان ظـل بعيـدا عنـي كالفـرح، فبحثـت عـن خرائـط تدلنـي عـلى مسـالك أليفـة اكتشـف عبرهـا الجغرافيـة السريـة للقريـة، ثـم اسـتمرأت لعبـة سـحقتني عجلاتهـا وضعـت في دروبهـا، طلبـت تسـليم رجـال البـلاد وتُهـت في لجّـة الانكسـارات المرصوفـة وحيـدا غريبـا وطريـدا، وبكلمـة فقـد أضعـت نفـسي في متاهـة مشـتبكة.. والذيـن حتّمـوا عـليّ هـذا الرحيـل لـم يمنحونـي خرائـط للسـفر أضبـط بهـا إيقـاع الرحلـة، كل تفاصيـل هـذه الجغرافيـا النائيـة ظلـت تتـآزر مـن أجـل إبادتـي، فأحـس أنـي عشـقت نفـي النفـي الـذي ليـس تأكيـدا أو إيجابـا، بـل نفيـا مضاعفـا..»

اقتنـى صالـح مـا يُلزمـه مـن مؤونـة الأسـبوع، واشـترى جزمـة جلديـة ليتغلـب بهـا عـلى وحـل الطريـق.. أدخـل رجلـه في الجزمـة، كان ثمـة مـا يشـبه الجـرح يوجـع قدميـه، بينـه وبـين هـذه القريـة مسـافات مـن العُـري، عقـود مـن السـير

في مفازات الجرح، وعليه الآن أن يغرس قدميه في الصحراء ليتعلم لغة الصراخ وسط شرك الغياب..

خطا حتى منتصف الطريق إلى المدرسة، فشعر بالعياء وثقل الجزمة التي بدت عملاقة في قدميه، كان يسير وحيدا في الطريق المبلل، لا ظل يؤنسه سوى صوت الريح، صنوان في خرس الأشياء.. أحس صالح بجراح الماضي تقفز كلها وبدفعة واحدة إلى ذاكرته، فمكث زمنا لا يبرح مكانه، ينثر صوته في خلايا الرّعشة بساحة مفتوحة على شهقة الألم وتضاريس الفجيعة.. ثم خلع الجزمة وأخذ يتلذذ بوقع الوحل وهو يلامس قدميه حتى الكاحلين، كما لو كان يجد في رحم الوحل مأوى لآلامه..

في عز البرد قام تلميذ إلى السبورة، ورفع سرواله إلى ركبتيه، كان ينتعل صندلا بلاستيكيا، لمح صالح قدميه فشعر بعُري رجلي الطفل أقرب إلى نفسه من جزمته الملوثة، أشفق عليه من البرد فأمره أن ينزل سرواله، ففكّ الطفل أزرار السروال وأزاله كاملا حتى كشف عن مؤخرته، فغرق القسم كله بضحك الأطفال وصخبهم.. في القديم، في الأسطورة الرومانية يأمر جوبيتر عظيم الآلهة أحد القادة الرومانيين بأن يقدم تضحية في سبيل الآلهة يكون ثمنها تقديم رؤوس، وقد أطاع القائد الروماني كبير الآلهة جوبيتير، وقدّم تضحية كان ثمنها تقديم رؤوس، رؤوس من الثوم بطبيعة الحال، إنه مكر اللغة..

***

يتمـوّج ضـوء الشـمعة مفتونـا بمغازلـة الريـح التـي تتسـلل مـن شـقوق البـاب، فتنتعـش الظـلال عـلى الجـدار، وتتراقـص دوائـر دخـان السـيجارة، تلتـوي ممتـدة نحـو السـقف.. مسـتلقيا عـلى ظهـره كان صالـح يجـول ببـصره في أنحـاء الغرفـة يَرمـق المائـدة وقـد علتهـا بُقـع سـوداء، آثـار كـؤوس الشـاي والخمـرة، فُتـات الخبـز والزيتـون، مطفـأة السـجائر وأعقـاب لفافـات التبـغ الكسـيحة، الكتـب المبعثـرة في كل مـكان، كتـب مفتوحـة وأخـرى مسـتلقية عـلى بطنهـا كامـرأة تنـشر فخذيهـا فـوق رمـال المتوسـط، الجرائـد المتراكمـة في غير نظـام تحكـي بـؤس العالـم بلغـة خشـبية، الخابيـة المنتصبـة بقدّهـا الفـارع بـدت غارقـة في صمـت أبـدي، جهـاز الراديـو الأخـرس، الجـوارب.. وفجـأة طالعـه رعـب السـواد..

كانـت هنـاك، الجزمـة الحالكـة.. بـدت لـه مثـل قـط أسـود لا يتحـرك، زوجـان متضامّـان يتكـئ جلدهمـا الأعـلى كأذنـي سـلوقي، أخـذ صالـح يحـصي عـدد الأعـين الوقحـة التـي تحـدق، أعـين ثابتـة تنظـر إليـه في العتمـة، أصابـه هلـع شـديد ارتعـدت لـه جميـع أوصالـه، فقفـز مـن فراشـه مذهـولا، فتـح البـاب ولـوّح بالجزمـة حتـى أحـدث ارتطامهـا ضجيجـا مدويـا مـزّق صمـت الغرفـة، لقـد فكّـر في شـنقها عـلى حبـال الغسـيل التـي ينـشر عليهـا ملابسـه وجراحـه، ويشـدها بالمقابـض لتبقـى معلقـة في الهـواء، «**وتبـدأ لعبـة الطيـارة مـن جديـد، العصّابـة والقيـود، السـباب الـلاذع، رعشـة الجسـد تحت**

ضربات الكرباج المتلاحقة، صراخ التعذيب، اللّعنات الحاقدة، هستيريا الجنون، ذلك البكاء المر الذي يوخز كالإبر، الدم المتخثّر على الجدران، الأعصاب التي تجمدت من كثرة الضرب، كسر العظام والجسد يدور معلقا في السماء، خيالات القمع الوحشي الذي يوقّع الرعب الأسود في العيون، الإرهاب النفسي، الأشباح الوهمية، تهريب الأحلام إلى مناطق الظل..

بعد الوليمة الإضافية جيء بصالح إلى زنزانته في وقت متأخر من الليل، كنا في البداية نسمع فقط صوت ارتطام ساعة يده بالأرض، ثم أخذنا نسمع ذلك الأنين الذي يُتلف الأعصاب، وبعدها عمّ الصمت العنابر، فاعتقدنا أنه لفظ أنفاسه..

في الصمت تستيقظ عذاباتنا، تنفرد بنا في منعطف طريق مظلم وتعبث بنا، وأنا، على خلاف صالح، أكره الصمت فيما أعشق الهدوء، على الأقل فالهدوء اختياري نمارسه بانتشاء، فيما الصمت يغل إرادتنا ويستبد بأحلامنا ويجعل كل واحد منا يدخل إلى صدفته كالحلزون».

همّ صالح بالاستلقاء لكن رهبة مفاجئة علته، فقام إلى باب الغرفة وأحكم إغلاقه إذ وسوست له نفسه أن الجزمتين ستتسلّلان إلى الداخل وتجثمان فوق صدره فتكتمان أنفاسه، عاد إلى الفراش، أدخل جسده وسط الغطاء «**وحاول أن يستسلم للنوم، لكنه لم يستطع، كان في قرارة نفسه خائفا من شيء ما، فأشعل ضوء الشمعة**

وجلس يدخن سيجارته.. عند هذا الحد كانت الأمور تسير بهدوء، إلى أن سمعنا طرقات تكاد تخلع الباب عن إطاره وأصوات تصرخ:

- افتحوا الباب، يا أولاد الزنا، لن تفروا لقد وقعتم بين أيدينا.. يومها بكى أنور مثل طفل، أما نزهة فقد ارتمت في حضن صالح.. لمحت أحلاما غائرة تموت في عينيه، وتتّقد بدلها مشاعر عنيفة قادرة على التدمير بشكل جنوني، حاول أن يتماسك رغم أمارات الحزن التي اكتسحت سحنته، فقال مشجعا وكأنه لا يعبأ بما يجري:

- من سينقر بيتنا في مثل هذا الهزيع الأخير من الليل سوى الخفافيش، زوار الليل؟

وقهقه بصوت مرتفع، فيما استمرت صرخات البوليس وخبطهم على الباب، تسارعنا نحو الدّرج، لم أكن أبصر شيئا على الإطلاق، فانغرست قدمي وسط قدر العشاء الذي وضعته نزهة في الدرج، لم تكن لدي القوة لإزالته، فغاصت قدمي في البطاطس، واحترقت بالمرق الذي تسلل إلى لحمي، كنت أحبو مثل كلب رافعا قدمي الغارقة وسط الوعاء إلى فوق، وظل ارتطام الوعاء بالجدار يحدث ضجيجا مروعا، فاختلطت علينا لحظة الخوف بالضّحك الذي توارى في الغياب حين فتحنا باب السطح.. كانوا هناك أربعة أو خمسة رجال شداد غلاظ، انقضّوا علينا كما ينقض سرب من الكلاب على جثة بقرة ميتة».

منذ أن ووري جسد صالح في غياهب السجن، انقلبت أحوال

العائلــة، إذ تــوفي الأب متأثــرا بمــرض الرّبــو ودخــان الكيــف المــدرّج بســموم القــوت، وتحملــت أمــي الصّالحــة ـ هكــذا كنــا نســمها عندمــا كنــا صغــارا ـ عنــاء الصدمــة، وصــارت تجــر قدميهــا إلى بيــوت النــاس، تقــرّش القــوت مــن هنــا وهنــاك، وابنتهــا زهــرة مــن ورائهــا، تطهــو في بيــوت الميســورين، وتتــدرب مــع فتيــات الحــي في معمــل الزّرابــي.. جــاءه نعــي الأب وشــلل الأم مــع أختــه زهــرة التــي ظلــت تســند انهيــاره التدريجــي وســط القضبــان خاصــة بعــد رســالة نزهــة الأخيرة.

إن وجهــة النّظــر الكئيبــة هاتــه هــي التــي ســيحس بهــا صالح أكثــر مــرارة بعــد خروجــه مــن الســجن وصعوبــة تواصلــه مع مُحيطــه، وعندمــا نجــح في مدرســة المعلمــين، أخــذ يعيــد تأثيــث أحــلام جديــدة تســاعده عــلى إنقــاذ أسرته.

تطلعــت إليــه أمــي الصالحــة بعينــين كابيتــين، وقالــت بصــوت متهد ج :

ـ لقد فُرجت يا بني..

تطلــع إلى ســحنة وجههــا التــي ظلــت ترشــح بالحــزن والألــم الــذي يفــدُ مــن كل صــوب بمناســبة وبــدون مناســبة أحيانــا كثــيرة، فواصلــت كلامهــا بتوســل:

ـ لا تنســانا يــا صالــح، ابعــث عــلى الأقــل بالقليــل الــذي نســتر بــه حالنــا..

ثم ندّت عنها تنهيدة، اشتهت معها حُلما مستحيلا:

ـ يا ليت كان المرحوم بيننا !

كان صالـــح غارقــا في المســـار الـــذي بـــدأت تشـــقّه قاطرتـــه، فأيقظـــه نحيبهـــا مـــن عطالـــة التأمـــل وشرود البـــال، اقـــترب منهـــا وعانقهـــا، ثـــم وضـــع رأســـه عـــلى صدرهـــا فشـــعر بيدهـــا تُداعـــب شـــعره.

***

فتـــح صالـــح البـــاب عـــلى نفحـــة بـــرد لامســـت وجهـــه، تقـــدم قليـــلا في العتمـــة متلمســـا طريقـــه إلى الشـــجرة الجاثمـــة في باحـــة المنـــزل، تطـــل كعمـــلاق يحـــرس بصمتـــه أحـــلام القريـــة، خُيّـــل إليـــه أن العالـــم يغـــرق في صمـــت أبـــدي، وهـــو الرســـول المهاجـــر، عليـــه أن يبـــدل حـــال البـــلاد والعبـــاد ويخرجهـــم مـــن الظلمـــات إلى النـــور.. تقـــدم في المســـير، فأحـــسّ بعـــدم تـــوازن ســـيره، نظـــر إلى قدميـــه.. كان ينتعـــل حـــذاءه الأســـود في قـــدم وفي الأخـــرى انتعـــل خـــفّ ربيعـــة الـــذي تركتـــه لـــه تـــذكارا حينمـــا أشـــفقت عـــلى حـــال حذائـــه الـــذي أكلتـــه الطريـــق أول عهـــده بالقريـــة، اســـتدار عائـــدا إلى المنـــزل ليغـــير الخُـــفّ، لكنـــه في لحظـــة قـــرّر أن يُتابـــع ســـيره، «ارتحـــت لهـــذه المزاوجـــة الجنســـية، قلـــت: لا بـــأس، فالتـــوازن الحقيقـــي لا يأتـــي مـــن الســـاقين، يكفـــي الإحســـاس بالثقـــة»..

كان القمـــر ينـــير بضوئـــه الحقـــول المتوهجـــة في الفضـــاء، فيمـــا ظـــل الصمـــت يلـــف المـــكان ولا يخرقـــه إلا نبـــاح كلـــب يعلـــو مـــن هـــذه الـــدار أو تلـــك، صمـــت جليـــل يهبـــط عـــلى القريـــة

الرّاسخة في فقرها، النائمة على قذارتها، والغارقة في الظلام حتى قُنة رأسها.. أزاح عن شعره رذاذ المطر الذي داهمه في الطريق وواصل سيره نحو شجرة تتوسّط حقل المعلم المراكشي، شجرة مفعمة بالأسرار تنتصب كالصليب فوق بساط عُشبي، هذا هو المكان الذي تدربت عليه خُطاه، تحمله إليه كلما ازدحمت معدته بنفايا الطعام، خلع سرواله وجلس القرفصاء مسلما جسده للعشب.. ينسكب ضوء القمر من خلال أوراق الشجرة، ومضات فضية تنعكس على وجهه، وتنبعث رائحة العشب قوية، فيغمره إحساس بالانتشاء، «إن الفضاء هنا جد متحرر، على الأقل لن يتهمك أحد بالشذوذ الجنسي، فليست هناك تفاضلية بين أعضاء الجسد، فاليد التي نحشو بها الطعام في فمنا، هي نفس اليد التي نحكّ بها شرجنا».

همّ صالح بالرجوع إلى البيت، فجذبه شُعاع لاح في مدخل الدوار عند البئر، فجر خُطاه بدافع فضولي، يريد استطلاع المكان الذي ينبعث منه الضوء، كانت الغيوم قد بدات تجب ضوء القمر، فاعتمد على حدسه ومعرفة خطاه بدروب الدوار ومسالكه.. اقترب أكثر، إنه دكان الدوار الذي يتبضّع منه الناس، دكان الحاج إسماعيل حيث يجلس الرجال بالنهار متحلقّين حول الورق والضّامة وبالليل يجتمع الرعاة ليلعبوا القمار.. تناهت إلى مسامعه غَمغَمات أصوات، فاقترب من الكُوّة في هدوء مشوب بالحذر، ألصق شحمة أذنه بالحائط كاتما أنفاسه،

متهيّبا من أن يراه أحد يسترق السمع إلى الداخل، فتناهى إلى سمعه صوت امرأة بدا له أليفا، ثم صوت إسماعيل المبحوح وهو يطلب منها أن تخفض صوتها خوفا من الفضيحة، فاندفعت المرأة ضاحكة بغنج.

ركز صالح كل حواسه، دنا من باب الدكان مرتعدا خائفا، ازدرد ريقه والتفت مستطلعا المكان من حوله، لا شيء غير العتمة وهذا الشيخ الماجن الذي كثيرا ما يلعب في فواتير دين أهل القرية ليسدد حساب نزواته على ظهورهم، يركب صهوة الشّبق ونزوة العربدة، بسحر جنوني يسعى إلى تثبيت إيقاع الزمن السّاحب قدميه إلى القبر، وهذه المرأة التي تملّصت من فراشها، وربما بتواطؤ مع زوجها لنهب الشيخ والتغلب على محنة لقمة العيش.. ألقى صالح بنظره من ثقب المفتاح، أغمض عينه اليمنى وفتح اليسرى ليدقّق الرؤية ويستجلي ما يقع بالدكان، ثم قلب النظر مرتين، أغمض العين اليسرى وفتح اليمنى ليعدل بين الجارحتين.. كان لا يبدو من المرأة سوى فخذين مفتوحين انحسر الثوب عنهما، وقد انتصبتا في شكل زاوية منحنية إلى الأسفل، واستطاع أن يتبين مؤخرة إسماعيل وهي تعلو وتهبط ككفتي ميزان، ثم تحولت الهمسات إلى صراخ مكتوم.. سمع خشخشة وراءه فقفز مذعورا كالقط المرعوب، لا شيء، مجرد كلب أخذ يُبصبص بذيله ويشم حذاءه، فسحب قدميه عائدا ببطء إلى المنزل..

في الطريق إلى البيت صار يمنّي النفس ويفتح أبواب

الأمـل بلقـاء إحـدى الجنيّـات التـي ظـل جـدّه يحـذره منهـا، يريدهـا اللحظـة أن تحملـه إلى عالـم غريـب يشـتعل بالشـهوات والطقـوس السريـة، إلى مـدارات تُتلـف رزانـة الفقيـه داخلـه وتُسـلّمه إلى شـهاب الغوايـة وبـذرة الجمـال السـاكنة في بقـاع لا مرئيـة تطهـره مـن كل الوصايـا الثقيلـة، «لا بـد مـن التيـه في العالـم، والصعـود إلى أقـصى عتبـات الفتنـة لإيجـاد معنـى للجسـد والحيـاة، ولاكتشـاف ذلـك العنـصر الخفـي الـذي يشـدنا إلى إيقـاع الزمـن رغـم رتابتـه.. أشـعر الآن وهنـا، أنـي والخطيئـة توأمـان نُبحـر معـا في الغيـاب ونشـتهي حضـزرا آثمـا».

انتهـى مـا جـاء في بـاب «صفـة الرائـد والقائـد ومـا ضـارع ذلـك أو شـاكله».

باب في «ذكر ما يعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف كان قبل الخصاء»

«كل الأشــياء بــاردة مــن حــولي تَبثّنــي جوعهــا وحزنهــا، وكمــن يريــد أن يُسـعف أملــه مــن الانكســار، أحــاول أن أســلخ جلــدي وأطــل مــن نافــذة غيابــي لأرمــي نفــسي مــن الطابــق الأعــلى لنفــسي.. لقــد سـئمت تكــرار غبائــي، كل يــوم أعيــد تفاهاتــي وأحاســيسي، أكــرّر وجــودي بشــكل رديء وبهلوانــي أيضــا.

أفكــر في كل هــذه الجراحــات التــي علقــت بــي هنــا وتفجّــرت داخــلي بقــوة، وفي تلــك الأحاســيس المضغوطــة والغامضــة التــي جعلتنــي لا أجيــد شــيئا غــير الشــتائم.. تــرى كيــف يســتطيع المــرء أن يــوزع بالتســاوي كل الأحــزان التــي تنمــو عــلى ضفاف أيامــه؟»

صالح البشير «اليوميات»

الاثنين 3 نونبر

عـدت إلى المنـزل مُرهقـا والجـوع ينهـش بطنـي، جـوع رهيـب يتسـلق دماغـي ويُفتـت أعصابـي، تلاشـيت وسـط اللحـاف كتلـة مـن التعـب، ولـم أسـتفق حتـى حـدود التاسـعة ليـلا، أدرت مفتـاح المذيـاع، فأتانـي صـوت أجـش: (لا زالـت الأنبـاء متضاربـة حـول حقيقـة مـا يجـري في كوريـا الشـمالية، فلقـد أذيـع هـذا الخـبر بواسـطة مكـبرات أصـوات في المنطقـة المجرّدة السـلاح الفاصلـة بـين شـطري كوريـا: لقـد قتـل الرئيـس كيـم إيـل سـونغ... مـا زالـت فضيحـة الأسـلحة الأمريكيـة نحـو طهـران تثـير انتقـادات واسـعة.. ومـن الأنشـطة الحكوميـة، اصطفـت جماهـير غفـيرة..) كتمـت صـوت المذيعـة، بـدا لي أن العالـم مشـغول بلـمّ خرائبـه، تصـورت الأرض مثـل صخـرة موضوعـة عـلى جبـل عـال، هنـاك الكبـار يتفقـون حـول إشـارة الانطـلاق لدَحرجـة الكـرة نحـو سـفح الجبـل حيـث تصطـف جماهـير غفـيرة تنتظـر ابتـداء اللعـب، حتـى ولـو كانـت الصخـرة ستدوسـها فهـي مسـتعدة للتصفيـق أبـدا.

لـم أجـد شـيئا يمكـن أن أقـوم بـه، شـيئا يمكـن أن يعطينـي الإحسـاس بالوجـود، فتحـت كتابـا لأقـرأه فلـم أسـتطع..

أحس أن الزمن هنا يظل راكدا كبركة آسنة، فضاء يبحر في الغياب وزمن ينمو بمخاوفه وآلامه على ضفاف حياتي، فيما الساعة بجانبي تتكّ، بداخلها كانت الدجاجة هي سيزيف البدوي، تنقر حبا لا يلتقط أبدا، ولا تكلّ أو تضجر، تحاول مرّات ومرّات، هل عليّ أن أعيد حكمة النملة التي علّمت الإسكندر الأكبر؟

يقودني شحوب المكان إلى شعاب الذاكرة، فأتوحد بأغاني الطفولة، أبحث عن سرّ دافئ يحميني من طوفان التيه الذي يزحف نحوي مثل ثور هائج في حلبة الكوريدا.. انتبهت إلى الشمعة التي ذوت، فخرجت للبحث عن الشمع.. وجدت الدكان مقفلا، فعدت أدراجي.. كانت الغرفة تغرق في ظلمة رخوة، فتذكرت كيف كنا نلصق آذاننا بالباب لنراقب ابتعاد وقع خطوات السّجان الذي يُطفئ الأنوار باكرا في العنابر، ثم نأخذ قميصا، نمزق طرفا منه، نبرمه جيدا ثم نبلله وسط سدّاد زجاجة المربّى، ونصبّ عليه قليلا من الزيت.. بدت الفتيلة مثل أفعى تدور حول نفسها، فيما ظلّت رائحة الزيت المحروق تخنق جو الغرفة، جفّ حلقي، ففتحت الباب ليتسرّب الهواء المنعش.

الثلاثاء 11 نونبر

رغم استئنافي مسيرة الحياة العادية، فإنني لم أستطع أن أحدد شعورا صافيا تجاه المكان وأهله، بدت لي القرية أول وهلة أشبه بالمصيدة، حقل ملغوم بالأسرار والأحزان في آن، لكن ثمة صوتا عميقا ظل يشدني إلى هؤلاء البدو.. كانت القرية معزولة خارج خرائط الزمن حتى خُيّل إلي أن الله كوّر ما بين يديه من طين وصنع العالم، وما تبقى من فُتات صنع به هذه القرية المنكوبة: أرضها وأهلها.. لا شيء غير الفراغ يقتات من خلايا قلبي، الشيء الذي يدفعني باستمرار للبحث عن تصالح متعذر مع جحيم التشوه والموت، يلزمني انفعال حاد مزوبع أؤنس به وحشة هذا المكان.. أحس أني بحاجة إلى غُراب يسنّ تقاليد الدفن أمام عيني، يعلمني كيف أدفن كل هذا السواد الذي ينتشر من حولي، أو إلى من يمنحني قدرة نادرة على تحويل الألم إلى متعة أو سخرية خارقة.

انخرطت في ضحك هستيري، ثم اختلط علي البكاء بالضحك، فخرجت ككلب مطارد أجري وسط القرية، أريد أن أذيب الوحش الرابض في هيكلي، أركض وراء حوافر دابة إلى أقصى طريق النهر، لا ألقي بالا للذين حاصروني بنظراتهم وتحياتهم، وبتحريض خفي أتوقف لحظة وأنقلب مهرولا إلى بيتي، كل أعضائي ترتعش والعرق يتصبّب من

جميع أنحاء جسمي، اتكأت على شجرة لأسند تعبي، فعبرتني فكرة صاعقة: هل أصبت بالجنون؟ ذوّت هذه العبارة في أذني كالقذيفة، شعرت أن شجاعتي خانتني ولم أعد أجرؤ على موازنة الأمور، فتحسّست ملابسي: لا بأس، لا يعدو الأمر أن يكون مجرّد استيهام عابر !

التقيت بجاري المعطي المراكشي، فعرض عليّ أن ألتحق بالجماعة قرب البئر للتعرف على أهل الدوار، لكنني اعتذرت لا تكبرا بل محبة، فمنذ استقرّ بي المقام هنا وأنا أحاول أن أحافظ على مسافة بيني وبين الناس، مسافة ضرورية من الغموض حتّى أتجنّب كل ما يوقعني في ورطة محتملة، وحتى أتمم مراسيم وحدتي في هذا الغار، لا أريد من أحد أن يقتحم خُلوتي، أحس كأني محاط بألف لغز في هذا المنفى..

الجمعة 14 نونبر

صباحا: انتشر الفلاحون في الأرض كالنمل بلا ملامح، يُقلبون التربة بمعاولهم ورفوشهم، يقطعون الطفيليات ويحرقون أعواد العَسلوج الجافة، فيما انصرف البعض إلى شق أديم الأرض بمحاريث بدائية، كانت أشعة الشمس تداعب سواعدهم التي بدت لي رشيقة وناعمة، جلست فوق صخرة أراقب بهدوء البسمة المتفجرة في أعين رجال الحقل.. كانت الأرض مثل امرأة هلامية أجثو فوق نهدها،

فتفتــح لي أسرار جســدها رويــدا رويــدا.

زوالا: تســليت بترتيــب أجــزاء البيــت وتنظيفــه، ذُهلــت مــن جيــوش البــق التــي غــزت اللحــاف وعــلا بُصاقهــا أوراق الكتــب والملابــس.. تعبــت مــن تنظيــف ملابــسي باليــد حتــى انعقــف ظهــري، فجمعتهــا وبــدأت أدعكهــا بقدمــي، ظــل العرق يرشــح مــن جســدي ولــم أنتبــه إلى الدمــوع التــي كانــت تتســاقط عــلى خــدي حتــى وصــل مذاقهــا المالــح إلى فمــي، أدعــك بقــوة ويــداي مقبوضتــان بعصبيــة، أكــز عــلى أســناني حتــى أصبــح صريرهــا مســموعا ولســاني أدمــي مــن ضغــط أســنان الفكــين، إذ داهمنــي إحســاس بأنــي أدعــس كل هموميــ !

مســاء: أفتــح جراحــي ممــرا لخطــى حالمــة تعبرنــي، فتنســل الذكريــات مــن مرافئهــا وترمــي نســيجها عــلى ســفح أيامــي، وكمــن يُطــل عــلى هاويّتــه مــن ثقــب إبــرة، أفاجــأ بخطــى أول حلــم، وأول عشــق، وأول كأس نبيــذ، وأول ســيجارة، وأول فخــذ امــرأة غازلتهــا يــدي في لحظــة مســتحيلة، وألمــس الســاحة العتيقــة لبــاب ســيدي عبــد الوهــاب بوجــدة حيــث يوحدنــي عبــور الطرقــات والمســالك الأليفــة، أتحســس صــور الأصدقــاء وجــراح الأحذيــة الســوداء، والعشــاء الفقــير في أوانــي فاخــرة، احتفــال كرنفــالي بوليمــة الجــوع مــع طوبــة، وأنــور ونزهــة..

آه مــن ذلــك الجســد الناعــم الــذي ظــل يختــزن بركانــا مــن الرغبــة والمواجــع الســاكنة.. في لحظــات الصفــاء النــادرة، حــين يــروق بــالي، كنــت أحــاول أن أفكــر في كل مــا مــرّ بشــكل هادئ،

مختـزلا طـرح السـؤال بعمـق أكـبر: هـل مـا حـدث، كان يمكن أن يحـدث بطريقـة أخـرى أقـل عنفـا؟ هـل كنـا بحاجـة إلى جنـون أعمـق لنـدرك بـكل عنفواننـا تلـك التبـدلات التـي تـرج الأفـكار والأحـلام؟ لمـاذا لـم نصـوّب فوهـات رشاشـات حقدنـا نحـو الهشاشـات التـي تسـكننا حتـى النخـاع؟

تهـرب اللحظـات شـبه عاريـة مـن مخابئهـا، فأستسـلم لخطاي المنحـازة لشـوك المسـالك، وأخـرج للتسـكع في قريـة الـرداءة والتشـوه لأقتنـص سرّ الغـزو المنظـم للقـذارة، وتلـك السـياجات الثقيلـة للقهـر والترويـض، ولأتعلـم كيـف أسـتطيع التوغـل عميقـا في البسـمة الضامـرة للأشـياء دون أن أحـدث ضجـة توقـظ المشـاهد الرابضـة خلـف حجـاب الرّتابـة.. وأحـس في لحظـة بـأن الفجـوة بينـي وبـين المـكان تـزداد اتسـاعا بحجـم الغيـاب.

السبت 2 دجنبر

في الحانـة بمدينـة أزيـلال، دسسـت في يـد النـادل قطعـة نقدية، فأرشـدني إلى ماخـور سري، شـكرته وقمـت قاصـدا المكان.

أحيـاء فقـيرة بمبـان باهتـة، وأزقـة نتنـة بـدون مصاريـف للميـاه، واجهـة دور قـذرة لا تتنفـس الهـواء، أزبـال تنتـشر هنـا وهنـاك، ذبـاب وحـشرات تطـن بجنـون: هنـا وكـر الظلمة وشـبح المـوت وجرثومـة التجـارة السريـة، في تصميـم بنيـة أي

مدينة حديثة تعتبر العلبة الليلية، الحانة، أمكنة الدعارة ضرورية مثل دورة المياه في المنزل، لا مندوحة للكائنات الغارقة في زحمة الآلات والمؤسسات والأشياء والعلاقات الثقيلة من مكان للإفراز الحضاري..

جرى نحوي طفل كان يفتش وسط كومة أزبال، ومدّ يده نحوي:

ـ دَوّر معايا نديك لتاقّات.. واش بغيتي الحشيش ولا الماحيا؟

تجمع الأطفال حولي، فخفت أن يُفتضح أمري، نهرت أحدهم بدأ يتسلق ذراعي، ولم يفك جرّتي سوى درهم قذفته بين يد كبيرهم، ثم استأنفت سيري بحذر بين الدروب الضيقة.. عند باب المبغى ذلك المدخل السري للغواية، استقبلني شاب ضخم الجثة، مقاس أساسي للبواب مثل الصخرة الضخمة التي كانت تغلف الجبال والمغارات الملغزة بأسرارها ومفاتنها الأسطورية: «افتح يا سمسم»..

دخلت مبغى تاقّات، فلامست تشوه أجساد شبه آدمية تتحصن وراء عُري بربري يقود زائريه إلى كهوف مرصوفة بالانشقاقات، كان صُراخ العاهرات يتعالى جارحا صمت المكان، والكلام الساقط الخارج عن جيولوجيا الاستعارات والبلاغة الكاذبة يفضح وهم الحقيقة الاجتماعية المتماسكة.. وفجأة انبعثت صورة أول مومس تعبر حياتي بوشم جارح، زمن البدايات الأولى لاكتشاف الجسد والغواية السرية للجنس، صورة تتّشح بهالة من الضباب وتبدو

كشعلة مضطربة؟

«ظل عبد الرحيم الخبير بأمكنة الدعارة، يشد انتباهنا في الحي بحديثه عن أسرار الجسد، ويحمل لنا صورا من مجلاّت لنساء عاريات، لا ندري كيف كان يحصل عليها، صورا كانت تُسيل لعابنا وتُهيّج صَبوتنا، فتنطلق أحصنة الرغبة من أقفاص أجسادنا التي كانت تنمو في غفلة عنّا مستعرة بوهج الشبق..

مرة رافقته إلى محل للدعارة، مررنا بزقاق كئيب حيث كانت النساء تطل من النوافذ والأبواب عاريات إلا من فستان شفّاف يكشف تضاريس أجساد كانت تبدو لنا يومها عنيفة في وضوحها، بثياب تبدو كأنها خُلقت مع أجسادهن، كانت شهادة قوية للتصريح بالممتلكات.. انزعجت في البداية، لكن الخوف من سخرية عبد الرحيم جعلني أرتعش وأضبط سيري على إيقاع خطواته، دخل عبد الرحيم ـ الذي كان يكبرني بست سنوات ـ المبغى بعد أن ملأ ذاكرتي بالوصايا التي كنت أحفظها عن ظهر قلب، وجرّدني من نقودي تحت ذريعة الخوف من سرقة المومس.. وبسرعة لم أتصورها، خرج وهو يعقد صدفة سرواله فيما علت وجهه حمرة بارزة، بدا كالخارج من الحمام، فعلتني الدهشة.. كيف يمكن لامرأة أن تجعله محمرّا كأنه خرج لتوّه من فُرن.. صاحت بي عجوز ضخمة الجثة كانت ترتدي تنّورة قصيرة، وقد تسمرّت عند عتبة الباب، ظللت أتابعها خلسة وهي تمسك بيدها سيجارة تنفث دخانها، فارجة فخذا ضخما أسال لُعابي.. تضرّج وجهي بالدم،

وارتفعـت دقّـات قلبـي، فركبنـي فُضـول اكتشـاف منبـع اللّـذة، إذ لـم نكـن نعـرف لـذة أخـرى يُمكـن أن تأتـي خـارج تلـك الحلقـات التـي جمعتنـا في مُـروج الطبيعـة، حيـث كنـا نتسـلل كالذئـاب إلى جنـان عبـد القـادر المعـراج، فننقـضّ عـلى الدجـاج النائـم في غبـش المسـاء، ونُمـارس انتشـاءنا الطفـولي في دأب وهمّـة لا تفـتران.. ولا لـذّة أخـرى خـارج ذلـك الـتِّراص المنتظـم لأطفـال يتجمعّـون في شـكل حلقـة، حيـث نضـم أيدينـا حـول أرانبنـا ونلهـث محمومـين وراء لـذة مشـتهاة، نتسـارع حـول من يقـذف الأول، وكان عبـد الرحيـم يتفـوق علينـا، فيُغيظنـا ذلـك ونتطلّـع إلى رجولـة مبكـرة، نحلـق وجوهنـا بشـفرات حلاقـة باليـة، ونصطـاد الفراشـات ثـم نحكّهـا عـلى جلودنـا.. شـجّعني عبـد الرحيـم فارتجفـت.. ومـا أن تخطّيـت البـاب ونزعت السـتار حتـى وقفـت مبهوتـا، لاح المنظـر فظيعـا، امـرأة اتـكأت عـلى ظهرهـا وأفرجـت سـاقيها عـن شيء يُشـبه الجـرح، داخلنـي الرّعـب وانعقـد لسـاني عندمـا صرخـت في وجهـي بغلظـة حتـى تطايـر الـرّذاذ مـن فمهـا، فأطلقـت سـاقي للريـح»..

نفّرنـي اسـترجاع الحـادث مـن المغامـرة، فخففـت مـن الفشـل الـذي جلبـه عنـان ذاكرتـي.. تفرّسـت في الوجـوه المصاهـرة لتخـوم اللـذة والعنـف، فتقدمـت منـي الباطرونـة، أخرجـت سـيجارة وقدّمتهـا لهـا، ولأعيـد الذئـب إلى مخبئـه قلـت:

ـ لا بـأس، هـذه مجـرد جولـة استكشـافية.. أقصـد للتعـرف، مـرة أخـرى.

ارتحت إلى هذا التبرير وقفلت عائدا.

الثلاثاء 9 دجنبر

تحت وطأة التعب وثقل الإجهاد غطست في شبه إغفاءة، ثم استفقت فجأة على قصف الرعد وصوت إيقاع المطر.. تحولت الغرفة إلى ما يشبه المسبح، فغرقت الكتب والجرائد والملابس وسط المياه التي حجّت إلى بيتي، أشعلت عود الثقاب فوجدت الشمعة قد طفت بعيدا عن السرير، كان كل شيء مبللا، وجدتني أمام طوفان كاسح من المياه على حين غرّة، هل يحجب الغيم عُري المكان؟ يحفر الماء خارطة الجرح في ضلوعي فأمد يدي لألمس شلاّل الماء المتفتق من ينابيع سرية، أحس بالموج يعلو دمي فأدخل في فراغ مريض، أختبئ في اللحاف كالسلحفاة ثم أطفو وسط لجّة الماء، فتسحبني الريح نحو رمل الصخور، حيث ألملم شظايا مركبي، عليّ أن أصنع قاربا جديدا أحمل عليه من كل زوجين اثنين من متاعي الزهيد حتى (إذا قيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء).. ولكن ما الفائدة، هل يقدّر علي أن أحمل فقري كالوشم؟ وأحمل لعنة هذا القفر إلى الأبد.. فلتبتلع المياه كل هذا الحرمان والقرف !

نمت من جديد، ولجت مغارة الليل الخبيئة فشعرت بسيول من المياه، أحسستها تغني في قاع قبري، مياه حمراء تأتيني من كل حدب وصوب، يحضرني أبي من

وراء أسوار الصمت الأبدي بجسد مُرتعش وبلا صوت، لا أكاد أسمع سوى أنفاسه.. فيجرفه الماء، يغرق أبي فيمسك بي وأجهد في جذبه، لكنه ينثر ساعدي من يده ويتوارى عن ناظري تماما، التفت إلى امرأة مُنهكة كان يأتيني صدى نحيبها المتقطع، عرفت فيه صوت أمي، كانت تصرخ محذرة إياي من موجة بدت مثل وحش يقذف النار من فمه، فغرت فمي في رُعب، فاختنقت واحتبس الهواء في جوفي، تصاعد العويل من فناء البيت، فقفزت مذعورا من هول الرؤيا واستعدت بالله من الشيطان الرجيم: (وأما جريان الماء في البيوت ودخوله إلى الدور فلا خير فيه، فإن كان ذلك عاما في الناس دخلت عليهم فتنة أو مغرم أو سبي أو أسقام أو طواعين، وإن كان ذلك في دار مخصوصة نظرت في أمرها، فإن كان فيها مريض مات فسعى الناس إليه في نعيه بالبكاء والدموع، وكذلك إن سالت في البيت ميازيب أو انفجرت فيه عيون، فإنها عيون باكية على موت المريض، أو عند وداع المسافر أو في شرّ ومضاربة بين ساكنيه، أو بلاء يحُلّ فيه من مرض أو سلطان) ابن سيرين..

يأكلني البرد والجوع فأترك صمتي وأحلامي المنسابة من صنبور الذاكرة، أشمر عن سروالي وأحمل إناء، ثم أشرع في إفراغ الغرفة من الماء.

السبت 20 دجنبر

كانـت الشـمس تـشرف عـلى المغيـب حينمـا خرجـت مـن الحانـة مطوّقـا بثرثـرة السّـكارى ودبيـب الخمـرة، فسـارت بـي خطواتـي نحـو مربـض الطاكسـيات.. توقفـت في منتصـف الطريـق وصـوت يـرن في أذنـي: «لا يمكـن أن تعـرف أسرار هـذه المدينـة إلا مـن حاناتهـا وأفخـاذ نسـائها، فعليـك إذن أن تتمـم دينـك»!

اقتربـت مـن البنايـة الأكثـر بؤسـا خلـف الشـارع الرئيـسي، ولجـت بـاب الماخـور، أتأمـل أشـكال نسـاء يحتشـدن عـلى إفـرازات الكبـت، يقتتـن مـن غـار تحـت بطونهـن ويُبديـن زينتهـن لغـير بعولتهـن، كانـت رائحـة العطـر تضمّـخ المـكان، لا شيء هنـا غـير اللحـم البـشري يكشـف عـن عريـه صارخـا.. اسـتقبلتني الباطرونـة حليمـة، كانـت تجلـس فـوق كـرسي مـن القصـب، تطـوي سـاقا عـلى سـاق، ابتسـمت حتـى لاح أحمـر الشـفاه عـلى شـفتيها مثـل جـرح يحكـي كآبـة السـنين.. نادت ثـلاث فتيـات، فخجلـت لحظـة لهـذه النخاسـة الجديـدة، ثـم تقدمـت وقبلتهـن عـلى خدهـن قائـلا بخُبـث:

ـ سأفرد لكل واحدة ليلة عرس، وسأبدأ من اليمين.

ضحكـت حليمـة، فأخذتنـي ربيعـة ـ هـذا اسـم عروسـتي الليلـة ـ إلى غرفتهـا.. ولجـت مخدعـا عبـارة عـن سريـر، كل مـا حولـه يوحـي بالكآبـة.. لا شيء في مخـدع ربيعـة يوحـي بالـترف سـوى مـرآة منتصبـة في قلـب الجـدار، هـذه المـرآة ـ خمّنـت ـ

هـي الشـاهد الوحيـد عـلى جسـد ربيعـة منـذ سـاقتها الأقـدار إلى هـذا الوكـر، هـي محاورهـا تقـف أمامهـا، تبثّهـا أسرارهـا وأحزانهـا، مـا سرّ العلاقـة الخفيـة بـين المـرأة والمـرآة؟ هـذا التجانـس الصوتـي يُخفـي تجانسـا مُلغـزا !

جلبـت ربيعـة كأسـين، وضعتهمـا عـلى طاولـة انتصبـت قـرب السريـر، كنـت كالثعلـب المُهتـاج أتأمـل تألـق جسـدها الممهـور بفتنـة بـارزة، انتبهـت لإطـار زجاجـي تتوسـطه صـورة طفلة:

ـ لمن هذه الصورة؟

ـ لابنتي آمال..

ـ هل أنت التي اخترت هذا الاسم؟

ـ نعم، باتفاق مع أبيها.

ـ أين هو الآن؟

ـ في إيطاليا، تزوج هناك امرأة أخرى؟

ظلـت ربيعـة تُفرقـع العلـك بأسـنانها وتلهـو بخصـلات مـن شـعرها الفاحـم كانـت تطـوق عنقهـا، تلويهـا حـول أناملهـا وتمررهـا بـين شـفتيها، جذبتهـا فجلسـت بجـواري تُديـر الخمـر.. ارتطـم كأسي المُلتهـب بكأسـها:

ـ لنشرب نخب الضياع الأول.. قلت.

تـورّدت وجنتاهـا مـن آثـار النبيـذ والتهـب وجههـا فقبّلتهـا،

كان فمهـا كالجمـر، وبداخــلي اشــتعلت مواقــد شــهوة تكفــي لــدفء مدينــة قُطبيــة، كنــت أحــس بجــوع جنــسي مكتــوم يغمــر عروقــي، كمــن يحمــل داخلــه ظمــأ الصحــراء والخيبــة المريــرة في القلــب.

نبــدأ طقــوس عُــري أبــدي منهــوم للاشــتغال تُزهــر فيــه مــدارات الرغبــة، فيهتــزّ المــكان بعبــق العطــر ممزوجــا بعــرق الجســد، أعــبر زمــن الاحــتراق وألامــس البقــاع السريــة لجســد ربيعــة.. أهــصر قدّهــا بعنــف وأمــرغ وجهــي في شــعرها، ثــم أمــرر شــفتاي عــبر ثنايــا الجســد مــن الجبــين إلى الخديــن فالشــفتين الناريتــين إلى العنــق، ألمــس منبــت الثــدي وأصعــد إلى النهديــن الشــاهقين ثــم تتيــه يــدي في المخابــئ الملتهبــة.. بــدت ربيعــة امــرأة أثيريــة تُــشرع أبــواب مدينتهــا لفاتــح أضــاع كل جنــده في رســم الخطــط لاقتحــام التّخــوم المُحصنــة للخطيئــة، كانــت بجســدها الــذي يشــتعل وســط ســديم الخرائــب مثــل زهــرة تتفتــح وســط مقــبرة مــن الأزبــال: هــذه خــضراء الدمــن !

قامــت ربيعــة مــن فراشــها متثاقلــة تمــشي عــلى أصابــع قدميهــا، أحسســت بخطــر مــا وإلا مــا الــذي يجعلهــا تــرأف لحــالي ولا تزعــج نومــي، هــل إلى هــذه الدرجــة يمكــن أن تهتــمّ مومــس بزبــون؟ أخــذت حــذري محتميــا بفكــرة شــيطانية فواصلــت شــخيري، قصــدت ربيعــة ســترتي المعلقــة في الركــن المجــاور للبــاب، ودسّــت يدهــا في الجيــب الداخــلي، فأيقنــت أنهــا تبحــث عــن النقــود لذلــك قــررت أن أتابــع اللعبــة بحيــاد

تـــام، بـــل ناجيتهـــا في سرّي:

ـ تابعـــي عملـــك يـــا ربيعـــة، لا تخجـــلي فالـــكل يـــسرق.. حتـــى الـــزوج يـــسرق زوجتـــه والزوجـــة تـــسرق زوجهـــا، والأبنـــاء يسرقونهمـــا معـــا..

ســـمعت دقـــات عنيفـــة عـــلى البـــاب «**دقـــات متواصلـــة تـــكاد تخلـــع البـــاب عـــن إطـــاره، فقفـــز الرعـــب إلى قلبـــي**»، إلا أن صـــوت العجـــوز طمأننـــي، فتحـــت ربيعـــة البـــاب، فانســـلّت دفقـــات مـــن الضـــوء عـــلى عينـــي وأيقظـــت حـــواسي.

الأربعاء 31 دجنبر

فـــوق الفـــراش اتـــكأت عـــلى ظهـــري، وتركـــت العنـــان لذاكرتـــي لتغـــرق في الغيـــاب فـــارا مـــن حالـــة النفـــي التـــي يتـــوارى خلفهـــا اندهـــاش غامـــض، بعـــض الصـــور المشوشـــة الغارقـــة في بحـــر مـــن الضبـــاب تهجـــم عـــليّ دفعـــة واحـــدة، خيـــالات عذبـــة ولذيذة تعكســـها مرايـــا دماغـــي.. ســـمعت طرقـــا عـــلى البـــاب، فتحـــت، فأطـــلّ عـــلي مصطفـــى العـــزوزي بوجـــه مســـتطيل، وذقـــن يبـــدو أنـــه حُلـــق حديثـــا وبعنايـــة فائقـــة، ممـــا أضفـــى عـــلى ســـحنته جمـــالا فاتنـــا، حَملـــق في البهـــو وقـــال في تـــردّد مفعـــم بخجـــل بـــدوي:

ـ أعتـــذر، جئـــت فقـــط لأســـألك إن كنـــت تريـــد الذهـــاب معـــي إلى أزيـــلال، ســـيقيم أحـــد أصدقائـــي الليلـــة عرســـا..

ـ لست مشغولا جدا لأرفض مثل هذا العرض المغري، كنت أفكر في الذهاب إلى الحمام، فقد استطال شعري حتى تهدّل على كتفي وأظافري كما ترى أصبحت مُخيفة.

***

دلفت الحمام عبر مدخل ضيّق يؤدي إلى ممر أشبه بدهليز سرّي لخزائن الملوك والسلاطين القدامى، ممر طويل يمتدّ إلى ما لا نهاية، روائح عطنة، جلبة وصخب، إيقاع تشابك أحصنة راكضة في طريق مبلط.. بدا لي الوصول إلى داخل الحمام بُغية مستحيلة، فقفزت جريا لأبتلع امتداد الطريق حتى انتهيت إلى المشلح، حيث علا ضجيج المستحمين، وجلست بجانب مجلس معلم الحمام. كان عدد من الرجال والأطفال يُجففّون أجسادهم، بعضهم جلس ملتفعا بمنشفته رافعا قدميه فوق سطل يتعالى البخار من مائه الفاتر، شدّ انتباهي رجل ضخم الجثة بكرش مكوّرة كالحامل يُحلق ذهنه أمام المرآة، خلعت ملابسي في تبتّل كمن يعيد طقوس الحمُس الجاهلية، ويصادف دخولي الحمام مطلع السنة الميلادية.

لقد جئت إلى هنا لا لأغتسل من وسخي وما علق بجسدي من أدران فقط، بل لكي أتطهر من كل الآثام، أنزع عني كل الذنوب السالفة والتي ستأتي بغبطة، سأغسل الوسخ والتعب الدفين.

اتجهت نحو رجل كهل يحرس الملابس، كان يمسك بسبسي

منقـوش وقـد حشـا شـقفه المعقـوف بالكيـف، فتذكـرت أبـي الـذي كان يُعاقبنـي بالسـبسي كلمـا أبديـت تهاونـا في الأعمـال التـي كلّفنـي بهـا، فأهـرول نحـو أمـي باكيـا وشـاكيا.. وضعـت بيـد الكهـل قطعـة نقديـة وأوصيتـه خـيرا ببُقجتـي، ثـم ولجـت الحجـرة البـاردة، فلفـح وجهـي الهـواء السـاخن ورائحـة البُخـار الصاعـد مـن أجسـاد امتـدت في أشـكال متباينـة كالأشـباح.

ولجـت عـبر جـدار مقـوس حجـرة ثالثـة فُرشـت أرضهـا بزليج أحمـر، وعُقـد سـقفها بقبـاب بهـا فتحـات تغشـيها قطـع مـن الزجـاج تسـمح بمـرور الضـوء وحـده دون الهـواء، لتحافـظ عـلى درجـة الحـرارة المطلوبـة لترطيـب بـدن الإنسـان وتليـين جسـده كـي يخـرج الوسـخ طائعـا ليّنـا، حملـت سـطولي إلى مـكان قريـب مـن المغطـس، دلقـت واحـدا عـلى الأرض ثـم تمـددت فـوق البـلاط، فأحسسـت بالحـرارة تتسـلق عظامـي، والضبـاب يحـوم حـولي ويحجـب عنـي رؤيـة الأجسـاد في تفاصيلهـا الدقيقـة.. ضبـاب كثيـف يتشـبّث بالسـقف، تعلـوه أمـارات المخـاض فيلـد قطـرات ثقيلـة سرعـان مـا تنفصـل عـن السـطح، ثـم تسـقط عـلى الأجسـاد العاريـة محدثـة تلـك القشـعريرة اللذيـذة، التـي تشـبه رعشـة يديـن تتلامسـان في الشـارع صدفـة ودون أي تصميـم مسـبق. شـعرت بالـدفء لاسـترخائي ثـم بسـطت يـديّ عـلى شـكل صليـب، لمسـت أناملي خصـلات شـعر أنثـوي فأيقنـت أن الحمـام عمومـي يُسـتخدم مناوبـة بـين الرجـال والنسـاء.. اسـترحت لهـذا الحمـام

الخُنثى، وفكرت كم من جسد أنثوي انطرح هنا، في نفس المكان الذي أتمدد الآن فوقه؟ ترى هل جلست هنا ربيعة أو حليمة، أي اختلاط يتيحه هذا الحمام الممزوج بأنفاس الأنوثة والذكورة؟

بلّلت يدي وصرت أحك بكيس خشن الملمس آثار جراحي، أفرك أعضاء الجسد الملفوف وسط خيوط صوفية، جسد يتكوم على ذاته ويخون الوصايا التي تُليت عليه بإيقاع هامس، أصب الماء على يدي فتنحدر أكوام من الوسخ، شلالات من الدم، نوع من الجنون الذي يجعل جسدي يهاجر بصمات الصمت والحرمان، خيانة الإلزام الأولي المحفور على الجبهة.. أغسل رأسي وأمرر المشط فوق شعري المشتبك كأغصان أجمة، يحرقني مسحوق الصابون، فأغمض عيني على ظلمة كثيفة، أشتهي الانزواء في ركن قصي لا يصله شعاع نجوم الليل لأنفرد بكآبتي، فأجرها من مناكبها بعنف حتى تترنّح ثم أجرجرها بقسوة إلى عتبات منذورة للتلاشي!

أدهن جسدي بالصابون فأحس بدغدغة توقد حواسي كلّها، ثم أصب الماء فتتدلق أوساخي أمامي، أسير وسطها بمزيد من الانتباه والحذر، وأراقب صمتي من فتحة حيث تطل موجات أحلام، صور أليفة، فوضى الأسماء، تبدل القيم، هشاشة الزمن، أيادي ملطخة بالدم تغرق في برك معتمة، مؤامرة خطاب يشكّك في النوايا المبطنة للروح، وجوه تنضح بالنّضج تقف وسط السّاحة وتشهر

حبّهـا ليـوم مُشـمس ينـزوي في تلمـود أحمـر.. فكّـرت: كيـف يجمـع الحمـام ـ كبنـاء معمـاري وكسـلوك اجتماعـي يتحـوّل إلى طقـس بمراسـيم خاصـة ـ كل هـذه الأجسـاد التـي يُقيـم كل واحـد منهـا في زمـن خـاص؟ أجسـاد مختلفـة في أمانيهـا وأحزانهـا، في المسـارات التـي تفتحهـا في درب الحيـاة تتوحّـد كلهـا في نُكهـة العُـري الأولي..

***

وجـدت مصطفـى العـزوزي ينتظرنـي في المقهـى، عندمـا رآنـي علّـق سـاخرا:

ـ الآن بالفعل أصبحت صالحا..

ـ قبل ذلك كنت جهازا معطلا؟!

أمـام المقهـى أوقـف رجـل سـيارة المرسـيديس بجانـب عربـة يتقدمهـا حمـار، وحمـل صفيحـة حليـب ودجاجتـين مـن داخـل السـيارة، فابتسـم مصطفـى معلقـا:

ـ الحداثـة والبـداوة سـيان، كل شيء عندنـا يسـير مقلوبـا، كمـا لـو أن بنـا اشـتهاء مسـتحيلا لكـي نمـشي عـلى رؤوسـنا وسـط العالم !

ـ الحداثـة التـي اختـار العـرب ترحيلهـا عـلى ظهـر حمـار عبر المتوسـط منـذ نفـوا جثمـان ابـن رشـد ومؤلفاتـه الفلسـفية، تعـود إليهـم اليـوم عـلى ظهـر سـيارة مرسـيديس..

ـ إنه مكر التاريخ..

***

احتشـد معـارف مصطفـى وأصدقـاؤه مـن حـولي، واحتفـوا بي أيمـا احتفـاء، قـدّم لي مصطفـى قنينـة خمـر وقال سـاخرا:

ـ افتح آ لفقيه..

فعلق سعيد الوصلي:

ـ الفقيه اللي نعولوا على براكته، دخل الجّامع ببلغتو !

انخرطنـا في ضحـك جماعـي فيمـا واصـل سـعيد حديثـه بتهكـم واضـح.. شـعرت بكسـل مخـدر يغـزو بدنـي، فتمـدّدت فـوق الحصـير بجانـب مصطفـى الـذي كاد يمـوت بالضحـك مـن جـرّاء التعليقـات السـاخرة لأصدقائـه..

طـال السـمر بنـا، فأخـذت أضـواء الفجـر تتسـلل مودعـة السـواد الـذي ظـل يحـرس الكـون بهبتـه، فيمـا كانـت أنغـام الموسـيقى تمـلأ الفضـاء مـن حولنـا.. اختـلى العريـس بعروسـه ليقـدم قرابـين الـدم لآلهـة شـهوانية تبحـث عـن طهـارة الخليقـة في شرائـع الذبـح والهتـك، وفي رمشـة عـين انطلقـت الزّغاريـد كالسـهام مدويـة مبـشّرة، وارتفعـت الأهازيـج الشـعبية الأمازيغيـة، أهازيـج موقّعة بالشّـبق تسـمح للراقصـين إناثـا وذكـورا بتصريـف فائـض الطاقـة الجنسـية المعطلـة وراء ألـف حجـاب، كانـت أخـت العـروس تحمـل صينيـة تتأرجـح فـوق رأسـها، وقـد انتصـب فوقهـا قُربـان

المضاجعة، سروال أبيض مُطرّز الحواشي لطّخته بُقع حمراء، آثار دم وردي، دم العذرية المصانة.. تحلقت الفتيات وبدأ الهتاف بفحولة العريس والعروس المصونة، ولعلعت الزغاريد كطلقات نارية، وفي الوقت الذي هبّت النساء تبشرن أم العروس وأباها لأن العروس بيّضت وجهيهما، انحاز الرجال لسلطانهم يُبايعونه ويباركون فحولته.. ها هنا علامة أخرى لالتحام المقدس والمدنس.

الخميس 9 يناير

بدأت أحس كأن شهوة تائهة أنجبتني وسلّمتني لبلدة أضاعت ثوبي، وجعلتني أقف عاريا مثل الغياب في ذاكرة الفصول.. هذا مكان جذب وأنا روح معطوبة وهيكل مُحنّط. أشتهي دفئا مستحيلا وسط دروب لا أعرف مسارها، أحس كأن حاجزا سميكا يقف دوني وهذه القرية، فطيلة هذا الأسبوع لم يقع أي حدث من أي نوع، يمكن أن يعطي الإحساس بانتماء جلدي إلى لون بشرة هذه الأرض وأتساءل: ما معنى أن يحيى المرء بأحلام مغتالة؟!

جلست فوق فراشي أستعرض شريط أيامي وسط عدم حقيقي، استلقيت على ظهري محاولا التخلص من هول الصدمات التي يستقطبها خيالي المشوش، وحاولت أن أفكر في هذه الأحاسيس التي تعترضني، هل هي مجرد نزوة طارئة، أم هي علامة جوهرية على تبدّل يمنحني قوة

تدميرية قادرة على أن تهد كل شيء وتقلبه رأسا على عقب؟ لقد كان طوبة يُفضل أن يقول عني بتعابيره الموسومة بالهزء: «إنك يا صالح دائما تُقيم في منتصف الطريق إلى الأشياء وفي مفترق طرق الأزمنة.. يبدو لي أحيانا أنك مولع بمحاكمة الناس والأشياء من وجهة نظرك المجردة.. والأمر المزعج الذي يلفت النظر هو عدم قدرتك على تحليق شعر ذاكرتك.. إنك تعيش داخل جمجمة رأسك أكثر مما تعيش داخل الأمكنة، حتى ليبدو أنك تحمل معك معتقلا خفيا، ومعه نوستالجيا الأحلام الجريحة..»

وأنا أستعرض كلام طوبة، تناهت إلى خياشمي رائحة الاحتراق، فقمت مسرعا.. حاولت أن أنقذ الإناء لكن بدون جدوى، فقد أتت النار على كل شيء، سكبت الماء فوق القدر وأطفأت البوطاغاز، ثم وضعت القدر فوق المائدة وصرت أتأمله، ولم أشعر إلا ويدي تمسك بأذن الإناء وتُطوّح به إلى السقف، بدأ المرق الفاحم يتدلّى من فوق فيما انسكبت الدموع من عيني، رفعت رأسي إلى السماء بشفتين مرتجفتين ويدين لا تكفّان عن الارتعاش، وصحت في غيظ: ما هذا القرف وهذه العيشة الفاجرة.. بصقت بمرارة وركلت المائدة ثم صفقت الباب ورائي.

أخذت أتسكّع وسط الحقول باحثا عن مناخ أكثر صفاء، أحشو به البقاع الدّرداء التي تتسع داخلي، كانت أصوات الحشرات وعويل الريح تعلو وسط الصمت فتترك في نفسي فراغا مخيفا.. استيقظ الجوع قويا في أحشائي، جوع

مفـترس جعـل رأسي يطـنّ، فاعترتنـي حالة قـيء.. عـلي أن أراود جوعـي عـن نفسـه وأدجنّـه، عـليّ أن أذيـب العـداء بيننـا حتـى يصبـح الواحـد منـا للآخـر وليـا حميمـا..

جلســت تحــت شــجرة أحــاول ضبــط انفعالاتــي بشــكل لائـق، أسـعى جاهـدا إلى تجـاوز الخبـل الـذي وجـدت نفـسي في شراكــه.. تسـلقت ظهـري الرطوبـة، وتلصـص النمـل مـن لحـاء الشـجرة، جيـوش مـن النمـل اكتسـحت جسـدي، فعدوت هاربـا باحثـا عـن مـكان أليـق.. يـصرخ الجـوع مـن جديـد في بطنــي فأتلــوى مــن فــرط الألــم، صرخــات قلقــة تبعثهــا أمعائـي، وخـزات كالإبـر، عـليّ إذن أن أرمـي الحـصى في القـدر وأطبخــه لعــلي أدوخ بــه الجــوع المفــترس الــذي يجمعنــي بجـرح قـاس.

«في تلـك المقابـر الحديثـة للمهانـة، كانـت كل العوامـل تتضافـر، مــن أجــل محــو الحيــاة التــي تريــد أن تتنسّــم الهــواء خــارج كل الإرغامـات، اشـتدت الأزمـة مـع تغيـير مديـر المعتقـل، فدبّـت حركــة غريبــة في العنابــر والممــرّات وداخــل كهــوف التعذيــب الوحــشي، كــبرت الموانــع والإكراهــات، وأخــذت تتّســع مــع المطالبـة بحمايـة أبسـط الحقـوق التـي تسـاعد عـلى الاسـتمرار في الوجــود.. كان المديــر ينهــر الحــراس ويســبّ المعتقلــين، ويسـعى إلى أن يـبرز حنّـة يديـه، فحُرمنـا مـن التطبيـب وحـق متابعـة تعليمنـا، وقُلّـص الوقـت المقـرر للفسـحة، كمـا ازدادت رداءة الأكل سـوءا، وأصبحـت عقوبـة الحبـس الانفـرادي مصـير كل مـن أبـرز سـخونة رأسـه.. كنـا نحـس ونحـن في شـهورنا

الأولى للمعتقل بأننا مفصولون عن العالم الخارجي كليا، وتحوّلت شراسة الجلادين إلى نوع من التعذيب المجنون، إذ سنّوا وليمة إضافية للاحتفال بفجيعة الأجساد الدامية تحت لسعات السياط والكرابيج والضحكات الهازئة التي تملأ الجو فرحا بمأدبة الطعام الآدمي... فصممنا على خوض إضراب لا محدود عن الطعام، ورغم الحصار والتضييق استطعنا أن ننظم الاتصال فيما بيننا إذ كان الاحتجاج عارما، كانت الرسالة تصل بصعوبة لكن بحذق أيضا، ها هنا أكبر دليل على هشاشة السلطة ومواقعها الحصينة.

صبيحة الأربعاء 5 يناير، بدأ الإضراب عن الطعام، أيأس الحلول الانتحارية، حين تنفذ كل الذخائر لا يصبح أمام السجين إلا جسده، يشحذه بقوة، يروضه ويدفعه إلى حدود ملامسة الموت، يهيئه بشكل مستمر، فيهدئ الأحشاء المتمزقة بالسكر والماء.. يا له من صمود عنيد، حيث يتحول الجسد الفاني إلى صمام أمان ضدا على الموت والاستسلام..

عند دخول الأسبوع الثالث لإضراب مجموعتنا، بدأنا نحسن الطعم الوحشي للجوع، وحين يُغرق الصمت زنزانتنا، كنا نحدق في وجوه بعضنا البعض، ونقرأ ذلك النور المطمئن الذي تمنحه الأعين، وتلك الابتسامة التي تربض خلف الشفاه، فنعود إلى الطفولة والحلم، فارين من ذلك الصمت الذي لا تقطعه إلا الصرخات الساخطة واللعنات الهادرة للجلادين. في اللحظات الأخيرة من الليل، حين تحضرنا شظايا هذه الصور، كنا نسترجع هدوءنا وثقتنا، رغم تدهور الحالة

الصحيـة لبعـض رفاقنـا، الذيـن أصبحـوا في وضـع مأسـاوي، وكنـت أحدهـم بسـبب قرحـة المعـدة التـي لازمتنـي إلا الأبـد.

ففـي يـوم 23 ينايـر حُملـت إلى المستشـفى في حالـة خطـيرة، بـدا وجهـي شـاحبا تعلـوه صفـرة المـوت.. وبعـد أسـبوع غنّينـا بفـرح داخـل الزنـازن، واحتفلنـا ـ كمـا يحـب طوبـة أن يقـول ـ ب«رقصـة الجـوع الـشرس»، إذ علمتنـا أيـام الجـوع مـا معنـى حيـاة الأسـير، ومـا قيمـة كل عضـو مـن أعضائـه».

الثالثـة صباحـا، توسـدت الـتراب وحاولـت أن أنـام في العـراء تـاركا جسـدي مسرحـا للضيـاع مثـل منبـوذ يعيـش مثخنـا بلهـب التهميـش لكـن الـبرد اسـتعجل مغادرتـي، فعـدت إلى المنـزل مراوغـا كوابيـس الفجيعـة التـي تُشـعرني باللاجـدوى.

الاثنين 13 يناير

إن المحنـة والتجربـة عظيمـة المنافـع جليلـة المناقـب إذا لـم تجـاوز المقـدار وسـلمت مـن المضـار، النـاس يقولـون إن المحنة تخلـق الرجـال، وأنـا أقـول إنهـا تخلـق اللصـوص والمنحرفـين والمعتوهـين والمـرضى..

كيـف يمكـن أن أدفـع عـن نفـسي هـذا البـلاء بعـد أن غـار المقـام بـي في هـذا القفـر، فـصرت لا أقـدر عـلى جلـب نفـع ولا عـلى دفـع ضرر، وأصبحـت مشـغولا ببـدع تنفلـت عن السّـنن.. كلمـا نمـا الصـداع في دماغـي هرعـت إلى الخمـرة أسـتبيح في

كؤوسـها صـدى أحلامـي محـاولا القبـض عـلى سرّ منفلـت أحتمـي بـه مـن لظـى أحزانـي، فقـد ضيّعتنـي دروب الرمـاد، سـيُقال عنـي: هـا قـد تحـول الفقيـه المصـون إلى العبـث.. ومـاذا بعـد، ليـس أقـسى مـن هـذا الفـراغ الـذي يمـزّق الـذات، حتـى ليبـدو العبـث مجـرد سـلوك لإدانـة العالـم المقلـوب.. سـأحوّل بطاقـة سـحرية هـذا الجـذب إلى لـذة، وأواصـل تفجـير أحقـادي فـرارا مـن الابتـذال الـذي تسـببه الواجبـات الضاغطـة.

قمـت متمايـلا كالمركـب النشـوان، اتكأت عـلى الجدار، فلامسـت المـرآة التـي هـوت عـلى الأرض حتـى تهشّـمت، فكـرت: لعلهـا تعـبر عـن إدانتهـا، فهـذا هـو الأسـلوب الممكـن للتعبـير عـن احتجاجهـا، ثـم إن لا دور لهـا في بيتـي فهـي لا تعكسـني، وإذا حاولـت فهـي لا تنفـذ إلى داخـلي وتبقـى انعكاسـاتها سـطحية، مـا معنـى أن تكـون لـك مـرآة لا تعكسـك؟ إن الصمـت هـو النفـق الوحيـد المـؤدي إلى الـذات، مـا دام لا يوجد دواء يسـتطيع اسـتئصال هـذه الـدودة، دودة الوجـود.. فالصمـت مرآتـي !

أمسـكت الإطـار الخشـبي، فـإذا بالشـظايا تفتـح أمامـي طُرقـا ورؤى، بـدت لي فجـوة ودرب طويـل خـارج جغرافيـا المنفـى، حيـث لمحـت مغـارة مفتوحـة، فنزلـت درج الممـر، مشـيت إلى أن بلغـت عتبـة كهـف عميـق، درت عـلى عقبـي لأعـود مـن حيـث أتيـت، لكـن أقدامـي تسـمّرت بالرغـم منـي، فلبثـت مـترددا كمـن ضـل سـبيله أمـام بـاب ارتفـع قليـلا عـن الأرض، بـاب خشـبي ثقيـل مقـوّس الـرأس، وقريبـا منـه فُتحـت أبـواب

شرفـــات تطّـل عــلى حدائـق غنّـــاء وارفـــة الظــلال يتيـــه فيهـــا البـــصر، فتولّتنــــي الدهشـــة..

تقدمـــت قليــلا فلفحــت وجهـــي ريـــح مشـــبعة برائحـــة البخـــور والصّنـــدل وعبـــير المســـك.. ارتقيـــت ســـلّما خشـــبيا، ودنـــوت مـــن بـــاب كان موصـــدا، فتحتـــه، فاســـتهواني منظـــر يســـحر الألبـــاب: مـــكان فســـيح تحيطـــه أشـــجار تمتـــد ظلالهـــا إلى أرجـــاء واســـعة، وأنـــوار القمـــر المتهاديـــة تنعكـــس عـــلى الـــورود، والأغصـــان المتدليـــة دانيـــة القطـــوف تحكـــي أسرار الـــتراب للمـــاء المترقـــرق عـــبر الجـــداول، كانـــت أمـــواج الليـــل تنتحـــر في أحشـــاء النـــور وتُلقـــي بظـــلال ناعمـــة عـــلى الســـاحة، ولجـــت قـــصرا مُنيفـــا أشـــبه بالقصـــور الأندلســـية، بنوافـــذ كبـــيرة ذات شراشـــف قزحيـــة تتوسّـــطه أعمـــدة رخاميـــة تقـــف شـــامخة، ألقيـــت نظـــرة انبهـــار عـــلى الأجســـاد المتعانقـــة في اشـــتباك أبـــدي كالتماثيـــل، أجســـاد منحوتـــة بدقـــة يـــدي مـــلاك ووجـــوه مبتســـمة يشـــعّ الســـحر مـــن أعينهـــا، وفي جوانـــب القـــصر انتصبـــت جـــداول ميـــاه تطفـــو فوقهـــا أوراق الشـــجر اليابســـة، سرت منتعشـــا بريـــح مفعمـــة برائحـــة النبـــات.. شـــعرت بالوحـــدة فـــأردت أن أتكلـــم، لكنـــي أحسســـت كأنـــي فقـــدت لغتـــي، ونطقـــت كلمـــات غريبـــة عـــن شـــفاهي، لـــم تعـــد لي ســـيطرة عـــلى جســـمي الـــذي أخـــذ يتفتـــح مثـــل زهـــرة، ينفصـــل عنـــي، وتنبـــت لـــه أجنحـــة فيطـــير عاليـــا في الفضـــاء.. نـــوع مـــن الاتصـــال بباطنـــي الأعمـــق يجعلنـــي متحـــررا مـــن أدران البـــدن وطعـــم الـــتراب، فأصبـــح مخلوقـــا أثيريـــا.

دنـوت مـن بـاب كان معلّقـا وسـط الجـدار، وقـد فُـرش أمامـه بسـاط مزركـش، انفتـح البـاب عـلى مدخـل ينتهـي إلى غرفـة زُينـت جدرانهـا بالرخـام والفسيفسـاء، وتدلـت مـن السـقف قناديـل كالثريـا يُشـع منهـا بريـق لامـع. عـبرت عتبـة البـاب وقدمـت قدمـي اليمنـى مبسـملا، وقعـت رجـلاي عـلى شيء رخـو، أصبـت بالهلـع، فتنبهـت إلى الزربيـة تحـت قدمـي، دنـوت أكثـر وقـد كـبر الحـرص في نفـسي حيـث صرت لا أرمـي الخطـو إلا بعـد أن أتأكـد.. عـلى بُعـد عـشرة أمتـار لاح لي بـاب مذهّـب قصدتـه فانفتـح في وجهـي عـلى فنـاء أوسـع مـن الأول، حيـث تخـدّرت حـواسي برائحـة العطـر والبخـور المنبعثـة مـن مباخـر نُحاسـية وفضيـة ثبّتـت في زوايـا الجـدران، بـدت البيـوت أشـبه بمتاهـة لا نهائيـة تبتلـع بسـلطتها الرّمزيـة الباذخـة كل القـذارة الموسـومة عـلى جلـدي.

أخـذت أتأمـل هـذه الـصّروح المشـيدة وسـط خـضرة تلتقـي في ارتعاشـات جداولهـا كل الحضـارات.. أحسسـت بالعطـش فقصـدت نافـورة تتوسـط الباحـة، بسـطت يـدي إلى المـاء، فـتراءت لي صـورة امـرأة تتراقـص أمامـي، ارتعـش جسـدي ولـم تعـد أقدامـي قـادرة عـلى حمـل جثتـي، التفـتّ في بـطء مبهوتـا أمـام المـرأة شـبه العاريـة بقدهـا الممشـوق كغصـن مسـتقيم:

ـ شيء مدهش، نزهة !

انبهـرت أمـام وجههـا الخـلاسي الممهـور بضـوء خُـرافي وبعنقها

الأملس، تقدمت منّي فاردة ذراعيها فامتثلت لرغبتها، وضعت يدي في يدها تقدمنا نحو الجنان الفسيحة، أردت أن أنطق، فوضعت نزهة أناملها على فمي وقالت بإغراء:

ـ ستوقظ الغزلان من نومها.. إني أعرض عليك رحلة صيد نادرة.

ـ وأين الطّريدة يا غزالتي؟

أشارت بيدها إلى بعيد، إلى أبعد مدى تراه العين، فقلت بصوت يقطعه الأنين:

ـ تريدين أن نُعيد كل شيء من جديد.. آسف، ليس لدّي الاستعداد الكافي.

أرسلت نزهة بصرها إلى اصطبل مجاور، وأشارت إلى فرس مطهّم :

ـ هذا فرس المأدبة، اسمه البراق، سينطلق بك إلى نبع مقدس، تجلب منه ماء يرد عذريتي، هذا الماء يوجد في نهر بعيد وراء غابة موحشة تحرسها وحوش خرافية، ستضطر إلى قطعها إلى أن تصل النبع حيث الظباء..

قصدت الفرس وأمسكت بلجامه، أردت أن أركبه، لكنني فشلت.. فتسمّرت في مكاني حائرا من لعبة أجهل قواعدها، أطلّت علي نزهة بوجهها فأدركت حيرتي:

ـ إذا اصطدت ظبية فذلك مهري..

ـ هــل ســيُقدّر علينــا أن نُعيــد الحيــاة إلى نقطــة الانفصــال الأولى؟

ـ دم الظبية يرتق الزمن المنفرط.

صعــدت الفــرس ولكزتــه بقدمــي، فقفــز بخفــة رشــيقة.. انطلقــت وســط الأجمــة ســارحا بــين الأشــجار التــي تناثــرت عــلى امتــداد الطريــق، فيمــا كانــت تمتــد أمــام عينــي تــلال خاملــة مترعــة بالســكينة، وكانــت الحبّــات الرمليــة التــي تثيرهــا حوافــر الفــرس تُلامــس وجهــي.. توغلــت وســط الأجمــة، وفجــأة، بــدت لي ظبيــة تركــض في الجانــب الشرقــي، همــزت الفــرس، فانطلــق بسرعــة كالــبرق، ظللــت أهتــز فوقــه، خشــيت عــلى نفــسي الســقوط فتمســكت بالــسرج، اقتربــت مــن الظبيــة، أمســكت بالحبــل بيــدي حتــى صرت أســمع صفــير صوتــه في الهــواء، وفي اللحظــة التــي رميــت فيهــا الحبــل أمــام الظبيــة، عثــرت قــدم الحصــان فوجــدت نفــسي أمــام إطــار المــرآة المتكــسرة بــدون مهــر ولا وجــه امــرأة.. (ومــن رأى أنــه عــلى فــرس يجمــح بــه، فإنــه يرتكــب معصيــة أو يصيبــه هــول بقــدر صعوبــة الفــرس، وقــد يكــون تأويــل الفــرس حينئــذ هــواه، يقــال ركــب فــلان هــواه، وجمــح بــه هــواه) ابــن ســيرين.

أحــس كأنــي أرغــب في الفــرار، وأدور حــول نفــسي مثــل خُــذروف، وأفكــر: المــرآة الخلاســية، الظبيــة، الأبــواب، والنقوش الرخاميــة.. وهــذه المــرآة المتشــظية التــي تمــارس احتجاجهــا

بالشكل الذي تختاره.. لا معنى للمرآة خارج الوجه الذي ينظر إلى نفسه من خلالها، هل يصبح لوجهي معنى بعد غياب المرآة؟

الخميس 16 يناير

أفرغت ما تبقى من قنينة النبيذ في فمي وقذفت بها جسدا بلا روح، فأخذت تتدحرج عبر الحصير لتصل إلى الأرض، ولا يوقف ضجتها سوى الحذاء.

«سقطت القنينة بقرب حذائي، فقفزت من مكاني مصعوقا، علا الغضب الوجوه وتطلعت الأعين إلى الطابق الأول حيث ظل رعد شامخا بابتسامته الجبلية، كنت أخطب في الحشود التي انتشرت وسط ساحة الجامعة، محراب الأحلام الموءودة، كانت الكلمات تخرج حمراء مثل كتائب عسكرية متحركة تعيد التوازن للكرة الأرضية: تطور علاقات الإنتاج، فلول الإقطاع، البورجوازية الهجينة، الحقل الإيديولوجي وحركة التاريخ الاجتماعي، بنية علاقات الإنتاج السابقة على الرأسمالية، البروليتاريا كطبقة ثورية نقيض، عوائق التحرر الوطني، الصراع الطبقي كمحرك أساسي.. وفي الطابق الأول كان رعد ـ الطالب المشاكس الذي ظل يحمل داخله سمات معركة أنوال وفائض دماء الريف ـ يعبّ آخر قطرات الرّوج من قنّينة بلاستيكية من خمر الشمس الدافئة ثم يرمي بها وسط الحلقة.

بدأت المحاكمة، فتجهّمت الوجوه، الكل كان يفكر في أسلوب خفيف للزجر يُبقي على مرح رعد، وفي نفس الآن يسوّر السلوكات الطائشة التي يمكن أن يصبح نموّها مُعرقلا للانضباط الطلابي.. ولحظة طالب رعد بحقّه في الكلام:

ـ لدي سؤال واحد: كيف حوّلت قنينة خمر نقاشكم الجاد، من الاقتصاد السياسي إلى الأخلاق؟ كان أمامكم متّهم خطير اسمه البنيات الاقتصادية الراكدة، سُلطة المخزن ودور الوسطاء في ربط عجلة الاقتصاد الكولونيالي بدول المتروبول.. كنتم بصدد تشريح جثة غول بسبعة أرواح، فتحوّلتم نحو هذا العبد الضعيف!

قال ذلك وهو يشير إلى قنينة الخمر، فتعالت الضحكات في أرجاء الحلقة، كان يتكلم بلهجة الذي يعرف ما يريد ويؤمن بما يعرف، ثم واصل بهدوء:

ـ من رجالات الفكر الثوري إلى شرطة أخلاق»؟!

شعرت بالحرارة تسري في جسدي، فقمت إلى البئر، أخرجت دلوا من الماء ثم دلقته فوقي لتبرد النار التي تسلقت أعضائي بعُنف، أحسست كأنني أصبت بنوع من خداع الحواس، حتى صرت أخلط بين الحدود غير المحتملة للواقع والحلم، بدا لي الواقع مجرد تمثلاّت ومحض تخيلات تقبع في دماغي الخامل.. دسست جسدي وسط اللحاف، وغطست في النوم هاربا من ذاكرتي المستباحة.

الثلاثاء 21 يناير

الطقس بارد في الخارج، ارتديت معطفي وتلفّعت بالشال الذي قدمته لي أمي لأحمي به جسدي من رطوبة المعتقل الجديد، وأسلمت قدمي للطريق.. من بعيد لاحت صحوة الفجر تُغازل أضواؤه رحم الأرض، والورود تستحم بقطر الندى. جلست تحت الشجرة أقضي حاجتي، انتبهت إلى خشخشة أوراق الشجر، فلمحت من بعيد أتان جاري المعطي، في ليلة من زمن محشو بالرؤيا المحرمة يُضيء ينابيع الشهوة التي تعبر الخلايا السرية للجسد.. كان الظلام يغشى عيني من شدة السّكر، بدت لي هناك، أتان شهباء تقف بكبرياء، حدقت في الشعر الكثيف الذي كسا جلدها ثم أغمضت عيني منتشيا بمتعة اللحظة التي تغمرني كشلاّل، حيث أجلس تحت ظل الشجرة الوارفة.. لو تجمّع كل برازي، لكفى لتسميد هكتارات أرض المعطي.

وأنا جالس القرفصاء لم تفارق شاشة عيني الأتان الرابضة هناك، أتان شهباء تهيج شبق رُهبان دير بكامله، قمت من مكاني وأنا أحدق فيها بانبهار، كانت واقفة هناك بألوانها القرمزية تنوّر فضاء الحقل، فأحسست كأني ألج عرسا وهميا في زمن الحلم الذي لا ينام حرّاسه.. تأملتها عن قرب، فبدت لي ناعمة ورقيقة كصبية في السادسة عشر من عمرها، أثارني القيد الذي يكبل قدميها، فرقّ قلبي: «سأكون خائنا لو اغتصبت هذه الأتان بقيودها».. فككت قيدها بشق الأنفس فتملّصت

من يدي، وركضت بعيدا، فناجوتها في سري: «بحق السماء توقفي، ليكن لقاؤنا الأول هادئا وحلوا».

اقتنصت لحظة شرودها فقدمت رجلي اليمنى، لم تتحرك، فرحت إذ بدا لي بريق عينيها، لكن ما كدت أرمي رجلي اليسرى حتى تملمت فجريتُ وراءها أتمتم ساخطا، شاحت بوجهها عني وأمعنت في غُنجها، ثم لبثت في مكانها فترة.. كانت رائحتها تسرح في شرايين قلبي، دنوت أكثر، لكنها هرولت من جديد، فقدت صوابي وصرخت بأعلى صوتي: «ش، ش، ش.. قفي اللعنة على دين أمك أيتها النجسة».. رشقتني بنظرة حادة، فغضضت بصري في أسى، تأملتُ: «هل لها دين هي الأخرى؟» طرحت هذا السؤال بكثير من الحيرة، ثم انفجرت ضاحكا منتشيا بعنف هذا الاندفاع، حاولت أن أقترب منها، لم تتحرك، فناجوتها بنبرة عتاب رقيق: «قفي رجاء أيتها الأتان.. ما هذا الدّلال القاسي، ألا تستأمنيني، توقفي بربك، فقد سئمت هذا الإقبال والإدبار.. لم كل هذا التدلل، إني..» ودفعة واحدة ارتميت فوق عنقها، حاولت أن تهرول لكنني هدّأت من روعها، نظرت إليّ وقد اشتعل وجهها احمرارا وفي عينيها كان ثمة استعطاف رقيق.

كنت ألهث من تعب الجري، فوقفت قليلا أسترجع أنفاسي، حاولت أن أطرحها، لكنها مثل جدار من الإسمنت المسلح تتشبث قوائمها الأربع بالأرض، وبعد جهد جهيد أحدث صوت ارتطام ظهرها بالأرض ضجّة، فسمعت أنينها

المكتوم، رفعت رجلها إلى فوق: «هذا هو جدل العالم مقلوب، كي نرى له هيئة معقولة».. تسارعت نبضات قلبي فأغمضت عيني لأستمتع بدبيب الموسيقى التي يبثها شخير الأتان، تطلعت إليّ بعينيها وقد أصبحت أكثر هدوءا، فقرأت فيهما دعوة صامتة اهتزت لها جوانحي. ها هو قطاري المُحمّل بجنود الرغبة يذهب بعيدا، إذ أحس بكياني كله يهتز، من هنا تبدأ الحياة فمتى أبلغ سدرة المنتهى؟».

أحسست أني أودع رحم الأتان كل أسراري، بذرة الحياة وصرخة الحرمان لتمنحني مفتاحا للغز الكون، أحطم به هذا الوحش الجاثم على صدري، يؤجج رحلة تيهي بألغازه اللانهائية.. «ترى أي تفاعل بيولوجي يُحدثه دخول جسد ناطق في جسد أبكم.. هل ستلد هذه الأتان نطفة غريبة عن جسدها.. هل يمكن أن تلد كائنا يحمل جزءا من نباهة الإنسان وقليلا من بلادة الحمار؟ ها أنا أعود إلى المنطق من جديد، أوزع الاحتمالات في مسار اقتطاف الفاكهة المُحرّمة، هل هذا محض حلم أمسح في جُبّته رغبتي المستعرة.. أغوص عميقا، ألهث وراء سلالة غامضة لأكتشف أسراري الأولى من رحم أتان جاري، أتلمس التاريخ السري لشجرة نسبي، حيث تتعدد السلالات الباذخة وتنتشر في سديم التاريخ الغُفل ف(الحمار جد الإنسان كيفما رآه سمينا أو مهزولا، وإذا كان جميلا فهو جمال لصاحبه، وإذا كان أبيض فهو دين صاحبه وبهاؤه، وإن كان مهزولا فهو

فقـر صاحبـه، والسـمين مـال صاحبـه، وإذا كان أسـود فهـو سروره وسـيادته، وملـك وشرف وهيبـة وسـلطان، والأخـضر ورع وديـن، وكان ابـن سـيرين يفضـل الحمـار عـلى سـائر الـدواب، ويختـار منهـا الأسـود) ابـن سـيرين.

أطـل مـن مؤخـرة هـذه الأتـان عـلى العالـم، وفي عنفـوان وعيي، أكـسر شرنقـة شـعوري الـذي تكـوّم كالخرقـة الباليـة في جانب مـن الذاكـرة، أمـارس وعيـي خـارج العـادة وقاعـدة البـلادة، أسـبح خـارج الأسـوار والأضـواء وصخـب الشـوارع بعيـدا عـن الوصايـا التـي تحـرس أطـلال الخرائـب، وأنغمـس في غوايـة الجسـد بعيـدا عـن ذلـك المـوت البطـيء والخسـارة المصاحبـة للعلاقـات والأشـياء وتراكـم الأوهـام.. كيلوغـرام واحـد مـن التدمـير الذاتـي أفضـل مـن قنطـار مـن الشـفقة !

لاحـت منـي التفاتـة نحـو الأتـان، فرأيـت طيـف ابتسـامة ربيعيـة تزهـر عـلى شـفتين محمومتـين بشـبق الرغبـة البكمـاء، فيمـا يـداي تسرحـان ببـطء في حقـول جسـدها المتّشـح بافتتان مـروع.. مـا هـذا الاشـتباك الجنـسي الـذي يجعـل جسـدي يرتعـش بلـذة سريـة؟ هـل لديـك بـكارة أيتهـا الأتـان؟ هـل يعلـق أهلـك كل شرفهـم عـلى جلـدة رقيقـة، كمـا نفعـل نحـن؟ ثقـي بـي فأنـا لا أريـد اغتصابـا بدائيـا.

يدفـع بـي الحلـم إلى العذابـات الفاتنـة فأفجّـر باحتفاليـة طقـوس الجسـد الاجتماعـي، إذ ليسـت الحضـارة إلا تدجـين الأوابـد البشريـة لتحـلّ محلهـا حيوانـات طيّعـة متمدنـة، وأنـا

أخــرج مــن تمدنــي لأعانــق أصــلي الغائــر في بطــون الطبقــات الجيولوجيــة للتاريــخ.. لقــد دخلــت كهــف أتــان جاري، ولســت أدري كــم ســنة نمــت داخلــه..

اســتفقت مــن شرودي مذعــورا، فتأكــدت أن حــسي الأخلاقــي الضعيــف لــم يعــد يحمــي القريــة مــن ضلالتــي وأنــا القــادم مــن الــشرق لأودع في النــاس حكمتــي، لســت معلمــا ولا رســولا، لســت فقيهــا ولا صالحــا، إنمــا أنــا جســد ملطــخ بالرذيلــة، وروح مستســلمة للعنــة شــيطانية، قصبــة مملــوءة بالفتــن، وحصــن للفجيعــة ولمســاءات العويــل عــلى مآتــم آثمــة.. ســطل قمامــة أنــا، ثقــب مرحــاض، خدعــة ســخيفة في جــذوة المنعطف التاريخــي للأزمنــة، أنــا عنــف دمــوي يصــل حــاضري ببدائيــة عهــود ســحيقة حيــث تــسرح العجمــاوات وأوابــد الوحــش، أنــا ظــل للخطيئــة التــي تخلــع أوصــالي، فــترة عصيبــة مــن الترقــب والانتظــار المقيــت أنــا.. لغــم يســتمر في إخفــاء ســلاحه حتــى بعــد انتهــاء الحــرب.. (وأمــا نــكاح البهائــم والأنعــام المعروفــة، فإنــه دليــل عــلى الإحســان إلى مــن لا يــراه، أو النفقــة في غــير صــواب، ويأتــي في ذلــك مــا لا يحــلّ لــه منــه، فــإن كانــت الدابــة هــي التــي نكحتــه، كان هــو المغلــوب المقهــور) ابــن ســيرين.

الأربعاء 22 يناير

سمعت نقرا على الباب، فقمت متثائبا، أصغيت بانتباه إلى نداء جاري فتذكرت أن اليوم موعد السوق، غسلت وجهي والتفت إلى نفسي باسما، لقد نمت بملابسي وحذائي، ولم أتذكر متى ارتميت فوق اللحاف.. فتحت الباب بعينين شبه مغمضتين، كان المعطي يركب أتانا مبردعة، حين صرت على كثب مالت برأسها نحوي، فخاطبني المعطي:

ـ اصعد آسي صالح، لا تخف فهي مريحة، لقد كبرت مؤخرتها هذا الأسبوع..

ثم قهقه بصوت خشن، ظننته يُعرض بي فكرهته من أعماقي.. تملّى صورتي مليا، فتمنيت لو أعرف حقيقة ما يجول في خاطره، هل أبصرني وأنا أركب أتانه بشكل مقلوب؟ أم ترى اشتكت له بنفسها فقد يفهم لغتها، فالعلاقات بين البدو والدّواب هي من الحميمية بحيث لا أشك في هذا الاحتمال.. ثم لماذا يعرض بي هكذا، فالحيوانات هنا تمارس طقوسها الجنسية علانية، فتتناكح أمام أعين مالكيها.. بل إن هؤلاء أنفسهم يميلون إلى تلك العلاقات البكماء مع الدواب، فلماذا يُعيب علي ما قمت به، هل من العدل أن يحرم علي ما هو في حكم الحلال في عرف القرية؟

ابتسم المعلم المعطي وأردف قائلا:

ـ لقد شبعت من العلف.. اصعد آ الفقيه..

كانت الحقول في أبهى جمالها، حيث بدأت الأرض تُطلع بوادر أسرارها وتعلن عن بهجتها.. وصلنا الجسر عبر طريق ملتو، حيث كان النهر يلتفّ حول القرية كالسوار، شاقا بمائه التلال والهضاب، وعلى مرمى البصر كان الجبل ينتصب في الطرف الأقصى للسوق، يشيع في النفس رهبة وخشوعا آسرا، وعلى سفحه نمت أشجار ظليلة، بقيت صامتا طول الطريق أنصت إلى خرير النشوة يخدر حواسي، وأفكر في توازنات العالم وتغيّر المسارات، وانقلاب الأحوال بين الأمس واليوم من خلال مؤخرة أتان جاري!

ـ انظر يا صالح إلى الحقول، هل رأيت سيقان القمح كيف تتمايل، إذا أرادت قدرة الله سيكون هذا العام من أجمل سنوات القرية، ستكون الأعراس والحفلات..

ثم لكز بطن الأتان بخفة وأضاف:

ـ إيه.. سبحان مبدّل الأحوال، بالأمس فقط كنا نعيش أياما من غبار، كانت أياما سوداء عصيبة، واليوم، انظر كيف حولت الأمطار كل ذرة في الطبيعة: الأشواك تحولت إلى نباتات زاهية بألوانها عابقة بأريج ريحها، والغبار الذي غطى الوجوه بالكآبة تحول إلى صفاء يملأ الطرق والهواء والقلب، حتى الثعابين والغربان التي كانت تحوم فوق السطوح أذابتها ألطاف السماء وحوّلتها إلى حيوانات أليفة وطيور رائعة تملأ القرية بألحانها الشذية، وبدل الحمرة

المتسربة من الأرض العطشى، ها نحن أمام خضرة تُنعش العين وتبهج القلب !

كل شيء هنا مرتبط بالأرض: الولادة والموت، الفرح والحزن، لا يمكن تصور قروي بدون أرض، ليس مهما أن تكون سوداء أو خضراء، وإنما توجد بأي شكل.. لهذه الشجرة المتحركة: القروي والأرض، جذور ممتدة في أعماق الوجود، تراب يعانق التراب، استعارة باذخة لالتحام عجيب.

السبت 1 فبراير

كانت ربيعة جالسة فوق كرسي مقابل حليمة، تمشط شعرها الطويل كجريد النخل، عندما رأتني ارتمت علي حتى كاد المشط الذي بين يدها يخدش خدي الأيسر، صافحتني بحرارة فقبّلت ذراعيها ثم أمسكت بيدي بعد أن أدركت ترددي فاستسلمت، وصعدت معها إلى البيت.

كانت الحجرات في الطابق الأول متراصة بعضها موصد وبعضها وقفت أمام مدخله مومسات شبه عاريات، كانت تسمع من الحجرات الجانبية أصوات شبقة تصرف فائض طاقتها الجنسية المحتبسة.. دخلت مع ربيعة إلى مخدعها، اتجهت نحو المائدة فتفحّصت قنينة كانت منتصبة قرب منفضة السجائر، شممتها فصعدت أنفي رائحة كريهة للكحول، فسألتها مستوثقا:

ـ هل أصبحت تشربين «الجّانكا» (الكحول)؟

ـ لا، إنها الماحيا.. حضّرتها وحدي، إنهم يبيعونها هنا مغشوشة.

شربت ربيعة بشكل هستيري، فتورّدت شفتاها وافترست الحمرة خرائط جسدها، ثم رفعت عقيرتها بالغناء المصاحب بالدموع. كان صوتها ناعما وزاده الحزن مسحة من الرقة والدفء، ولأدفع بطقوس العربدة إلى ذروتها قمت إلى الزر وأطفأت ضوء المصباح، كان الشعاع المتسلل من خصاص النافذة يكشف عن أسرار زاهية من جسد ربيعة، أزحت الستارة لأفسح مساحة أكبر من الضوء، ثم مررت يدي على صفحة الزجاج الذي علاه ضباب لزج من أثر الأنفاس اللاهثة، جذبتني ربيعة وضمتني إلى صدرها، فامتزجت أنفاسي بالعطر العابر لمساحة جسدها.. أجمل حرية أشتهيها هي أن تعلن أفراس الجسد شهواتنا المجنونة أمام مرايا الحياة.

أزاحت المائدة موسعة فضاء حركتها، وبدأت تنزع ملابسها على طريقة Streap-tise ، كل قطعة تزيلها عن جسدها تفتح في أعماقي بئرا من آبار اللذة: فكرت: لقد دخلت هذه البلدة راهبا وسأخرج داعرا، منذ اليوم الأول وأنا أفك من حولي الخيوط التي تكومت حول جسدي، وكبّلت خطواتي عبر سنين العذاب التي جعلت كل ما هو جميل رجعيا وبورجوازيا، وهي الصيغة المهذبة للعنة

الفقهــاء: الزندقــة..

ظــل صــوت ربيعــة يرتفــع في هــدوء الليــل، وأنــا أمــد لهــا كــؤوس مــاء الحيــاة لتصالــح روحهــا وجوهرهــا، ترتمــي عــليّ لتلثمنــي فتنْسَــدل عــليّ خصــلات شــعرها، ثــم أخــذت تغنــي:

آحْ على قلبي شَاح وراح   وما صاب على من يتْلاح
بَرد الصباح هوّاني   وبرد العْشية سَطّاني
كون صَبِت أصْويلحِتي   كُون دَرْتك في القلب الوَسْطاني

***

سَلّمت عليك فقفِطان زيتي   معلّق في باب بيتي
كيفاش السماء اتشق   والملايكة دايرة فيها
كيفاش البحر يفيض   والمواج عايمة فيه
كيفاش قلبي ينساك   والنار كايدة فيه

ظلــت ربيعــة تترنــح برقصهــا المجنــون، وبــدون ســابق إنــذار باغتتنــي:

ـ واش كا تبغيني أ صالح؟

التفــت مصعوقــا، فــردّدَت الســؤال بصوت حــاد يقطعــه الأسى.. ســاد صمــت رهيــب جــوّ الغرفــة، فلــم أجــد ذلــك مســليا، وعندمــا لمســت تجاهــلي قالــت بانكســار:

ـ ثــق يــا صالــح، لأول مــرة كنفِتــح قلبــي لواحــد برّانــي، عارفــة بالــلي أنــا غــير صلِكوطــة حاشــاك، مــا نســتحقش الحــب.. بــارك عــلي غــير نشــوفك قدامــي، أنــت الوحيــد الــلي

درت فيك الثقــة.. مــلّي جيـت لهــاذ البُورديــل، وأنــا مكنعــرف فــين غــادي نصبــح، كتغامــر بحياتــك وتخــرج مــع «Les -sa lopars» كل واحــد فــين غايدّيــك، كتمــشي عــلى واحــد حتــى تصدقــي مــع خمســة ولا ســتة، ولا يتعــدى عليــك واحــد ومــا يخلصَكْــش أو يضربــك ويسرقــك، ولاّ يخرجــك مــع الفجــر للزنقــة ويخليــك تموتــي بالــبرد، صدقنــي أصالــح، أول خطــوة كنديرهــا خــارج هــاذ العتبــة، كنشــهد، لأنــي كنقــول نقــدر نرجــع ونقــدر مــا نرجعــش، تقــدر تفكــر أ صالــح وتقــول هــذه شــبعانة، طالــع لهــا كل شيء فراســها، آش بغــات بــشي حــب.. شــتي الحالــة ديالنــا تتشــبه شي طبــاخ خــدام في أوطيــل مــن الدرجــة الرفيعــة، تيطبــخ غــير الشــهيوات المخــيرة، لكــن تتلقــاه مســكين جيعــان، مــلي كيكــون يصــاوب الماكلــة تيســيلو ريوكــو، وتيتمنــى لــو كان يهــز ولادو ومراتــو ويتغــداو نهــار واحــد في حياتهــم في هــذاك الأوطيــل..

شــعرت بضجــر شــديد، إذ عجــزت عــن العثــور عــلى موضــوع للحديــث يمكــن أن ننســج منــه حــوارا يغيــب فيــه صمتنــا، لــم أكــن أتوقــع هــذا الســؤال الــذي أعادنــي إلى وجــع العمــر الراحل عــبر جــسر النزيــف فأفتــح نافــذة عــلى الغيــاب، أتســلق الجراح المســوّرة داخــلي فتحضرنــي كل التفاصيــل، هنــاك في وجــدة مــع نزهــة العمرانــي!

«ـ تعــالى يــا صالــح، نشــيد صرح أحــلام مضيئــة ونعيــد ترتيــب أجــزاء العالــم مــن جديــد..

كانت تجلسني بالقرب منها، تُخرج علبة السجائر، تسحب منها لفافتين وترمي بها وسط حجرها، ثم تضع واحدة بين شفتيها وتشير إليّ كي أحتديها، وعندما تلتقي سيجارتانا توقد عود الثقاب، كنا ننفث الدخان بقوة، فتعلو الدوائر مزوبعة فضاء الغرفة التي كنا نختفي داخلها كلما أحسسنا بخطر مداهمة قوّات السّيمي لحرم الجامعة.. وفي غمرة ذلك الاحتفاء الذي أصبح طقسا اعتياديا بيننا، كانت نزهة تنظر إلي بعينين كبيرتين بسعة الحلم ووجه قمحي تعلوه كآبة شفافة، وتقول بصوت رقيق كالبسمة:

- هل يمكن أن نقدح عود ثقاب على حجر مُفتّت؟

- لست أدري ما تقصدينه بالضبط؟

- أحس أحيانا بأن ما نقوم به لا يعدو أن يكون محاولة يائسة لبناء أمجاد شخصية من وهم البطولة، أما عموم الناس فهم مُنسحقون تحت عجلة اليومي حتى ليبدو كأننا مصابون بعقدة استحلاب الألم..

- لا أطمئن أحيانا لهذه اللهجة الغريبة في لسانك!

- قل لي يا صالح: لماذا لا نعيد الذاكرة إلى عدّاد الصفر، إلى ذلك العدم الحقيقي الذي يُعيد للكون توازنه من أجل تثبيت فكرة سليمة، لاحظ أني لم أقل صحيحة، فكرة واحدة سليمة تكون قابلة للتناسل عوض هذه الخيبات البطولية.. ما رأيك بعقد حلقة طلابية وسط الحرم الجامعي نجمع من خلالها عريضة مليون توقيع للطلب بالسراح المؤقت للجسد قبل الشعب»؟!

الاثنين 10 فبراير

مـع انتهـاء آخـر ريـال مـن النقـود التـي بعثهـا لي طوبـة، أجد نفـسي مـرة أخـرى عـلى حافـة الجـوع، حيـث تتـوالى همومـي بمتتاليـات هندسـية، قصـدت القسـم وأنـا لـم أُصـب شـيئا مـن الطعـام لمـدة يومـين، فكـرت: لـو أنـي لـم أعـف نفـسي مـن ألسـنة السـوء لقاضيـت نجـاح التلاميـذ بجـرّات السـمن والبيـض وفـراخ الدجـاج وأكيـاس اللّوبيـا والعـدس.

وصلـت متعبـا إلى القسـم، وفكّـرت في حصـص اليـوم وموادهـا، سـتكون لي رحلـة سـندبادية مـع التلاميـذ أجـوب خلالها سـبعة بحـار، أغـوص في مياههـا العجـاج المتلاطمـة الأمـواج، وفي كل بحـر عـلي أن أقـدم للأسـد الـذي يعـبر بـي قطعـة مـن لحـم جسـدي، أهيـم عـلى وجهـي بـين مفـازات متباعـدة، أسـعى لجلـب المنفعـة لصغـاري بالرحلـة والتحايـل، حيث أتزيّـى في كل مفـازة بـزيّ يُناسـب أهلهـا، فتـارة أختـار زيّ الواعـظ، وأحتال في خـداع العـوام بأمـور تعجـز العقـول عـن ضبطهـا، وأخالـط الرياضيـين حيـث أقتـات عـلى فتـات موائدهـم، ثـم أعـرج عـلى سـوق أردئ الشـعراء.. تتـورّم قدمـاي ولا أشـعر مـن شـدة مـا أجـد في ذلـك مـن الكـرب والتّعـب، أليـس هـذا جنونـا؟ !

وصلـت السـاعة الثانيـة عـشرة زوالا، انتـشر التلاميذ في السـاحة وتحلّقـوا جماعـات حـول غذائهـم، اسـتيقظ الجـوع الوحـشي في أحشـائي حتـى كاد يلتصـق بطنـي بعظـم ظهـري، أحسسـت

بـالأرض تلتهـب تحـت قدمـي والهـواء يختنـق مـن حـولي، فاتّقـدت نـيران مدافـع السـخط داخـلي، وصرت ألعـن وأشـتم:

ـ عليّ أن أمسك الوظيفة من ذيلها ليستقيم حالي!

ثـم غُصـت في هذيـان قـاس، فشـعرت بالاختنـاق ولـم أسـترجع وعيـي حتـى تقـدم منـي تلميـذ بخجـل، وقـدم لي قنينـة فارتبكـت، هـل سـمع الأطفـال شـتائمي، هـل أحسّـوا بمـرارة الجـوع الـذي يجـرح أمعائـي.. شـكرت الطفـل وأردت أن أصرف نظـري عـن الأمـر، لكـن نـداء الجـوع كان أقـوى مـن كبريائـي، فشربـت مـن فـم الزجاجـة، كان مـذاق الشـاي حـارا وبـاردا، ومـا هـي إلا لحظـة حتّـى تحلـق التلاميـذ حـولي، كلّ يتسـابق كـي يحظـى بمشـاركتي غـذاءؤه..

أثنـاء الفـترة الزواليـة، كتبـت عنـوان الـدرس، وشرعـت في الـشرح، فلفـت تلميـذ انتباهـي إلى عـدم كتابـة تاريـخ اليـوم، فكـرت: لمـاذا سـأكتب التاريـخ وكلنـا خـارج سـيرورة التاريخ؟ وأنـا، بالـذات، في هـذا المـكان المحـاصر بالوهـم والتفاهـة، كيـف يمكـن أن أشـعر بأننـي كائـن تاريخـي، كيـف يمكـن أن أحـس بالزمـن مـن حـولي؟ التفـت إلى سـاعتي، وددت لـو رميتهـا بعيـدا فـلا معنـى هنـا لمثـل هـذه الآلـة الصّمـاء، لقـد صرت أقيـس الزمـن بمـوازاة ظـلّي وامتـدادي عـلى الأرض، إذ لا يسـاير بـؤس هـذه الجغرافيـا سـوى زمـن بئيـس.

عُـدت إلى القريـة متعبـا، تمـددت فـوق الفـراش لأسـتريح، فبـدأت أمعائـي تشـتبك وسـط بطنـي، أحسسـت بضيـق

تنفسي فخرجت إلى الدوار أجول بدون هدف، كنت أحاول أن أفرّ من الجوع بأي ثمن، مررت قرب المسجد، فوجدت الفقيه التهامي يخيط جلبابا، ألقيت عليه التحية، فدعاني إلى الجلوس، جلب لي الصبي الذي يمسك بالخيط كرسيا خشبيا، فجلست بجانبه، كنت أتمنى لو يعرض عليّ كأس شاي وكسرة خبز. كان أملي كله في كسرة خبز يمدني بها الفقيه التهامي، ولم يكن الأمل وحده قادرا على إنعاش أمعائي أو ملء فمي، ولا أحد يمكن أن يمنحك شيئا استنادا إلى أملك وحده..

أخذ الفقيه يحدثني عما جرى بينه وبين الشيخ عباس:

ـ يريد أن يكون سيد العارفين في هذه البلدة، يُفتي في أمورها ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة، وينقل الأخبار لأسياده، أليس هو الذي ورّط الدوار في انتخاب البرلماني الزّفت.. فلماذا لا يأتي هو ويبني المسجد عوض عشّة البوم هاته، والله يا سي صالح لولا معزّة هذه القرية عندي لتركتها، وأرض الله واسعة، كل مرة يدبّرون لي مكيدة لطردي من الدوار..

توقف لحظة كمن يفكر في أمر جلل، ثم استأنف حديثه فيما لم تكف يداه عن الخياطة ونَهر الصبي الذي كان يتلصص على الأطفال وهم يلعبون قرب البئر:

ـ في الشهر الفائت، جاء عندي القائد، تصور.. قال لي يجب أن أحصي عدد الناس الذين يصلون وأيديهم مبسوطة إلى

الأرض، وعـدد الذيـن يُصلّـون وأيديهـم مضمومـة إلى صدورهم.. لـم أرض بذلـك، قلـت لـه: أنـا إمـام ولسـت مقدمـا.. فغضـب وهددنـي بالطـرد والحبـس، كأن رزقـي بيـده..

سرح ذهنـي بعيـدا، كنـت أتأمـل فيمـا يجمعنـا كفقيهـين، مـا العلاقـة التـي تجمـع بـين هـذا الفقيـه التقليـدي المشـارط في الـدوار وبينـي كمعلـم، فقيـه في هيئـة حضريـة، وموظـف في مؤسسـة أعمـل عـلى تجديـد وظائفهـا وأدواتهـا وسـلطتها؟

عـدت إلى المنـزل وأنـا أفكـر في هـذه الاشـتباكات السريـة، فأخـذت الـدّواة والريشـة وجلبـت قرطاسـا، وبـدأت أخـط خطابـا لطوبـة:

«اعلـم أعـزك اللـه، أنـي نظـرت في أحـوال الدنيـا وأمـور النـاس، فرأيـت الزمـان يأتـي عـلى كل شيء فيخلقـه، وهـا أنـا أرقّـع خـرق أيامـي، وأداري جراحـي لعقـدة لـم أصنعهـا بيدي لأفكهـا بأسـناني، أراوغ الجـوع الـذي ينهشـني، والجـزع الـذي يسـتيقظ فجـأة في قلبـي. لقـد ألمّـت بـي الحاجـة ولـم أجـد لنفسـي مخرجـا مـن ورطتـي، إذ لا زلـت خـاوي الوفـاض، ولـم أغنـم مـن هـذا الفتـح الـذي صوّرتـه لي مخيلتـي غـير الفجائـع..

واعلـم حفـظ اللـه اسـمك وأبقـى ذكـرك أنـي أجهـر إليـك بمـا صـار إليـه أمـري ومـا يجيـش في قـراري، عـلى قـول الشـاعر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسـيك أو يسـليك أو

يتوجـــع

ليــس لي هنــا إلا النســوة والخمــرة أصــل بهمــا مــا انــصرم مــن حياتــي، وأرتــق بهمــا خطواتــي، لا أســتطيع لجــم نفــسي عــن الشــهوة، إذ أشــعر أن لا ســماء لي في هــذه البلــدة غــير نســوة أضــع فيهــن سري وغلالتــي وأتوشــح بدثارهــن وأتســلى بجراحهــن.. وقــد اســتبان لــك أن لا صديــق أرتــاح لــه في جميــع أمــوري، وأشــاركه بعــض أسراري، غــير مصطفــى العــزوزي وهــو طالــب جامعــي، فإنــي لــم أر أحســن ذكاء ولا أرصــن عقــلا وأكتــم سرّا منــه، وقــد أصبــح أخــصّ النــاس منزلــة لــدى نفــسي وأدناهــم لمعاشرتــي.

ولتعلــم يــا أخــي وموطــن ثقتــي، إنــي مــا اســتقر بــي المقــام بالقريــة حتــى اكتريــت منــزلا أســتر بــه حــالي، لــم أبحــث عــن مســكن يليــق بمنزلتــي، إذ أقمــت بــأول مــكان وقفــت عنــده ناقتــي.. لقــد أهلكنــي تعــب الطريــق، كل يــوم عــلي أن أقطــع آلاف الأمتــار مشــيا عــلى الأقــدام، وعندمــا أصــل إلى القســم منهــك القــوى، لا يشــحذ عزيمتــي إلا هــؤلاء الصغــار، فهــم مفتــاح ســعادتي ونهايــة أربــي ودعامــة وجــودي، صدقنــي يــا طوبــة فهــم الذيــن ينســونني تعــب الطريــق، فــأذوب معهــم في شرح مــا هــم إلى معرفتــه أحــوج، لجلــب الانتفــاع ودرء مواطــن الاعوجــاج، وأعمــل فكــري بغايــة مــا أجــد إليــه الســبيل قصــد إزالــة حجــب العتمــة عــن أبصارهــم، إنهــم امتــدادي الأصيــل».

الفقيه صالح البشير

الثلاثاء 9 مارس

اليوم موعد اللقاء التربوي، قصدت مركز آيت بوكماز حيث التقيت بعض المعلمين الذين سبق أن تعرفت عليهم، كان الكل يُبدي تبرمه من الموضوع، فأخذنا نتندر بالطرائف التي نسجها الخيال البئيس لذاكرة جريحة.

كان المفتش يتحدث عن دور المؤسسة في نشر تكافؤ الفرص، وزرع تمثلات جديدة لمجتمع بديل... أحسست أن كلماته ترحل إليّ بطيئة وذابلة كرياح الخريف، بينما كنت أتطلع إلى المعلم الذي جلس في الصف المقابل، رجل فوق الخمسين من عمره بشارب كث وفم كبير اسودت معظم أسنانه الأمامية، واعتمرت جمجمة رأسه طاقية فقدت ألوانها الأصلية، أخرج نظارتين سميكتين ومسحهما بقميصه الرث، ثم ثبتهما على عينيه، ظللت مستغرقا أتابع كل حركاته، وأقرأ القلق النابت في عينيه اللتين كانتا تجوبان الآفاق بحثا عن لألأة الشمس الغاربة ببطء على المدى البعيد.. كنت أتامل المعلم الجالس أمامي، أقرأ في صورته مساري الزاحف ببطء، حتى نفّرتني هيئته من مآل لا أشتهيه، تُرى هل لازال هذا الكهل يحلم؟ هل يستمر في التمتع بنداءات الذاكرة والانتشاء بوقع المفاجأة ودبيبها؟ هل لازالت لديه القدرة على الاحتفاء بالأحلام الغافية تحت الجلد، وذلك الانجذاب العاطفي نحو الصور

والأشياء، وتلك الومضات الساحرة التي تُتلف مرايا القلب وتعلم الإنسان كيف يكون مولعا بالتفاصيل في هباء التيه؟ أم أنه يكتفي بتعزية نفسه ومواساتها على مآل لم يختره، ويتألم من ذلك التشوه المرسوم في منعطف حياته؟

لست أذكر من قال: «عندما نشيخ نتمنى لو يبدأ كل شيء من جديد»، إذا قدر لي أن أعبر نفس الصراط الذي عبره هذا الرجل، فأي إحساس سيخالجني حالتئذ؟ !إن المسألة أحيانا تبدو كأنها محض صدفة، إننا نختلف في الموقع وزاوية الرؤية، والمكان الذي أنظر منه الآن لا يمنحني أي سلطة؛ أي شعور يمكن أن يعتريه هو الجالس هناك، هل سيشعر بالحسرة على عمره الضائع؟

أخرجني من تلصصي صوت المفتش وهو يحفز الجميع على النقاش، فوجدتني أطلب الكلمة وأقول بلغة ساخرة:

- إن السؤال الذي يحيرني، هو أننا ونحن نتكلم عن المدرسة ودورها في الاندماج الاجتماعي ننسى معطى أساسيا، فإذا كانت المدرسة نفسها كوجود مادي، معزولة وغير مندمجة في المحيط الاجتماعي فكيف ستساهم في تحقيق هذا الاندماج؟ إذ فاقد الشيء لا يعطيه، إن ما يشغل بالي هو ذلك القسم الضيق القائم كدمل انتفخ بالقيح والصديد، قسم وحيد ومعزول يحتاج إلى أنس حقيقي، وأتساءل دائما ما الحكمة في عزلته؟ قسم شاحب وكئيب لا علاقة لي به لقد حاولت أن أجعله أليفا، فنظفته

وسـوّرت جوانبـه بالحجـارة وتجنـدت مـع معـشر التلاميـذ لطـلاء جـذوع الأشـجار والحجـارة المرصوصـة بالجـير الأبيض، كمـا غرسـت في سـاحته شـجرة تـين ومشـاتل نعنـاع وبعـض الـورود الفواحـة، لأسـتكين إليـه وحتـى تطيـب نفـسي ويهـدأ بـالي بمشـهده، فأحقـق معـه أُلفـة لازالـت مشـتهاة، لا أعلـم ضروب الحكمـة وأوجـه الفطنـة التـي...

كان كل المعلمـين يضحكـون بينمـا ضجـر المفتـش وأخـذ يطلب منـي ألاّ أخـرج عـن الموضـوع، فـازدردت ريقـي واسـتأنفت كلامـي باندفـاع أقـوى:

- أنـا لا أنحـو باللائمـة عـلى أحـد، ولكـن فقـط أعيانـي إعمـال الفكـر والرويـة، وقلبـت الأمـر عـلى أوجهـه المختلفـة، لكنـي لـم أقـف عـلى علّـة خليقـة مـن أجلهـا نجتـاز كل هـذه المحـن، أنتـم تتذكـرون تلـك البيـوت التـي كنـا نبنيهـا في ضواحـي الحـي بعيـدا عـن الأطفـال الآخريـن حتـى لا تتعـرض للهـدم والاكتسـاح، كنـا نشـيدها بلـذة وبمهـارة في كثـير مـن الأحيـان، كانـت بيوتـا جميلـة ورائعـة، كنـا نثـق بهـا ونأتمنهـا فنودعها أسرارنـا بقدسـية، صحيـح أننـا كنـا نبنيهـا بـأدوات بسـيطة لكننـا كنـا مندمجـين معهـا!

ثم قلت موجها كلامي إلى المعلم الكهل الجالس أمامي:

- أنـت بـدورك يـا سـيدي تذكـر تلـك البيـوت.. لسـت واثقا من ذلـك تمامـا، لكنـي لا أشـك في أنـك شـيدت بيديـك هاتـين بيوتـا صغـيرة أودعتهـا أحلامـك، وناجوتهـا بعشـق، ثـم جعلتهـا

مــأوى لأسرارك، يُخيــل إليّ وكأن كبــار رؤوس الــوزارة مــن أهــل الحــل والعقــد الذيــن تفتّقــت أذهانهــم عــن فكــرة بنــاء مثــل هــذه الأقســام، هــم أنفســهم أرادوا أن يلعبــوا، أن يتســلّوا ببنــاء دور بعيــدة عــن الســكان، إذن فنحــن هنــا ضمــن خطــة لعــب، لكــن شــتّان مــا بــين لعــب الصغــار ولعــب الكبــار!

السبت 27 مارس

وصلــوا خفيــة، فتســللنا متفرقــين إلى حقــل بعيــد عــن الــدوار قــرب النهــر، كنــا ســتة، قــدم لي مصطفــى شــابا نحيل الجســم رغــم القميــص الفضفــاض الــذي حــاول أن يخفــي بــه حقيقــة حجمه :

- أحمــد الأشــهب، وهــذه عزيــزة صديقــة أحمــد.. أمــا هــذه فنجــاة.

كانــت نجــاة تحــت الخطــى متعثــرة وســط جلبــاب بنــي، ارتمــت عــلي فقبّلتهــا، فتســاءلت ربيعــة بمكــر:

- كيــف تُقبــل نجــاة وحدهــا في فمهــا.. قَبّــل أحمــد أيضــا، التعــادل!

اســتغربت تســاؤلها، هــل هــي غــيرة مســتترة؟ ولا أدري كيــف جاريتهــا، فقبلــت أحمــد، دون تصميــم مســبق أقــع في الــشرك، أحسســت بالغثيــان فــأردت أن أزيــل أثــار القبلــة الذكوريــة من شــفتي، وكمــا يفعــل الطفــل وجــدت يــدي ترتفــع إلى فمــي،

فمسـحت بكـم قميـصي بقايـا التُّفـال عـن شـفتي.. نـدّت ضحكـة مدويـة عـن ربيعـة، وتابعهـا الآخـرون فانخرطـت معهـم في صخبهـم دون إثـارة، كنـت أحـس برائحـة الرجـل قويـة في أنفـي وأنفاسـه تفترسـني!

تحلقنـا حـول النـار نكـرع كـؤوس الخمـرة ونتبـادل الحكايات المكتنـزة بالأحـلام والانكسـارات.. ظللنـا نرقـب أحمـد، بهـدوء وضـع حقيبتـه فـوق ركبتيـه، لـم يسـترح في جلسـته، فقـام يبحـث عـن حجـر مسـتو، وضـع فوقـه جلبابـه اتقـاء للرطوبة، وببهـاء صـوفي فتـح الحقيبـة وأخـرج منهـا كمنجـة أخـذ يداعـب أوتارهـا بأناملـه وتـرا وتـرا، ويُسـوّي إيقـاع نغماتهـا رافعـا إياهـا إلى صـدره ثـم إلى كتفـه، مصغيـا إلى عزفـه مرتبـا إيـاه حسـب مقامـات وأدراج.

أخـذت الموسـيقى الصـادرة عـن الكمنجـة تبعـث لحنـا شـجيا يتصاعـد إلى العليـاء كعصافـير مهاجـرة في سرب جماعـي، وارتفعـت عقـيرة ربيعـة بالغنـاء فسـايرتها نجـاة وعزيـزة، كانـت تملـك حنجـرة غريـدة، إذ ظـل صوتهـا يشـع في آذاننـا ويجعـل مـن طقـس الليلـة مهرجانـا كرنفاليـا!

امتـد بنـا السـهر في أغـوار الليـل.. بـدا الكـون في تلـك السـاعة المتأخـرة بهيّـا كعـروس، انخرطنـا كليـا في الغنـاء الجماعـي، أخـذت القنينـة والـكأس وسرت أقـرع الزجاجـة بقـاع الـكأس في انتشـاء مسـايرا إيقـاع الأغانـي الأمازيغيـة التـي لـم أكـن أميـز كلماتهـا تتدفـق الأصـوات مختلطـة بالعـزف والإيقـاع

الصاخب كأمواج تلتطم بالصخر، أخذت عزيزة تطبل بكفها، ونجاة تفرقع بأصابعها وتتمايل برأسها، تعالت الهتافات في الأرجاء، فوسّعنا الدائرة لنفسح المجال للرقص، قمت أبحث عن خشب أطعم به النار هذا الإلاه الساهر على عرسنا، ينير متاهات الجسد ودهاليزه السرية، وعندما عدت وجدت ربيعة وسط الحلقة ترقص بغنج، تابعتها بشبق: الأنامل الرقيقة، الرأس المترنح والورك المتمايل، الذراعان المتأرجحان والردفان اللذان يهتزان بإيقاع حالم، فيما ظل نهدها يرتج بتثاقل على إيقاع جسدها المرتعش، اقتربت مني مترنحة وأمسكت بيدي، تمنّعت في البداية لأحافظ على هيبة مفتضة للوهم الاجتماعي، ثم انخرطت في طقوس الجذبة.

التصقت بجسد ربيعة حتى أحسست بنهدها يلامس زندي، فأنعشتني أنوثتها، نزعْتُ الدبابيس عن شعرها، وبحركة من رأسها انسدل الشعر على كتفيها وغطى ظهرها فلاحت كأجمة غارقة في أسرارها.. تقاسمنا الكأس، فشربت ما فضل منه وهمست في أذني بشبق يتوارى خلف الشفتين:

– أتصدق، لم أكن أعرف أنك مجنون وشيطان!

– وأنا لم أكن أعرف أنك شعلة متوهجة توقد حواسي كلها!

تسلل الكل إلى الحقول ولم أعد أسمع إلا قهقهات نجاة

ومصطفـــى يـــردد صداهـــا النهـــر الصامـــت، كانـــت طلائـــع الفجـــر الأولى تســـحب عربتهـــا الفضيـــة ببـــطء، تســـللت مـــع ربيعـــة إلى المنـــزل.. شـــكت لي جوعهـــا، فرأيـــت نفـــسي أصفـــق يـــدا بيـــد، وفي رمشـــة عـــين انتصبـــت مائـــدة كبـــيرة بيننـــا طولهـــا عـــشرة أمتـــار وعرضهـــا مـــتران، مائـــدة بهـــا أطبـــاق آهلـــة بـــكل مـــا تشـــتهي النفـــس، صُفّـــت فوقهـــا ســـلال مـــن الخبـــز، لا لـــم أر خبـــزا، بـــل أنواعـــا مـــن الســـلاطة،غابة مـــن الســـلاطة بألوانهـــا الزاهيـــة: خـــضراء، حمـــراء، صفـــراء... وخروفـــا مشـــويا في حجـــم عجـــل، وبســـطيلة محشـــوة بالدجـــاج البلـــدي إلى جانـــب صحـــون مصفوفـــة وأطبـــاق حافلـــة بـــكل مـــا لـــذ وطـــاب مـــن تفـــاح وإجـــاص ومـــوز وعنـــب وتـــوت تتوســـطها مزهريـــة بهـــا أصيـــص مـــن الـــورود، قمـــت ببـــطء وســـحبت الكـــرسي لربيعـــة ثـــم انحنيْـــت أمامهـــا بعـــد أن قبلـــت يدهـــا، كانـــت تختـــال في ثوبهـــا كالطـــاووس، أزالـــت القفـــاز مـــن يدهـــا وابتســـمت لي عـــن أســـنان بيضـــاء كقطـــع الثلـــج، تبـــدّت لي بقدهـــا الأهيـــف مثـــل غزالـــة ســـائبة.

أضـــاء النـــادل الشـــموع المتراصـــة عـــلى المائـــدة ثـــم قـــدم لنـــا زجاجـــة مشروبـــات في طســـت فـــضي بـــه مربعـــات ثلجيـــة، ملأ لي قدحـــا رُســـمت عليـــه نقـــوش بهيـــة فشـــكرته ووضعـــت منديـــلا عـــلى صداريتـــي، وبـــدأت ألتهـــم قطـــع المشـــوي والبســـطيلة اللذيـــذة، فيمـــا ظـــل الخـــدم والحشـــم يشرفـــون عـــلى نقـــل الأوانـــي الفارغـــة وتقديـــم أوانـــي جديـــدة مليئـــة بالأطعمـــة !

عـــلى إيقـــاع نغمـــات الفالـــس المنتـــشرة في باحـــة القـــصر نـــدق

كؤوسنا ونشرب نخب الليلة.. كانت ربيعة شاردة، تنبهت لمتابعتي لها فافتر ثغرها عن ابتسامة مشعة، استأذنتها للرقص فلم تمانع.. أنغام هادئة تتموج في الفضاء وأضواء متعددة الألوان تنكسر على إيقاع النغم، وربيعة بين يدي بفستان أبيض يلمع كالنجوم، قبلت ذراعيها فالتحمت بجسدي وألصقت خدها براسي، فسرنا ندور ونتمايل بانتشاء أقبل شعرها فيدوخني عطرها ثم أشد على خصرها وندور مع إيقاع الموسيقى..

أحست ربيعة بالتعب، استأذنتني فوافقتها طائعا وعدنا إلى المائدة! (وأما المائدة، فقد روي أن بعضهم رأى كأن هاتفا يسمع صوته ولا يرى شخصه يتلو هذه الآية: (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) فقص رؤياه على معمر، فقال: إنك في عسر وتدعو الله تعالى بالفرج واليسر، فيستجيب لك فكان كما قال) ابن سيرين.

حدجت ربيعة ثم جذبتها إلي:

- تعالي نسّيني في جوعي وننسّيك في جوعك!

الأربعاء 7 أبريل

مرة أخرى أصل عتبة الإفلاس، فاليوم موعد السوق وليس لدي درهم واحد أدفع به شرّ الجوع الذي يزحف نحوي.. خرجت لأشم الهواء، كان الدوار شبه خال من الناس، فيوم السوق يوم حرية للمرأة وللأطفال الذين

يخلـون لشــيطنتهم، وهــو أيضــا لحظات ربــح نــادرة للعطارين الذيــن يمــرون بحميرهــم عــلى الــدور، وفي الخــرج أنــواع مــن الحـلي والعطــور والمجوهــرات الزائفــة وبعــض الأشــياء التافهــة التــي تغــري نســاء القريــة الهاجعــات في بيوتهــن مُســورات بأســلاك حقيقيــة وأخــرى وهميــة، كان الــزوج لا يخــشى شــيئا عــلى ذريتــه أكثــر مــن خوفــه مــن مكــر العطــار الــذي يبــادل بيــض النســاء بالمــال ويقايــض بعــض الفــروج بقطــع تجميــل رخيصــة، حيــث كانــت المســاومة لا تخلــو مــن دهــاء وكل وشــطارته!

اقتربــت مــن البــئر فجذبتنــي نظــرات فتــاة كانــت تســحب دلــوا ثقيــلا، أحسســت في عينيهــا ذلــك الســحر الطبيعــي الــذي لا يمكــن أن تقدمــه أي علبــة تجميــل.. ابتســمت لهــا، فتوقفــت بغنــج، ســلمت عليهــا فشــعرت بخشــونة ملمــس يدهــا، ركبهــا الخجــل فســحبت يدهــا كمــن صعقتــه الكهربــاء، قلــت لهــا بلهجــة الظافــر:

- هل أساعدك؟

ودون أن أنتظــر ردهــا أمســكت بــأذن دلــو المــاء حتــى أوصلتها إلى منزلهـــا، نظـــرت إلي في شـــبه اســـتعطاف ثـــم انفرجـــت أســـاريرها، لكنـــي لـــم أجـــد في تصرفاتهـــا مـــا ينـــم عـــن دعـــوة عاجلـــة، ففكـــرت: لـــولا الفضيحـــة لحجبـــت نزواتـــي في هـــذه القرويـــة ذات العيـــون الشـــهوانية، عـــار أن لا تلبـــي دعـــوة امـــرأة ســـواء أقُـــدّ قميصـــك مـــن قبـــل أو مـــن دبـــر!

ابتسمت فاهتز نبض قلبي، بادلتها التحية بحنو زائد وعدت إلى البيت أجرجر قدمي وأرتق خواطري المنكسرة كزجاج المرايا، إذ تسكنني ابتسامة الفتاة وتشرّع نوافذ قفصي على اشتهاء الحضور!

في الطريق إلى المنزل سلمني الشيخ خطابا من طوبة.. فسرت أحث الخطأ وبي شوق جارف، كل رسائل هذا المشاغب تؤجج داخلي ذلك الميل نحو التدمير الذاتي وتدفعني إلى نوع من الجنون، إذ تعيد إلي كل التفاصيل التي عشناها سويا: حرقة الجمر، جلد السنين العجاف، ارتعاشات جسد الطفولة، ذلك الخيال الجامح الذي يزج بنا في مغامرة نائية لنقيس حجم المسافات الفاصلة بيننا؛ كل رسائله تحمل إلي ذلك الحنين الآسر إلى مشاهد الفتنة وعبق اللحظات التي يصعب الإمساك بها، فأعود إلى المقارنة بين أحوال الأمس واليوم لتلمس الانهيار المصاحب للأشياء والذوات والعلاقات.. وفي الأخير لا أتورع عن إحراقها في شبه قداس مجوسي، أتلذذ باللهيب وهو يقضم أشكال السواد الموشوم على صفحتها!

«عزيزي طوبة:

هل تعلم أعزك الله وأصان ذريتك، أنك عاهدت نفسك على انتشالي من هذه المستنقع وها قد أنجزت وعدك، ووفيت عهدك في خطابك الذي فاحت حكمته وعظُمت فكرته، ورقّ أسلوبه كالورود والرياحين، فأحطت علمي

بمـــا فـــات مـــن أمـــري ومـــا انغلـــق عـــلى فهمـــي.

فاعلـــم أيهـــا الفاضـــل المحـــترم أن مـــن علـــق قلبـــه بالغايـــات الكـــبرى قلـــت حسرتـــه عنـــد مفارقـــة الأمـــور الصغـــرى، ومـــن علـــق قلبـــه بالأمـــور الصغـــرى عظـــم أمـــر حسرتـــه عنـــد مفارقـــة مـــا هـــو أتفـــه منهـــا، عـــلى رأي الشـــاعر الـــذي أقـــام الدنيـــا ولـــم يقعدهـــا:

عـــلى قـــدر أهـــل العـــزم تأتـــي العزائـــم   وتأتـــي عـــلى قـــدر الكرام المكارم

ســـخر اللـــه لـــك فيمـــا ســـعيت، ووســـع عليـــك الطريـــق فيمـــا عزمـــت، وإنـــي لأشـــجعك عـــلى علـــوّ همتـــك، وجريـــك وراء توســـيع معرفتـــك، فبُغيـــة الأريـــب هـــي الحصـــول عـــلى مـــا فاتـــه، والبحـــث عـــن فضـــل يخلـــد بـــه أثـــره ويرفـــع مقامـــه، حتـــى يهنـــأ النـــاس بعلمـــه، ويُشـــيد العامـــة بمدائـــح فضلـــه، وأنـــت أهـــل لـــذاك لقربـــك مـــن أهـــل المـــدر.. تقـــول إنـــك تحـــاول أن تكتـــب حكايـــة عنـــي، تخلـــد بهـــا ذكـــري وتجعـــل رزايتـــي متعـــة للناظريـــن، فمصائـــب قـــوم عنـــد قـــوم فوائـــد، وترجونـــي أن أمـــدك بـــكل التفاصيـــل، وتعـــرض عـــلي أن نســـاهم معـــا في كتابـــة هـــذه الحكايـــة، وهـــو الأمـــر الـــذي لا أجـــد الحمـــاس الـــكافي لمجاراتـــك فيـــه، إذ ليـــس في الأمـــر مـــا يســـلي!

لســـت أدري أي شيء تقصـــد، وأي غـــرض تـــروم؟ أمـــا الشـــماتة فإنـــي أهـــل لهـــا، ولا أرى فـــردا في الدنيـــا أحـــق بالزرايـــة منـــي، وإن كنـــت تنـــوي جذبـــي إلى مـــا فيـــه شـــؤونك، فإنـــي أقـــدر

أريحيتــك وطيبــة نوايــاك!

أيهــا الأمــين الصــدوق، اعلــم أنــي لمــا أعملــت فكــري فيمــا عرضــت عــلي، ونشــطت همتــي للنظــر فيــه، لــم أفــرغ مــن دقائــق حيلــه، حتــى رأيــت أن الأمــر الــذي تطلبــه مني لســتُ خليقــا بــه، ولا أهــلا لــه، وقــد عجبــت أن تدّخــر لمثــلي هــذه الأعمــال، وتريدنــي أن أوافيــك بالموافقــة في أقــرب الآجــال!»

الفقيه صالح البشير

***

السبت 24 أبريل

سرت أطــوف بــلا هــدف في شــوارع أزيــلال، أتفــرج عــلى واجهة المحــلات وأتأمــل النــاس الذيــن يقطعــون الشــارع، أحــاول أن أفــر مــن جنــون يوقــظ رقصــا انتحاريــا في جوارحــي، أبحــث عــن فــرح مصــادر عنــوة فــارا مــن العذابــات التــي تزدحــم عــلى تخــوم جســدي، فتخذلنــي الخطــى الملطخــة بوحــل الســنين، وتطــوح بــي مســالك التيــه نحــو حــدود خارطــة الحلــم المتشــح بالذهــول، شــعرت بالملــل يركبنــي فالتفــت ســاحبا قدمــي إلى المبغــى باحثــا عــن ربيعــة التــي تجــدد أوهامــي وتفتــح أمامــي نافــذة للغيــاب، كلمــا امتــلأت مثانتــي قصــدت ربيعــة لأدفــن في أحشــائها كل عذاباتــي، كلمــا ارتفعــت حرارتــي تســلقت الــدروب لأعلــق شــهوتي عــلى مشــجب فخذيهــا: ربيعــة لا تغلقــي البــاب، ولا تدخــلي في الغيــاب !

حين سألت عنها قالت لي حليمة في أسى:

- ربيعة هاجرت المخدع.. وقد تركت لك رسالة !

سلمتني ظرفا مطويا، أحسست به باردا كجسد ميت، وضعته في جيب سترتي فحاصرتني الأحزان والهموم. «كلهم سيعبرون، سينصبون الخيام ويرحلون من جديد إلى أرض غريبة وتبقى وحيدا في مهب الانكسارات الموجعة لخرائط الهجرة، ها هي ربيعة التي كان جسدها ملكا مشاعا، تُحزم أمتعتها وتسافر أثناء غيابك، تتركك وحيدا تجر وراءك جرح المكان كالسجين».

أدخلتني حليمة غرفة صغيرة وأشارت إليّ بالجلوس فلم أقاوم رغبتها، قعدت على حافة السرير فيما جلست الباطرونة أمامي، انتبهت إلى سيجارتها فسلّمتها الولاعة.. استغرقني وجهها الذي لم يخرج سالما من معركة الزمن الضارية، ولم تستطع المساحيق أن تخفي الغضون والتجاعيد التي قفزت إلى سحنتها، علت وجهها مسحة من الحزن غطّت ملامحها بغلالة شاحبة، فاستغربت: كيف يصدر كل هذا الحزن عن عجوز كلما دخلت الوكر وجدتها تغني أو تضحك؟ كيف يمكن أن تُخفي كل هذه الكآبة تحت ابتسامتها التي لم يفقدها مرور السنين شيئا من نضارتها؟ !

تطلعت إليّ حليمة بعينين حائرتين، وبدأت تتحدث بصوت منكسر:

- لقد كانت زينة هذا البيت، منذ ذهبت خفّت الحركة، ورجال السلطة كل ليلة يرسلون كلبهم لجلب حصتهم..

تفجر نشيج من صدرها رسم على سحنتها تاريخ عذاب جنس بشري بكامله، جنس مغلف بالأسطورة وثقل التقاليد، بقيت غارقا في صمتي فيما أخذت حليمة تضرب كفا بكف، ثم قالت بأسى:

- مرات كثيرة كنت أنوي الذهاب إلى الحج، ثم أحول هذا المكان إلى محل للبيع والشراء لعلي أجد ولد الناس يقبل علي ونتزوج، ونعيش عيشة حلال.

دعست لفافتها تحت قدمها وتسمرت عيناها في السيجارة كأنها تودعها آهاتها، لأول مرة أحس بالاندماج مع حليمة، لا فرق بيننا فكلانا بلا ذرة أمل أو على الأصح كلانا يعيش بأحلام موءودة ويحمل لعنة أبدية ! تطلعت إلي بعينيها ثم قالت وقد اعتلاها شحوب فائض:

- لا أحس بالاحترام إلا داخل حدود مملكتي، هنا.. وعندما أخرج أحس بأعين الناس تنهشني والنساء يتهامسن من حولي ويهربن من طريقي كأني مطلية بالقطران، بنات القحبة ينسين الخير، ينسين النصائح التي أسديها لهن، والمال الذي يقترضنه مني لشد أزواجهن إلى فروجهن.. إنهن سبب ضياعي وخرابي!

زاد من وقع كلامها تلك النغمة المتكسرة التي رافقت

صوتهـــا، فتســـاءلت مســـتغربا :

- كيف الحاجة حليمة؟!

تنبهــت إلى هفوتــي، فافــتر ثغــري عــن ابتســامة تحولــت إلى قهقهـــة، ولـــم تتمالـــك حليمـــة نفســـها فانخرطنـــا في موجـــة الضحـــك، فكـــرت: كيـــف أســـبلت عـــلى هـــذه العجـــوز لقـــب الحاجـــة؟! إنهـــا وجهـــة نظـــر بئيســـة، نعـــم أعـــترف بأنهـــا وجهـــة نظـــر بئيســـة، لكنهـــا وجيهـــة. أنـــا الرســـول المبعـــوث يـــا حليمـــة، الحـــق أقـــول لك: مباركـــة أعمالـــك، فأنـــت لا تسرقين ولا تقتلـــين، إن رســـالتك فـــوق الشـــبهات، أيتهـــا الإنســـانة الطيبـــة، لـــو كنـــت أملـــك لأعـــدت لـــك عمـــرك لتعيشـــين حيـــاة أبهـــى.. إنـــك خـــير مـــن ألـــف مـــن الأدعيـــاء الفاجريـــن الذيـــن يأكلـــون أمـــوال النـــاس ويسرقونهـــم بغـــير حـــق، كيـــف ينعتـــك هـــؤلاء المعتوهـــون بالفاســـدة؟ كيـــف يتجـــرؤون عـــلى وصمـــك بالعـــار وأنـــت ســـبب صلاحهـــم؟ أنـــت التـــي تطهرينهـــم مـــن تلـــك الـــدودة التـــي تُحـــرق خصياتهـــم، لـــولاك لانقـــض الأخ عـــلى أختـه والرجـــل عـــلى زوجـــة صديقـــه، وعندمـــا تنظّـــف خصياتهـــم وتلفـــظ دودهـــا الفاســـد، تشـــتعل عقولهـــم صفـــاء ويعـــودون إلى أداء واجباتهـــم عـــلى أتـــم نشـــاط؟!

بصوت كئيب وبلا كلفة استرسلت حليمة:

- هـــن اللواتـــي أخرجـــن مـــن فروجهـــن بناتـــا زاحمننـــا في الحرفـــة، فبـــار كل شيء.. إن بناتهـــن المتعلمـــات لســـن ســـوى باغيـــات بأزيـــاء مدرســـية بيضـــاء كطائـــر البقـــر؟

استندت على ركبتها استعدادا للقيام وقالت بحزن:

- اسـمح لي آسي صالـح أتعبتـك معــي بمشـاكلي، لقـد سـئمت هــذه العيشــة الفاجــرة !

اجلـسي أيتهـا المـرأة الفاضلـة النفـس، الطيبـة النوايـا، فأنـت التـي آويـت هـذا الرسـول مـن الضيـاع في قـرف هـذه الـدروب التـي يفـوح منهـا دخـان الظـلام ورائحـة البـؤس، كفكفـي دموعـك أيتهـا الطاهـرة، يـا موقـدة شـعلة الحيـاة وحارسـة الشـباب! مباركـة أعمالـك، مبـارك حزنـك ونسـلك، أليـس مـن ثمارهـا تُعـرف الشـجرة، وكل شـجرة لا تثمـر جيـدا تُقطـع وتطـرح في النـار، أمـا أنـت فشـجرة مثقلـة بثمارهـا.. إن جذور النبـات هـي أفواههـا التـي تقتـات منهـا ممـا يتـسرب إليهـا مـن الأرض، أيضـا فرجـك هـو فمـك الـذي تقتاتـين منـه، فمـن لـه أذنـان للسـمع فليسـمع!

جـرّت خطاهـا نحـو البـاب وقـد اشـتد غمهـا، ومـن الممـر الضيـق كان يصلنـي صـدى صـوت شبشـبها.. جلـت ببـصري في أرجـاء الغرفـة فـارا مـن لحظـة عمقـت جـراح الكآبـة داخـلي، تحسسـت الظـرف في جيبـي، فضضتـه فوجـدت ورقـة كتبـت بخـط طفـولي رديء، أعـرف أن ربيعـة لـم تقـرأ في كُتّاب ولا في مدرسـة رغـم ذكائهـا، لاشـك أنهـا طلبـت تلميـذا مـن أولئـك الفتيـان الذيـن يزورونهـا، فكثـيرا مـا حكـت لي بعـض طرائفهـا معهـم، وأملـت عليـه مـا تـود قولـه:

«أسـلم عليـك مـن قلبـي يـا حبيبـي الغـالي، لـن أنـسى أبـدا في

حياتـي أنـي عرفـت رجـلا اسـمه صالـح، لقـد عاملتنـي باحـترام.. لـم أشـعر بذلـك مـع كل الذيـن عـبروا جسـدي، لـم أكـن أحـس بالراحـة والـدفء معهـم (...) ثـق بـي، إذا قلـت لـك إنـي أحببتـك، حتـى تمنيـت لـو عرفتـك في بدايـة حياتـي، لـكان لي قـدر آخـر، حيـاة مغايـرة، لسـت أدري لمـاذا تمـارس علينـا الحيـاة هـذا المكر؟ وكمـا كنـت تقـول، كل الأشـياء الجميلـة تأتـي بعـد فـوات الأوان!

فيمـا يتعلـق بـي، فقـد اضطـررت إلى الرحيـل فجـأة بسـبب مـرض أبـي الـذي لـم أره منـذ مـا يزيـد عـن سـت سـنوات، وهـو عمـري الـذي قضيتـه بعـد طلاقـي مـن زوجـي بـين البحـث عـن عمـل واشـتغالي بأزيـلال، سـآخذ أمـال مـن عنـد خالتهـا ونجلـس في مراكـش إلى الأبـد، أريـد أن أقـضي مـا تبقـى مـن عمـري في إنعـاش هـذه «الآمـال» المتبقيـة لي مـن حطـام الدنيـا، هـذا عنـوان أسرتـي(...):

***

سلمت عليك في التفاحة والتفاحة مقسومة على جيهتين
الناس تنساك عام وعامين وأنا ما ننساك حتى قسمين

***

سلمت عليك في العود والعود فقلبو بنانة
إلى فرقتيني نطلق عليك العوامه
وإلى متي يحييك مولانه
وإلى حييتي نديك أنايه

حبيبتك ربيعة»

كلمـا اسـتكنت إلى جـدار العالـم مـرة لأعلـن الصلـح- لا أدري أي مصادفـة جعلـت أبـي يسـميني صالحـا وبشـيرا!- إلا وانهار الجـدار وعاودنـي جرحـي القديـم.. أيمكـن أن تكـون ربيعـة مجـرد صـدى بعيـد، حلـم نبـت في غفلـة عنـي مثـل واحـة في صحـراء القلـب ثـم تلاشـى؟ سراب خـادع انجذبـت إليـه نفسـي الظمـأى أو كذبـة صفـراء أشـاعت وهـم الـدفء في جسـدي؟! كان يغرينـي دائمـا ذلـك الاسـترخاء اللذيـذ إلى جانبهـا، حيـث يـذوب اللسـان وتتـلاشى اللغـة ويبقـى ذلـك الشـعاع الأرجواني الصـادر مـن جسـدها هـو الحقيقـة الوحيـدة في الوجـود!

فيمـا كنـت غارقـا في تأملاتـي، دخلـت فتـاة في نهايـة العقـد الثالـث مـن عمرهـا كمـا رجحـت، بقـوام رشـيق نحـت بدقـة بالغـة، وثديـين كحصـان جمـوح يقـود عربة الشـهوة المشـتعلة في صدرهـا، نظـرت إلي بصرامـة، ثـم مـدّت إليّ يدهـا مصافحـة فجذبتهـا بقـوة إلى السريـر، هكـذا علمنـي عبـد الرحيـم زمـن الطفولـة، قـال لي: «عليـك أن تكـون عنيفـا مـع المومـس، ولا تخـرج مـن فمـك إلا الـكلام البـذيء، خاصـة في البدايـة.. في أول لقـاء، لترهبـك وتلبـي رغبتـك كاملـة دون غـش، ولا تأخذهـا بالرفـق والملاينـة، فالمومـس تحـب وتمـوت في مـن يعاملهـا بقسـوة، إنهـا لا تُؤخـذ إلا عنـوة»!

تملّصـت مـن قبضـة يـدي وهـي تتفـرس ملامحـي بنظـرة لا تخلـو مـن تهكـم.. تحـررت مـن حذائـي ووضعتـه تحـت

السرير، ثم نزعت جواربي، لففتها على شكل كرة وقذفتها بقدمي، فحضرتني تفاصيل شائقة الزمن الصبا.

«كنا نصنع كرة القماش ونتقاذفها في الدرب، يعلو صياحنا فتطردنا مي عيشة التي اتخذنا من أعمدة بابها المقوس زاوية أهدافنا، مرة وضعت حجرة وسط جورب وأحكمت شده بخيوط الخيش، وعندما رأيت طوبة قادما، أخذنا - أنا وعبد الرحيم- نتظاهر بصراعنا حول قذف الكرة، فصرنا نتجاذب بعنف وندور حولها دون أن نمسها فجرى طوبة نحونا مهرولا، وقذف كرة الحجر بكل جهده حتى آلمته قدمه، من يومها امتنع عن تسليمي قطعة السكر لحلق رأسي.. إذ كنا نحلق رؤوسنا، في خيمة رجل كهل يقايض عمله بقطعة سكر كان يجليها مصطفى من منزلهم، ونجلس في ركن الزقاق لنقامر بالنقود التي سلمها لنا آباؤنا للحلاقة.. امتنع مصطفى عن تسليمي قطعة السكر فوشيت به لأبناء الجيران، وذهبنا إلى السوق حيث وجدناه في خيمة الكهل الذي كان يجز شعره كالخروف، ومن يومها، أصبح لقبه «طوبة»، نسبة لطوبة السكر التي كان يقدمها للحلاق!»

استغربت للسرعة التي اندمجت فيها مع سعاد، وكأن ربيعة اختفت في غياهب النسيان، فسألتها مستطلعا مزيدا من الأخبار عن ربيعة، كنوع من الحضور، كي تحس على الأقل وهي هناك أن صالح لم يخنها، رغم أني كنت متيقنا أنني ما أن أغلق باب غرفتها ورائي حتى

تمنح جسدها- حتى قبل أن يجف فرجها- لتلك الجرذان التي كانت تقضمها وتنهش جلدها.. لم تستجب سعاد فسألتها:

- لم أرك من قبل هنا، من أي بلدة أنت!

- أنت جايْ باشْ تْ.. واللاّ تْدير لي الحالة المدنية!

قالت ذلك برعونة فرشقتها بنظرة غاضبة، ثم لعنتُ الشيطان.. اشتبكت نظراتنا فأدركت أن هذا المشكل سيحل فيما بعد ببساطة مشكل البدايات دائما هكذا. كانت قليلة الكلام، ولاحظت كأنها تخفي أسرارا لا تريد البوح بها لأحد، ورغم أنها أوعزت لي بأنها ساذجا فإنني لم أصدق ..

امتد بنا السمر، فاستوت سعاد على الفراش، أمسكت بقدح الشراب ونفثت دخان سيجارتها في وجهي وتحت إلحاح أسئلتي قالت بصوت رقيق:

-أنا من مدينة خريبكة، اجتزت امتحان الالتحاق بالتعليم الثانوي وهناك في ثانوية القباب تغير مسار حياتي، حيث تعرفت على شاب عشقته بقوة، كان أول رجل يطأ مساحة جسديا أنا لم أبدا لك من ذلك الوادي السحيق للطفولة وتشعبات المسار، لأني أعتبر هذا هو الحدث الأساس الذي شكل انعطافا في ارتباطي بجسدي وبالعالم وبالآخرين.. ليس مهما الآن، وبعد كل ماكان، أن أعيد على مسامعك كل

مـا كان بيننـا.

ثــم سرحــت بعيــدا ورجتنــي بإشــارة مــن يدهــا أن أصــب لهـا كأسـا ففعلـت، أحسسـت أن شرك الحكـي قـد أتـم نصـب حبالـه، عـلي فقـط ان أعـرف كيـف أمـد مـن دائـرة الحكايـة وان لا أضيــق ذرعــا بالتفاصيــل التــي تــؤدي إلى متاهــات مضللـة، فكـرت: لا سـلطة تعلـو الليلـة فـوق الحكـي، ليـس أي حكــي، إنــه سرد المــرارة التــي ترقــد في قــاع العتمــة!

-كان حنـا بنمـو في مدينـة تحـاصر الحلـم والحـب، فلـم نكـن نلتقــي إلا في الــدروب المعتمــة، أخلــق ألــف حجــة لأخــرج مــن المنــزل مرتديــة جلبابــا فــوق جســد بغــلي كالمزجــل، جلبابــا اســود سرعــان مــا كنــت أزيلــه عنــد جارتنــا وألبــس كســوة، وعندمــا أعــود ألبــس الجلبــاب وأتــرك الكســوة عنــد جارتنــا!

ضحكت سعاد ثم قالت :

- اشْتــي المْــراة إلى نْــوات شي حاجــة مــا يغلبهــا حتــى شي واحــد، واللــه وخّــا تْديرهــا في صنــدوق بســبع قفــال، وترميــه ســارُوتو في البحــر؟

كانــت العبــارات تتدفــق مــن فمهــا متألقــة رغــم حســيتها، تسـيل كشـلال تحـدث مياهـه إيقاعـا موسـيقيا رقراقـا، فلـم أعلـق عـلى حديثهـا، أخـذتِ نفسـا مـن سـيجارتها وواصلـت:

- نمت علاقتنا وازدادت رسوخا، لكن والديه عارضا زواجنا!

فانتصــب الجــرح العميــق مــع نزهــة، ذلــك الجســد المطــرز

بالـورود الـذي انتـشر كالأغنيـة في شرايـين قلبـي ففتـح مقلتـي عــلى حلـم مزيــن بآيــات اللــذة، كنــت أحــس أنــي طلّقــت العالــم كلــه مــن أجلهــا وكابــدت كل العوائــق مــن أجــل علاقــة حــب محصنــة، كنـت أود لـو تسـتبقيني إلى الأبـد بعيـدا عــن صــلات القرابــة العشــائرية، وتُصرفنــي بعشــقها عــن الانكســارات الكـبرى كمــا صرفــت كليوباتــرا القائــد الرومانــي مــارك أنطونــي عــن محاربــة القيــصر!

«كانــت نزهــة طالبــة جديــدة في شــعبة الأدب الإنجليــزي حــين كنــت في الســنة الثالثــة، كنــت مــع جماعــة مــن الرفــاق نرشــد الطلبــة أثنــاء التســجيل.. حامــت حــول نزهــة الشــكوك فأحيطت بحصــار قاتــل دشــنته أعــراف ثقيلــة لتحصــين الــذات وحمايــة التنظيــم مــن التــآكل والاخــتراق، أصبحــت نزهــة معزولــة لمجــرد أنهــا تكلمــت خطــأ مــع أحــد أفــراد الحــرس الجامعــي «الأواكــس»، ويــوم التقيــت بهــا في البولفــار، لــم أســتطع أن أهــرب مــن عينيهــا إذ فاجأتنــي:

- صالح، من فضلك، أريد التحدث إليك !

أُصبـت بوجـوم، التفـتّ حـولي في اضطـراب، فلاحظـتْ ارتباكـي.. اتفقنــا عــلى زمــان ومــكان الموعــد، ومــن يومهــا نشــب داخــلي صراع حــاد إذ ظللــت مــترددا بــين نــداء القلــب ونــداء الواجــب وفــاء للأعــراف التــي كنــت أحــد حراســها، كنــت أحــس بنــداء بعيــد يســتثير كوامــن نفــسي ويشــدني إلى نزهــة، ومــع ذلــك تجشّــمت المعانــاة إلى أن أصبحــت نزهــة جــزءا مــن فصيلنــا، وقطعــة مــن ذاكرتــي ومــن تلــك الأحــلام التــي كنــا ننســجها

على هامش الواقع، لكن ما أن وارتني قضبان السجن حتى اختارت مسارها في أول منعطف استرجعت فيه حريتها، إذ تقدم لخطبتها ابن عمها، موظف في الجمارك، فاختارت حياتها بعيدا عن الغياب الضاغط!»

أخذت سعاد تذرع الغرفة، سقيتها كأسا من النبيذ ووثبت من السرير واحتضنتها بين يدي، تطلعت إلى عينيها اللتين توسعان دائرة الفتح في جسدي، أُبحر في تموجات شوقهما الجميل مستكشفا شعابا خفية، ثم توددت إليها متضرعا أن تجلس، كانت تحملق في الغرفة وكأنها تكتشف أسرارا لأول مرة :

- لقد أصر على علاقتنا فهربت معه.. كانت أياما جميلة ربما من أسعد أيامي على الإطلاق، وفي يوم ربيعي اشتقت إلى أسرتي إذ لم أستطع قطع حبل السّرة معها.. اتفقنا على الخطوبة، وفي الطريق إلى المنزل وقعت المصيبة !

صمتت بغتة، كان النور يلمع في عينيها كشلال، مررتْ قفا يدها اليسرى لتمسح حبات الدموع التي انسكبت على خديها، ورغم أني حاولت أن أتشاغل عنها، فإن لسانها لم يتوقف عن الحكي.. كنت أنصت بغير اهتمام أحيانا، لعلها ستظل تردد على مسامعي هذه الحكاية، كأنها تستظهر درسا حفلته عن ظهر قلب، لن أستغرب قصة مخدومة وجاهزة للعرض في كل حين، خاصة من طرف فتاة بئيسة، مثل سعاد، ولم تكن الدموع لتخدعني،

دمـوع التماسـيح لنهـب عواطـف الزبـون، اسـتدرارا للعطـف والتعامـل الإنسـاني وابتـزاز النقـود: «هــات نقــودا وخــذ حكايـة».. ولكـن ثمـة شـيئا غامضـا شـدني، فأحسسـت برغبة لا تقـاوم في اسـتدراج سـعاد إلى التضاريـس الشـهية للحكايـة سـكنت لهـا كأسـا مـن الـرّوج، شربتـه دفعـة واحـدة وواصلت بلهجـة وديعـة أقـرب إلى الاستسـلام:

– اصطدمت سيارة الطاكسي بشاحنة.. فمات جمال !

– هـذا هـو اسـمه، فلنـشرب نخـب جمـال الـذي عانـق المـوت مـن أجلـك !

ظلـت تتكلـم عـلى سـجيتها، ولسـت أدري كيـف غمرنـي إحسـاس غامـض بصـدق أحاديثهـا، فملـت بـرأسي لأكتشـف ملامـح وجههـا خـارج أي تأثـير.. وبطريقـة لا يمكـن تخيلهـا شرعـت في البـكاء، لـم أسـتغرب هـذا المشـهد وذلـك لكثـرة مـا سـمعته مـن قصـص البغايـا، وفكـرت: (اسـمح دائمـا للنـاس أن يكذبـوا قليـلا، هـذا شيء بـريء، بـل اسـمح لهـم أن يكذبـوا كثـيرا، فأنـت بذلـك تبرهـن أولا عـلى رقـة شـعورك، وأنـت بذلـك تحصـل ثانيـا عـلى حـق الكـذب أيضـا).. بالحكـي نـبرأ مـن آثامنـا، ونجلـب الغفـران لأخطـاء ماضينـا، حتـى لتبـدو حكاياتنـا مثـل التمائـم والنـذور التـي نقدمهـا قرابـين لآلهـة ننتظـر ثوابهـا.. بالحكـي نُشـفي مـن هزائمنـا، نقتـل النـاس ونحييهـم، فللحكـي سـلطة لا متناهيـة في مسـالك حياتنـا!

لا يهمنـي الآن، إن كانـت القصـة حقيقيـة أم وهميـة مـن نسـج

خيال سعاد، فالحدود بين الواقعي والوهمي تتداخل وتتشابك في تفاصيل صراعنا اليومي، ولكنني أتدبر أمري فيما لو انطلت علي حيلة طوبة ووقعتُ أيضا فريسة الحكاية التي أراد أن يجعلني موضوعا لها، فصرت أتيه في مساراتها على غفلة مني! ظل نحيبها يجرح الصمت الذي انتشر في الغرفة، احمرت عيناها إلى حد الاحتقان فاستيقظت داخلي ندوب زمن وشم خطوطه كسكّة محراث على الذاكرة والقلب، ذكريات حب ضائع وبطولة مهزومة، تلك اليوتوبيا الحالمة التي انهارت تحت رؤوسنا، حجم الانكسارات الموجعة، فوضى العلاقات والدروب، زمن تساقط الأوراق والألوان وذلك الرعب الأسود الذي يستيقظ فجأة في النفس. قلت لسعاد لأشجعها على الاسترسال بفضول من يريد أن يعرف كل شيء:

- لكل منا جراحات عميقة، فلا تقلقي.. لكن كيف كان موقف الأسرة؟

قالت بنبرة يائسة:

- أعددنا كل شيء، استدعينا بعض أفراد العائلة والجيران، وظل أبي يبتسم من عينيه إذ كنت آخر بنت ستتزوج، وبذا سيغيب العار ويرتاح الأب من مصروف فرد من العائلة.. ظلت عيناي معلقتين ببندول الساعة، أدور مع دورانه، بدا الوقت بطيئا، ولم يأت جمال! فانقلبت لحظة الاحتفال إلى ما يشبه المأتم، ظننت أنه خدعني،

فأخذ جرح الكبرياء يتسع داخلي.. أنت لا يمكن أن تشعر بجرح ليلة كتلك، لن تفهم أحاسيسي لحظتها، ببساطة لأنك لست امرأة!

بعد أسبوع جاءت أخت جمال تُقيم مناحة في البيت، تنزل على شتائمها وتلعنني لأني برأيها كنت السبب في موت أخيها.. انهارت قواي، وأحسست بالفجيعة حتى أن الأرض كانت تميد تحت قدمي، تمنيت لو أنها انشقت وابتلعتني إلى الأبد، فسقطت مغمى علي، ولم أعد أعي شيئا من حولي حتى فتحت عيني على البياض ورائحة الدواء، إن مجرد التفكير فيما حدث يثير اشمئزازي!

ارتسمت على محياها علامة جد وصرامة، فتأملت عينيها أستجلي حقائق تمدني بحجة واحدة أُكذب بها ما كانت تقول.. «لماذا تقلب المواجع على الناس، عليك اللعنة يا صالح، لا تستطيع أن ترتاح حتى تنتحل سباب المحنة للبشرية المتألمة، تستنبط حكايا طازجة من أعماق الجراح! لماذا تلم الأشياء المبعثرة في خنادق الذاكرة، لماذا تقض المضاجع وتوقظ الاضطهاد السابح في ملجأ الروح».

– كان أبي شخصية قوية وعنيفة لذلك سجنني درءا للفضيحة.. مرت أسابيع قليلة بعد هذا الحادث، فبدأت أُصاب بالدوخة وانقطعت عني العادة الشهرية لم أكن أعرف شيئا عن الحمل، لأن الحديث في مثل هذه الأمور كان محرما في بيتنا، أتذكر أول مرة، جاءتني العادة الشهرية،

أحسســت بســائل دافــئ يتدفــق بــين فخــذي، صعــدت إلى سـطح الـدار فرأيـت فيضـا مـن الدمـاء، صرخـت مذعـورة وكـدت أجـن إذ خفـت أن أكـون فقـدت عذريتـي بـل اعتلانـي رعـب المـوت، تصـور أنـي اعتقـدت أن المـوت يأتـي مـن نفـس المصـدر الـذي تأتـي منـه الحيـاة!

ثم أشارت إلى ما بين فخذيها:

- من هذا.. الذي لولاه لما كنت أنتَ هنا!

وأغرقت في ضحك لم أملك معه زمام أمري فجاريتها:

- أختـي هـي التـي هـدّأت مـن روعـي فيمـا بعـد، لولاهـا لكنـت ارتكبـت في حـق نفـسي حماقـة! كنـت قـد شرعـت في البـكاء وبـدأت أظافـر الألـم تنغـرز في بطنـي، ألتـوي وأصرخ.. بعـد سـاعات مـن الحـيرة، ستكتشـف حقيقـة الأمـر وقـد اسـتغربت ضحكهـا: «هـا أنـت قـد أصبحـت إمـرأة!» قالـت ذلـك والابتسـامة لا تفـارق شـفتيها، هـو ذا إذن: تخيـل ولادة امـرأة تبـدأ بالـدم، ويبـدأ كل شيء بالجـراح: البلـوغ، متعـة الجسـد، الـولادة... ومـع هـذه المـرأة التـى أصبحتهـا أنـا، بدأت المحرمـات تنسـج خيوطهـا مـن حـولي، وعلاقتـي بجسـدي تـزداد توتـرا، فيمـا أخـذت الوصايـا السريـة تكـر كحبـات السـبحة: مفاتـن الجسـد، العـورة، البـكارة، حـق الشـهر، عـين الرجـل، الحـذر...

ركـزت انتباهـي في غـلال جسـدها، فانتبهـت: «إلاهـي، لمـاذا

تُغرقني التفاهات وأترك الدقائق تفر من أصابعي، ما شأني بهذا التاريخ الشخصي الذي يطفح بالمرارة؟! أحسست بأجنحة الرغبة تستيقظ داخلي ببطء عابرة شعاب جسدي، لم أعد سيد قرارات أعضائي لكني فكرت: ستبقى الحكاية مبتورة وبدون نهاية، هل تنتهي الحكاية فعلا؟ أليست هي التي تستدرجنا إلى مواطئ اللعب في رحلة الغواية؟!»

تأملت سعاد لحظت رغبتها في إتمام حكايتها فأخذت عيناي تستحثانها على المزيد:

- أدلي باعترافاتك وسوف تشفين من جميع خطاياك، ما سلف منها وما لا يزال متربصا بك في منعطفات الدروب.

- خفت من الفضيحة فحاولت الانتحار مرتين، وذات يوم تسللت إلى بيت جارتنا التي كنت أأتمنها على أسراري وكانت توصل الرسائل بيني وبين جمال، كانت مرسول عشق لم يُبرعم.. فأشارت عليّ بمجموعة من الأعشاب، لكن الأمر لم ينفع، إذ ظل بطني ينتفخ والجنين يتمطى في رحمي، مزروعا كبذرة تنمو فينمو معها إحساسي بالخوف، فقررت مغادرة الأسرة، إذا لم تخني الذاكرة فقد كنت حاملا بأربعة أشهر، ذهبت عند كل الصديقات، لكن لم يكن يستقر بي المقام عندهن أكثر من يومين أو ثلاثة على الأكثر. بدا الجنين يتحرك في أحشائي متشبثا برحم الحياة مقاوما الموت، ومع نموه أخذ إحساس الأمومة

ينمـو داخــلي، دبّرت أمــري للوصــول إلى بنــي مــلال وهنــاك انفتــح جســدي للمســة أول رجــل بعــد جمــال!

توقفــتْ قليــلا ثــم هــزت رأســها وتابعــت بصــوت أكثــر وضوحــا:

- تصــور يــا صالــح، لــم أفكــر يومــا في أنــي ســأجد ذاتــي وجهــا لوجــه مــع هــذه الوقائــع.

خفضــت رأســها فتوقفــتُ عــن الســؤال، أشــعلتُ ســيجارة ووضعتهــا بــين شــفتيها، أحسســت بغيمــة مراوغــة توزعنــي عــلى أوتــار الشــهوة فأســندت هاويتــي عــلى جســد ســعاد.

الخميس 13 ماي

أكثــر مــن أســبوع وأنــا جــاث فــوق سرير الفــراغ، مبعثــرا أشــهد عــلى أقــصى حــالات انكســاري، في لحظــة تنهــار كل الأقبيــة التــي ظللــت أشــيدها مــن خيــوط الوهــم، أحــس برغبــة في البــكاء، أريــد أن أســكب كل دمــوع الدنيــا عــلى جســدي لأتطهــر مــن ذنــب لــم أقترفــه، لا أســتطيع أن أتمــم الســفر في هــذا الــسرداب الــذي يناصبنــي العــداء وأنــا لــم أكمــل عامــي الأول.. مغلوبــا عــلى أمــري ظللــت ممــددا فــوق اللحــاف، أحــس بالملــل يقضــم أجــزاء روحــي شــظية شــظية، لقــد فقــدت درجــة الحيويــة المطلوبــة لمواجهــة هــذا البــؤس الــذي ينتــشر مــن حــولي كالأخطبــوط، كأن تورطــي في الوجــود يــزداد عمقــا

نحــو هاويــة حتميــة، مثــل قــش يابــس أجرجــر خطواتــي المثقلــة برغــام الفــوضى وريــح الهزائــم، فأحــس أن الأمــور التــي نبخســها حقهــا هــي التــي تغــدو خفيــة أو جهــرا موطــن آلامنــا، توجــه دفــة مصيرنــا بالشــكل الــذي تريــده!

عزيزي طوبة:

أكتــب إليــك وأنــا طريــح الفــراش بجســد مكــدود وعينــين متورمتــين عــدا الجــروح المختلفــة الألــوان والأصبــاغ.. وأنــت تقــرأ هــذه الســطور ســتصلني قهقهاتــك الخبيثــة، تظنهــا إحــدى شــطحاتي، وستســعفك ذاكرتــك المتقــدة دومــا للعــودة إلى الــوراء.. يــوم دخلنــا جنــان عبــد القــادر المعــراج لنــسرق التــين وفررتــم عندمــا هــبّ مسرعــا عــلى حــين غفلــة، صرختــه المدويــة ترجــع كل الأنحــاء صداهــا، حيــث بقيــت معلقــا مــن جيــب معطفــي بغصن شــجرة، وهنــاك أشــبعني لكما ورفســا.. أو يــوم صعدنــا الجبــل المحــاذي لعرصــة خالــك كــي نصطــاد العصافــير التــي كانــت تحــجّ إلى هنــاك، أسراب مــن العصافــير كانــت تُتلــف رشــدي وتُســيل لعابــي، جريــت وراءهــا دائخــا كالمخبــول، أنظــر إليهــا نظــرة تيــه وإعجــاب كأننــي أريــد أن أقفــز معهــا إلى الســماء.. يومهــا عتــتُ فســادا في كــروم العرصــة، شــكوتني لخالــك، فتربــص بــي وأطعمنــي علقــة لــن أنســاها مــا حييــت، إذ لازلــت حتــى اليــوم أتلمــس قدمــي التــي اشــتعلت حــرارة تحــت لهيــب قضيــب الزيتــون!

إن الأمــر ليــس ممتعــا إلى الحــد الــذي يمكــن أن يخطــر ببالــك،

ولأريحك من تعب التخمين أقول لك، إن كوكبة من اللصوص اعترضت طريقي وحاولت تجريدي من ثيابي، فكان ما لقيته من هؤلاء أشد قسوة على نفسي مما أصابني من جلادي أمس، وأنا الذي أتعبت بدني فيما يسر إخوتهم، وسهرت الليالي مستغرقا فيما يفيد أبناء بلدتهم، إذ لم تمل نفسي إلى الضحك على ذقونهم، وها أنا أجازى على سهري وأنال الجزاء على تعبي!

لقد وقع الحادث في نفسي حتى صرت أغالب طبعي وأرثي لحالي، وأخاف من كل شيء من حولي، ورغم أنه ليس من كل الأشياء تجب الهيبة والتطير، فإني غدوت لا أقدر إلا على طلب الأمان وتسليم رجال البلاد، إذ من ذا الذي يستطيع أن يُغالب قدرة، ويعالج بابا لا يملك بيده مفتاحه!

الفقيه صالح البشير

السبت 6 يونيو

غادرت الحانة بأزيلال ولم أشعر إلا وأنا أقف أمام منزلها، نقرت الباب فبهتت لما رأتني:

– اعتذر، هل يضايقك وجودي؟

فاستدركت بحيرة وفرح :

– العفو.. تفضل، ادخل!

جلت ببصري أتأمل أثاث البيت الذي بدا رغم بساطته منظما بشكل ينم عن ذوق رفيع، فبادرتُ معلقا:

- أثاثك جميل، وأحسدك على هذا التنظيم.

- أفهم من هذا أنك تعيش حالة فوضى ؟!

- أحيانا، خارج النظام القاهر الذي يخلق الرتابة في كل شيء.

انفرجت شفتاها عن بسمة محت حزني وتوارت في المطبخ بخفة النسيم، ترصدت خطوتها في المشي: شكل انعطاف القدمين، استدارة الفخذين الممتلئين وسائر الأعضاء، استغرقتني لحظة لذيذة فتخلصت من خجلي وترددي واسترخيت وسط الأريكة.. أحسست بربيع الحب يستيقظ في دمي، وتتفتح شرايين قلبي على أغنية جديدة تغذي أحلامي، اسمها: مليكة النشيدا!

عزيزي طوبة:

اعلم تولاك الله بحفظه وأعانك على شكره، أن النفس تنشرح لمن تهوى، والبال يهدأ عند من في ذاته تفنى، إذ مشاهدة المحبوب هي أعز مطلوب، ومليكة ليست امرأة عابرة ككل النساء كما وصفْتَ في خطابك، وإني لمجد في حبها بعد أن آنست بها وآنست بي، فليس لعيني عند غيرها موقف، لقد أغرمت بها إغراما شديدا ملأ شغاف قلبي، فطابت بها نفسي، وقرت بها عيني.. لن أستطيع

أن أحدثـك عـن السـحر الهاجـع في ابتسـامتها، والسـر الكامـن في عيونهـا وعبـير صدرهـا، ولا عـن لطائـف كلامهـا وجلائـل أعمالهـا، إذ علقـت نفـسي بهـا فمـلأت العـين حسـنا، وأضفـت عـلى نغمـة حياتـي سرورا، فلـم تعـد سـاعة مـن السـاعات أحـب إلي ولا آثـر عنـدي مـن سـاعة أتوحـد فيهـا مـع بدنهـا، أفـترش غدائـر شـعرها، وأتمـدد في جنـان رياضهـا، وأسـبح في ملكـوت شـواطئها.. لقـد شـفيت نفـسي مـن أسـقامها عنـد مرآهـا، وظلـت تشـتعل في قلبـي جذوتهـا. عندمـا أرد مناهلهـا وأشرب مـن زلال مائهـا الـذي يتدفـق في أسرار الغـرار كالخمـور المعتقـة في الجـرار، أحـس بنشـوة تعيـد إلى قلبـي ذخائـره، وتـرد الخـضرة إلى حقـلي المنزوعـة غلالـه، فتهبنـي أسرار كنـوزه!

لمـا زرت المسـتوصف لأتـداوى مـن آلامـي، أحسسـت أنـي أفتـح جراحـا جديـدة، أدْوم أثـرا وأبقـى وشـما، فغـدوت كالمسـتجير مـن النـار بالرمضـاء! إذ حاصرتنـي عيناهـا حتـى بـدا مسـتحيلا أن أفـر مـن حبائـل شـباكهما. كانـت متوشـحة بألـوان زاهيـة مـن الطيـب والصبـاغ، وبأنـواع مختلفـة مـن الكسـاء والحـلي.. اهتمـت بـي اهتمامـا خاصـا، فـصرت لا أشـكو همـا ولا أنـدب حظـا!

عزيزي طوبة:

لقـد وجـدت عنـد مليكـة صبوتـي، فغـدوت كلمـا ألّمـت بـي الحاجـة وتاقـت نفـسي لمرآهـا، أقصـد مزارهـا فأجـد لنفـسي

مخرجا من ورطتي.. ومما يزيدني في التقرب منها كثرة ما تعرض لها من الفطنة الثاقبة والرؤية الصائبة، والأريب لا يستأنس إلا بمن إليه يستكين.. ومليكة هي أنيسي التي لملمت تصدع ذاكرتي، وسترت نفسي من لفحة الرمضاء وهبة النكباء!

الفقيه صالح البشير

انتهى ما جاء في باب «ذكر ما يعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف كان قبل الخصاء»

باب في «ذكر بعض آثار الرحلة وقرب المآل»

«وتقـول بعـد كل هـذا العمـر: «اصـبر يـا صالـح، فالصـبر مفتـاح الفـرج، والأنبيـاء والرسـل غنمـوا بعـد عنـاء طويـل». وهـا أنـا الرسـول المبجّـل أنـزوي في ركـن محجـوب، وحيـدا في غربتـي، أجلـس كاليتيـم في ضنـك وضيـق، ولا أدري كيـف أدفـع عنـي أعظـم الرزايـا والبلايـا، أتوحـد بصمتـي لتتضـح هاويـة الطريـق أمامـي وأداري إحسـاسي بالفجيعـة وجـراح الـدروب المشـتبكة. أحتـاج إلى نافـذة شـاغرة، أعيرهـا غيابـي الطافـح بزفـير الكتابـة، نافـذة مشرعـة عـلى كل المهاوي أدغـدغ بشراشـفها هواجـس قلبـي».

من «رسائل صالح»

استيقظ صالح باكرا كمن كان على موعد يحدد مصيره، توجه إلى الخابية ورشق وجهه بحفنات متتالية من الماء، ثم ارتدى معطفه وقصد مكتب القباضة بآيت بوكماز..

- أهلا سي صالح. قال موظف القباضة مرحبا.

صافحه بحرارة وهو يواصل كلامه:

- كنهاية كل شهر،اليوم عيد .. أه!

فرد صالح مازحا:

عيد بأية حال عدت يا عيد بالراتب القديم أم بيقشيش جديد!

ضحك الموظف حتى أبان عن نواجذه، وظل يخبط بيديه على المكتب مستطيبا كالعادة مزاح صالح، ثم أخذ يعد النقود وعينا صالح لا تفارقان حركاته، يضع سبابته على شفتيه يبلها بريق لسانه، ثم يفرك إبهامه بسبابته ليسهل عليه عد الأوراق.. بدافع خفي لم يفسره إلا فيما بعد، رجا صالح الموظف كي يقدم إليه كل النقود من فئة أوراق عشرة دراهم، فلم يعارض الرجل رغم ما بدا على وجهه من استغراب، وبنفس الحركات السحرية أخذ يعد النقود.

تسلم صالح أجرته وقفل عائدا إلى البيت، أي شيطان يهمس في أذنيه: «**فلتتمتع براتبك كاملا،عدا ونقدا ولو مرة واحدة على الأقل، فمنذ خمس سنوات لم تستطع الدخول إلى المنزل براتبك كاملا**»، لذلك قرر أن يؤجل تسديد ديونه وشراء حاجيات، ليسعد لحظة براتبه كاملا غير منقوص.

في الطريق مر به أخو مصطفى العزوزي بعربته، سمع من بعيد صياحه فصعد معه العربة.. علق مسمار صدئ بثوب سرواله، فتمزق: «**لا بأس،علي أن أرتقه بيدي كما رتقت خيوط أيامي في جحيم قرية مسورة بالجوع والفقر والجهل والمرض!**»

دخل صالح الغرفة وأقفل وراءه الباب ثم أشعل شمعة وأخرج النقود التي وزعها على جيوب المعطف والسروال، بدت له حزمة كبيرة عن المعتاد، داخ وهو يشم رائحتها.. تمدد على الفراش وأخذ ينتشي برؤية الأوراق الصماء أم البلايا وجالبة الفتن، كانت منتشرة فوق الطاولة بألقها الساحر فراودته فكرة استسلم لحمى غوايتها، بدأ ينثر الأوراق على سريره واحدة بمحاذاة الأخرى كمن يقوم بقداس ديني، ثم اتكأ على طرف السرير وأخذ يعد الثريات الممددة على صفحة غطائه كالفراشات البهية باحثا عن السر الملغز وراء الربح والحرب ! لحاف من النقود، تمدد فوقه فطافت بذهنه صور الراقصات والشيوخ ذوي الرؤوس المعصوبة ينثرون أوراق الدولار

عـلى جسـد الراقصـة ثملـين تحـت وطـأة الخمـرة وإيقـاع هـز البطـن عـلى الواحـدة والنصـف، ومـن الألـق البعيـد لتعرجـات الذاكـرة اندسـت صـورة جـده في المشـهد الاحتفـالي ومعـه طيـف الصبـا.

«لـم يكـن جـدي مجـرد صـوت يتيـم، كان ذاكـرة لوحـده، بـلا حـدود يحكـي عـن الوجـع السـاكن في الريـح وعـن الخطوط العميقـة لمسـارات الوهـم، حتـى أكمـام الحـزن التـي تتفـق كالجـرح وتترجـل في الشـارع تتحـول في حكاياتـه إلى أجنحـة تنقـل خطواتـي إلى حقـول مضيئـة! اسـتمر جـدي يحدثنـي عـن ذلـك الإنجـاب الصعـب لزمـن عـار مـن التشـوهات، كان العقـم أشـبه بعاهـة وجوديـة، مـا ينقـص كينونـة الذكـورة، بالإنجـاب يكتمـل البهـاء! وجـاء الأب وجئـت أنـا، لكـن نزهـة لـم تبـق معـي لننجـب تلـك النبـوءة المصـادرة، أقصـد ذلـك الكائـن الحـر الـذي يقـرر مصـيره الوجـودي ويرتبـه بالشـكل الـذي يختـاره!

كان جـدي يجلسـني فـوق ركبتيـه ويكـرر على مسـامعي، بعـد رزمـة مـن الحكايـات، حكمتـه الباليـة: «وسـخ الدنيـا يبقـى فيهـا».. أينـك يـا جـدي، طـل بوجهـك الصبـوح مـن وراء اللحـود وعتمـات الصمـت الأبـدي، قـم لـتر حفيـدك يتوسـد وسـخ الدنيـا. لقـد غشـوك يـا جـدي الجميـل ببلادتـه، قالـوا لـك: لا تشـتغل بهَـمّ الدنيـا ووسـخها وفعلـت، وهـم ابتلعـوا وسـخ الدنيـا دونـك.. انظـر إلى وجوههـم الرخـوة البيضـاء وانظر إلى ابنـك الـذي أرضعتـه حكمتـك البلهـاء.. هـا هـي الدراهـم المعـدودة كـوت جبهتـه ووجهـه، هـو لـم يكنزهـا ولا حتـى تـرك

للمرأة الكسيحة ما تسد به الرمق من هذا الوسخ ! وانظر إلى حفيدك الذي لا يستطيع أن يشيد معك طقوسا خاصة للوهم الذي نشأ مع ابنك.

جدي الأعظم، دعك متسربلا بحكمة لقمان، واتركني أعانق ما يخيل إلي مال قارون؛ فنحن قطبان متنافران نتباعد مع كل خطوة في رحلة الأنبياء التي نعبرها!»

هذه الحالات الغريبة من الهذيان التي أصبح صالح يعيشها وسط القرية، هي ما سأحس بها أكثر كآبة في رسائله، كتب إلي يقول بعد أن انقطعت عنه الأجرة أكثر من خمسة أشهر:

أيها الفاضل المحترم الأنيس الصاحب، إن الزمان دار دورته، والفلك السيار هوى نجمه، فلف حول هامتي حيزبون الغم والهم، حتى أني صرت أحاسب نفسي على ما قدمت وما أخرت، لقد تبددت أوهامي من فرط الآلام والأهوال، تتذكر كيف كنا ننشد ضالتنا فيما يسد الرمق، كنا نظن أننا بالانخراط في الوظيفة سنستغني عن الكدح فيما نقوم به من أمر معيشتنا وما نقيم به أودنا، لكن هيهات، فبعض الظن إثم، ثم إن الظن لا يغني عن الحق شيئا!

لماذا يصر الوصيون على تعذيبي على رؤوس الجمع والإشهاد، وما اقترفت عارا ولا شنارا، ولا ارتكبت جرما أو

أفشيت سرا.. وما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا بسوء التدبير وسوء النظر في العواقب والمعاطب، وبُعد ذوي الحل والعقد عن التفكير في أحوال الأمة بما يصلح نشأها، ويعلي شأنها، ويُقوّم سبل رجالنا، ويؤدي بالبلد إلى الأمام إلى ما فيه خير الأنام!

(...) وعلى جملة الأمر، فإن كل أحلامي تتطاير كالزّؤان بعد أن منَّيتُ نفسي بأمل خادع، فطيلة هذا الشهر وأنا أتردد على أبواب الوزارة، أسأل عن أجرتي التي انقطعت عني، حتى لقد ابتلعتني سراديب الإدارة ودهاليزها، ولا أحد نَوّر لي البال.. ولمّا نظرت فيما عنّ لي من حال، وتغلغلت فيما لاح لي من مآل، قصدت الوزارة صارخا فصدني البواب، وغلقت أمامي الأبواب، ولججت في السؤال لكني رأيت حاجتي بعيدة النوال، فملت إلى حذر، وتصنعت المداراة إذ أقسمت ألا أخرج من المكان دون ظفر، فأربأت نفسي عن الصراخ والعويل، ثم حاولت أن أخذ الأمر بالاستعطاف واللين، خمنت أنه لإعادة حقك، لا بد لك من إضمار حقدك وإظهار نبلك.. وحاولت أن أدهن السّير ليسير على رأي حكماء هذا العصر وجهابدته، فجاءني الخبر اليقين بأن ورقتي الصفراء قد اختلفت معي في الطريق، وتكون قد وصلت إلى أزيلال !»

الفقيه صالح البشير

***

كل أمـر جلـل يتحـول وسـط هـذا القفـر إلى مجـرد مفاجـأة سـخيفة، وكل حـدث صغـير مهمـا قـل شـأنه يتحـول إلى مـا يشـبه الصيحـة.. كانـت السـنة تـشرف عـلى نهايتهـا ولـم يعـد التلاميـذ يلتحقـون بالقسـم لأنهـم يفضلون مسـاعدة آبائهـم في شـؤون الرعـي والحصـاد عـلى التحصيـل والـدرس، ازدحمـت رأس صالـح بأخيلـة محزنـة إذ بـدأ يتحسـس أي مصـير ينتظـره عنـد أول منعطـف، ويفكـر في السـبيل الـذي يـؤدي بـه إلى العـودة مـن هـذه المغامـرة بأقـل خسـارة ممكنـة !

كان صالـح دائـم التحـرك لا يحـب أن يشـعر باحتبـاس الجسـد وهـو شيء لازمـه منـذ الطفولـة، أتذكـر تلـك العطلـة الصيفيـة، توسـل صالـح للمعلـم لحسـن، شـاب في العقـد الثالـث مـن عمـره ببـشرة دكنـاء ووجـه ضامـر ورقبـة طويلـة.. تـضرع إليـه لكـي يعمـل معـه، وعندمـا سـأله لحسـن إن سـبق أن عمـل مـع بنـاء، أخـذ يؤكـد لـه مهارتـه في الحرفـة وعـدّد لـه أسـماء معلمـين وهميـين اشـتغل عندهـم، فقبـل لحسـن ..

لا أسـتطيع أن أصـف لكـم مقـدار غبطتـه، كان يلهـث فرحـا ويخـبر الـكل بنبـأ عملـه مـع المعلـم لحسـن. اسـتيقظ باكـرا، وإذا شـئتم الحقيقـة فإنـه لـم ينـم تلـك الليلـة، ذهبـا مشـيا عـلى الأقـدام، قطعـا أكثـر مـن خمسـة كيلومـترات

وهمـا لا ينبسـان بحـرف، كل واحـد غـارق في تأملاتـه.. لحسـن يفكـر في فرصـة العمـل القادمـة، وصالـح يفكـر في العمـل الـذي أنقـذه مـن التسـكع وفي النقـود التـي سـيحصل عليهـا بعـرق جبينـه، سيشـتري لأمـه سـترة رأس.. لا، قميصـا جميـلا أو خفـين مـن الجلـد، هـذا أحسـن في الأسـبوع الأول، وأختـه زهـرة يلزمهـا سروال بلـدي .. ولـم لا جلابـة؟ فلقـد سـئم رؤيتهـا بنفـس الجلبـاب الـرث، أمـا أبـوه، ففكـر صالـح في أن يمـد لـه قسـطه نقـدا يعـين بـه مـصروف البيـت، ثـم آل بـه التفكـير إلى نفسـه.. ففاجـأه لحسـن:

– البس سروال الخدمة، والتحق بي في الطابق الثالث.

أخـذ المعلـم لحسـن يسـأل صالـح كـي يُحـضر لـه بعـض المعـدات:

– جيب الكرماطة.. أرى الشنظيل !

وصالـح يقـف مبهوتـا كأنـه لا يعـي مـا يقولـه لحسـن، وعندمـا اكتشـف المعلـم جهلـه بأصـول المهنـة، أخـذ يكيـل لـه الشـتائم:

– إيه يا أولاد السكويلة، لا قراية لا دراية!

كان عـلى صالـح أن يكشـط الإسـمنت المنتـشر فـوق الزليـج، كانـت قدمـاه تغرقـان في وحـل الإسـمنت الـذي يتسـلل إلى رجلـه مـن خلـل ثقـوب الصّنـدل.. وأثنـاء العودة لم يسـتطع

إتمـام الطريـق مشـيا عـلى قدميـه، ظـل يتماطـل ليتيـح لقدميه اللتـين أكل الإسـمنت جلدهمـا، مزيـدا مـن الراحـة.. كان يحـس كأنـه يسـير عـلى رمـوش عينيـه، وقـد تمنـى لـو يعـود إلى المنـزل وهـو يحبـو مثـل كلـب وراء صاحبـه!

في المسـاء دهنـت أمـي الصالحـة قدميـه بالزيـت والحناء، كان يبكـي فينهـره أبـوه الـذي بـدا فخـورا إذ ظـل يقـول لـه مشـجعا :

- يجـب أن تكـون لـك قدمـان صلبتـان عـوض قـدم النسـاء هاتـه!

اسـتأنف صالـح مسـيرة العمـل مرغمـا فأشـفق عليـه المعلـم لحسـن وكلفـه بعمـل بسـيط في الغرفـة المجـاورة، كان يقـوم بكنسـها وهـو يغنـي بصـوت خفيـض، فتناهـي صوتـه إلى سـمع المعلـم الـذي أعجـب بموهبتـه فاسـتقدمه بجانبـه.. حينهـا بـدأ صالـح يرخـم صوتـه ويضاعـف جهـده لكـي لا يعـتري صوتـه أي نشـاز، وقـد بهـت عندمـا رأى الدمـوع تترقـرق في عينـي المعلـم: «**كان يسـند رأسـه عـلى الجـدار ويبكـي، وأحيانـا كان يحيـط عنقـي بكلتـي يديـه وينتحـب بصـوت حزيـن وعميـق، اسـتغربت مـن هـذا الرجـل الـذي كان يـصرخ في وجهـي بوحشـية، عندمـا رأيتـه يبكـي أثنـاء سـماع أغانـي عبـد الحليـم حافـظ، هـل يمكـن أن يكـون مصدومـا في علاقـة غراميـة وهـو الـذي يصـارع شـظف العيـش بقسـوة؟ هـل يفضحـه فائـض الطاقـة الجنسـية المعطلـة؟!**»

أخـذ صالـح كلمـا التحـق بالمنـزل يضـع جهـاز المذيـاع قــرب رأســه ويمــر قــرص الموجــة عــلى كل المحطــات الإذاعيــة بحثــا عــن أغانــي عبــد الحليــم، ليحفظهــا ويغنيهــا أمــام المعلــم في البنايــة، وعندمــا لا يجــد، يطلــب مــن أختــه زهــرة أن تُحفظــه مقاطــع لأي مطــرب سرعــان مــا كان ينســبها لعبــد الحليــم وهــو يســمعها للمعلــم الــذي ظــل مــع كل أغنيــة ينــوح مثــل امــرأة ثكلــت أبناءهــا!

ارتــاح صالــح للوضــع الجديــد، وفي اليــوم الرابــع عندمــا كان يريــد أن يعتــلي منصــة الغنــاء أمــره لحســن بلهجــة غليظة لاســتئناف مســيرة عمله!»

***

ســمع صالــح صــوت فرامــل ســيارة تقــف أمــام البيــت، فوضــع الدلــو قــرب البــئر وذهــب ليطــل مــن البــاب.. نــزل دركــي مــن ســيارة الجيــب فــرآه يدنــو مــن بابــه، أصابــه رعب شــديد، فأخــرج منديــلا مــن جيبــه ليمســح بــه العــرق الــذي كان ينــزّ مــن خــده ورقبتــه، دق الدركــي البــاب بقــوة.

«حينمــا ســمعت طرقــا قويــا عــلى البــاب، قفــزت مــن السريــر، فتحــت البــاب، فأطــل عــلي الباشــا، كان يبــدو في جلبابــه والعصابــة الملتفــة حــول رأســه مثــل فزّاعــة الحقــول، وقــف أمامــي صارخــا وقــد انتــشر الزبــد عــلى زاويتــي شــفتيه:

- أين صالح ؟

ولأنه ظل يصيح في غيظ ملوحا بيده، لم أكلف نفسي عناء الرد عليه وهو لم ينتظر جوابي، دخل هو والمقدم الذي كان يرتدي عباءة غامقة اللون، ورجلان قويا البنية بسراويل الجينز، فأحدثوا جلبة في البيت ثم تسللوا إلى حيث كان صالح نائما، وسحبوه من قدميه، فاستيقظ مذعورا.. شعرت بالقرف وعراني شعور بأن أتفل عليهم لكني كززت على أسناني مخافة أن أسقط في غباوتهم.. انزعجت أمي واستيقظ زوجي وأبنائي، استفسر صالح في حيرة:

- ماذا هناك؟!

فأجاب الرجل القوي البنية :

- تفضل معنا، إجراءات روتينية وتعود على وجه السرعة !»

هكذا حكت لي أخته زهرة، حتى أن زيارة المقدم وقسم البوليس السري أصبحت جزءا من مشهد الأسرة العادي.. هناك بعد خروجه من السجن لاحظت أن صالح أصبح غريبا عني، إذ كانت السنوات الخمس التي قضاها وراء القضبان كافية لأن تجني ثمارها، ولم نكن نستطيع - نحن الذين أفرج عنا بعد ستة أشهر من الاعتقال- أن نتصور حجم الخسائر التي يسمها زمن السجن على جسد الإنسان! بدا لي صالح جسدا ضامرا وروحا ضعيفة، ومع ذلك لم تخفت حدة صوته لذلك ظلت السلطة تطارده، فخضع لنظام إثبات الحضور في مخافر الشرطة..

لقد وجد صعوبة في استئناف الحياة العادية خارج أسوار الجامعة بعد أن حصل على إجازته وبقي عاطلا عن العمل !

***

دخل صالح غرفة مكيفة، أحس بثقل الجدران الجارحة، أخرجته نحنحة من وجومه، استدار، كان صاحب الصوت رجلا قصيرا بجسم ضخم وكرش بارزة يقبع وراء مكتب زُيّن بأثاث فاخر، حملق في وجه صالح من تحت نظارته الذهبية، ودون أن يرد على سلامه، ظل المسؤول الدركي مستغرقا يقلب أوراقا وضعت أمامه على المكتب، تنحنح صالح منبها إياه إلى وجوده فأوقف إدارة كرسيه، ثم مد إليه يدين بدتا كيدي تمساح شائخ مغطاة بشعر غزير:

- المعلم صالح البشير خريج جامعة محمد الأول، من أب مات منذ سبع سنوات وأم كسيحة وأخت تزوجت مشاغب سياسي وحوكم بخمس سنوات...

وقف صالح أمام المسؤول الدركي الذي ظل يسرد وقائع شبيهة بمسار حياته، ظنه أحول لا يميز بين ورقتين أمام عينيه، لكنه تأكد أن معلوماته عنه حولاء! إن السلطة في أقسى كائن يفهم الأنبياء فهما سيئا، ماذا تعرف السلطة عن الإنسان؟! تعرف جهلها به أو ربما

مـا تـود هـي أن تعرفـه، فتخلـق لـه صـورة حسـب المـزاج، إذ لا بـد لـكل سـلطة مـن عـدو لكـي تجـدد وظائفهـا وتعيـد توزيـع الأدوار داخلهـا !

- نعم ! أجاب صالح باقتضاب .

أحـس الدركـي بنفـوره فحـاول أن يضفـي عـلى بـرودة الحـوار نوعـا مـن الحميميـة، فالتمـس مـن صالـح الجلـوس ثـم أردف مضفيـا عـلى كلامـه مسـحة مـن الأناقـة المرنـة :

- النـاس هنـا معجبـون بـك جـدا، وكثـيرا مـا يتحدثـون ...

- العفو، شكرا .

مـال المسـؤول الدركـي برأسـه قليـلا، فخيـل لصالـح أنـه يفكـر في كلام أكثـر جاذبيـة.. «**هـا هـو الـشرك بـدأ يمتـد وئيـدا ويختفـي وراء لغـة بـاردة، احـذر يـا صالـح! زن كلماتـك ولا ترقـص عـلى حبـل مـن نـار**»، اسـتجمع صالـح كل شـظايا تفكـيره، لكـن الدركـي فاجـأه :

- أعتـذر عـن سـيارة الجيـب فسـيارتي الخاصـة عنـد الميكانيكـي.. أخـشى أن أكـون قـد سـببت لـك إزعاجـا، لـم أقصـد !

- لمـاذا أنـا هنـا؟ هـل يمكـن أن أعـرف؟ تسـاءل صالـح

بخشـونة وارتبـاك واضـح

خفـض الدركـي مـن نـبرة صوتـه، ثـم قـال وقـد امتلأت فرجتـا شـفتيه بابتسـامة باهتة:

- لا تسـتعجل، كل شيء بأوانـه والـكلام يأخـذ بعضـه بعضـا !

ثـم ضغـط عـلى زر تحـت المكتـب بالقـرب مـن السـجادة التـي امتـدت تحـت قدميـه، طُـرق البـاب ثـم انفتـح، فدخـل شـاب ببذلتـه الرماديـة، أدى التحيـة باحـترام فسـأله بنـبرة مليئـة بالادعـاء:

- هل تشرب شيئا؟

رفـض صالـح بـأدب، وبعـد إلحـاح صرف المسـؤول الشـاب واسترسـل :

- إنـي أعـرض عليـك مسـاعدة، فوضعـك هنـا سيء للغايـة، وأنـت تحتـاج إلى مـورد تدبـر بـه أمـر معيشـتك، وتصرفـه عـلى ...

جحظـت عينـا صالـح مـن شـدة الدهشـة، ولكنـه لـم ينبـس ببنـت شـفة.. مـا كان يخطـر ببالـه أن يحـدث مثـل هـذا الأمـر الغريـب وقـد سـوّلت لـه نفسـه أن يسـأله عـن حقيقـة هـذا العـرض المغـري، مـا الـذي يجعلـه يسـتقدمه

بسيارة الجيب؟ لماذا لم ينتظر يوم السوق؟ دون أن يظفر بجواب شاف لشلال الأسئلة التي تطوق عنقه، استرق صالح النظر إلى وجه المسؤول ليفوز بشيء ينور حيرته، كانت نظرته تفيض بالحيوية والاعتداد بالنفس، حاول أن يستشف ما وراء ابتسامته فلم يظفر بشيء...»**فكر يا صالح، هاهي السلطة تحيك دسائسها من حولك قلت لنفسي. تريد أن تغسل جهل أبنائها على ظهرك.. نعم، لقد تلألأت أمام عيني النقود السخية التي يمكن أن تمنحني امتيازا وتزيدني حظوة بين الناس، هذا أمر لا يمكن أن أنكره أو أماري فيها ولكن، ماذا سيقول الآخرون؟ وتذكر أن المشكلة هي دائما مشكلة الآخرين . إنه زواج متعة بين السلطة والمثقف. وضحكت في سري ساخرا من هذا النعت»!**

تردد صالح كثيرا لكنه حسم الأمر فرفض ملتمسا عدة أعذار. انتظر صوت المسؤول الدركي على غير طائل ثم قرر أن ينتهز الفرصة لمد الحبل، فقال في هدوء لا يخلو من مرارة:

– لا يهم الآن ! في اللحظة التي سأحس بالرغبة ويكون لدي وقت فارغ سوف..أبادر لإعطاء دروس دعم لأبنائك..

حدق في وجه صالح ثم صاح بعنف حتى صعق، فقام وئيدا من الكرسي فيما بدأ المسؤول يهز يديه في حركات طائشة وهو يزبد ويرغي، أراد أن يشرح له موقفه، لكنه بدا متصلبا، فلاح لصالح أن تواصلهما شبه

مستحيل. «**خرجت يتبعني الشتم والسب، وفي داخلي كان صوت انفجاري يزمجر، ويوشك أن يقذف بحمم كل اللعنات التي تعلمتها في وجودي، ابن اللئيمة، نسل الشيطان، ابن السافلة، الزا.. ولد ال...**»!

قصد صالح مقهى آيت بوكماز، أحس بالغضب يسري في عروقه كجيوش النمل، علاه اضطراب قوي فسار في الطرقات هائما على وجهه والدموع تنحدر على خده، «**ابن الكلبة يقودني كاللص في سيارة الجيب ليعرض علي بستانيا في مزابل جهل أبنائه، وعندما أرفض يسب ملتي وأجدادي؛ ومن أكون؟ له وحده الحرية في أن يسحبني إلى هنا وليس لدي الحق...**» عض شفتيه حقدا، ودون أن يشعر كان يسدد ضربات بقدمه لكل شيء يصادف خطواته، توقف فجأة لا يدري أين يجد صبوته، فيمّم وجهه نحو الطاكسيات يسأل عن خمارة البلد.. أي فجيعة يمكن أن يحسها المرء عندما تداس كرامته بدون سبب معقول!؟

***

استقبلته مليكة في بيتها أسيفة مكسورة الخاطر، تطلع صالح إليها فأخفت وجهها بين يديها، كانت في ثياب البيت، وقد بدا التعب واضحا على قسمات وجهها.. بقيت ملازمة لصمتها فحاول أن يجمع شتات خواطره ويسألها، لكنها ظلت تتهرب من نظراته.. اقترب صالح منها فامتقع وجهها وارتبكت، أمسك بيديها المرتعشتين

وجثـا عـلى ركبتـه أمامهـا مسـتفسرا بحنـو:

- لا أفهم ماذا حصل بالضبط ؟!

بـدت مليكـة امـرأة منهكـة، تبخـر مرحهـا وشـحب جمالهـا حتـى غـدت امـرأة مهزومـة وضائعـة، نظـر إليهـا بحنـان فقالـت في صـوت متهالـك :

- اليـوم في المسـتوصف، حدثتنـي زميلتـي أنهـا كانـت تتكلـم مـع الممـرض سـعيد الـذي كان يسـتعد للـزواج.. عرضـتْ عليـه فكـرة الـزواج منـي فأجابهـا أنـه فكـر في ذلـك حتـى كان سـيعرض عـلي الأمـر لـولا أنني بـدوت لـه سـاذجة و...

علتـه ضحكـة قويـة فحـاول أن يكتمهـا لكـي لا يجـرح مشـاعرها، أحـس بالرتابـة تحـاول أن تمسـح دائـرة الضـوء المنسـوجة بينـه وبـين مليكـة، كيـف يسـتغرقها كل هـذا الحزن ويتصـدع مرحهـا لمجـرد حادثـة عارضـة وتافهـة مثـل هـذه!؟

رمقتـه ببصرهـا وعلقـت بلهجـة تعمـدت أن تكـون متأنيـة:

- ليسـت فكـرة الـزواج بحـد ذاتهـا هـي مـا يشـغل ذهنـي، بـل إن مـا أفكـر فيـه بجديـة، هـو كيـف يمكـن أن أغـير سـلوكاتي وطباعـي لأرضي خاطـر النـاس !

وجـد نفسـه في حـيرة، بـدا كمـن يجلـس فـوق كمـين، ينصـت إلى الأنـين الصاعـد مـن جبهـات مفتوحـة، ويتوقـع أن ينفـرد بـه غيـاب محتمـل يطـأ بـكل قوتـه أمالـه المنمنمـة التـي تـاه وسـط ظلالهـا في لحظـة يـأس قاهـرة، وفكـر: «**كيـف تـراوغ مليكـة عواطفهـا، وكأنهـا تحفزنـي عـلى التقـدم خطـوة نحـو الـشرك، هـل تفكـر بالـزواج إلى هـذا الحـد**»! ودون أن تدعـه يتـم كلامـه السـاخر فاجأتـه بصـوت نـدي :

- صدقنـي، إنـي أجعـل سـلوكي دائمـا معيـارا لقناعاتي، لكـن أحـس وكأنـي بـدأت أنهـزم، تأكـد يـا صالـح أن أصعـب لحظـة انكسـار هـي أن تصـل إلى حـدود التخـلي عـن مبادئـك فقـط لأنهـا لا تـروق الآخريـن!

- يجـب أن نكـون مثـل العـود اللـين الـذي ينحنـي أمـام الريـح لحظـة ثـم سرعـان مـا يعـود إلى الانتصـاب قويـا، وليـس مثـل العـود الجـاف الـذي يقـف شـامخا لكنـه سرعـان مـا ينكـسر إذ تؤذيـه الريـح وتحكـم عليـه بالركـوع والانحنـاء إلى الأبـد!

نظـرت إليـه دون أن تخفـي ابتسـامة ارتسـمت عـلى ثغرهـا، ثـم قالـت بهـزء:

- هل لازلت تؤمن بالوصايا المدرسية؟

- إنهـا حكمتـي التـي حملتهـا في لحظـة انكسـار أمـام

ألـم الأسر، حيـث كنـا نحمـل خرسـنا إلى منطقـة الظـل مـن الإحسـاس البـشري بحثـا عـن حريـة مسـلوبة.

هـذه الحادثـة الفارغـة التـي بـدت لي، في البدايـة، أتفـه مـن أن أشـغل بهـا هـذا الحيـز، سـتكون لهـا آثارهـا العميقـة في نفسـية مليكـة، خاصـة عندمـا علـم صالـح بخـبر انتقالـه إلى تـازة.. وإذ أؤكـد عـلى كل هـذه التفاصيـل أعتبرهـا ضروريـة لفهـم مـا حـدث!

***

غـزا شـعاع الشـمس أجـواء الغرفـة فاسـتيقظ صالـح متعبـا موجـع الـرأس، أراد أن يقـوم مـن الفـراش فلفُّـه دوار خاطـف وسرت قشـعريرة هـزت عمـوده الفقـري، أحـس وكأن أسـياخا محمـرة تغـرز في جسـده وتخـترق أحشـاءه فيتصاعـد بخـار مغمـور برائحـة شـواء اللحـم، حاول أن يسـترخي وسـط اللحـاف لكـن الألـم ظـل رابضـا ينهـش بدنـه، أراد أن يقـف متوكئـا عـلى الجـدار فخدعتـه يـداه ورجـلاه لـم تسـعفاه عـلى النهـوض. مـا أخطـر أن يثـور عـلى المـرء جسـده، فتتمـرد عليه أعضـاؤه وجوارحـه، تخونـه في لحظـة رعـب يحتـاج فيهـا إلى كل ذرة مـن جسـمه!

حـاول أن يـصرخ حتـى يسـمعه جـاره فخـرج صوتـه مبحوحـا كصـدى صـوت آلـة موسـيقية معطوبـة، ثـم أخـذ يسـحب بدنـه كفقمـة لجلـب طسـت المـاء.. وحيـدا يتقيـأ

صمتـه، وهـذا المغـص الـذي يمـزق أحشـاءه يلسـعه كالإبـر، وكمـن يـداري مصـيرا لا يقـوى عـلى احتمالـه، أخـذ يتحسـس الجزئيـات المتـآزرة في خلايـاه، ويرهـف السـمع إلى أنـين العواصـف، ولا يسـحبه مـن لجـة الكوابيـس التـي اسـتغرقته سـوى طنـين ذبابـة تحـوم حولـه، فعـاد زاحفـا إلى الفـراش، ألقـى فـوقـه الغطـاء وسـبح في نـوم عميـق .

قـام صالـح مذعـورا، أجـال ببـصره في كل صـوب، شـعر وكأن الديـدان تنهـش جسـده وسـط الظلمـة فتصـل خياشـيمه رائحـة تبعـث عـلى التقـزز والغثيـان، ومـن خـارج الغرفـة كان يسـمع أصواتـا تهـدد بالقتـل والإبـادة، نسـور وغربـان تصفـق بأجنحتهـا جاثمـة فـوق سـطح المنـزل بعـد أن وصلتهـا رائحـة الجثـة المتعفنـة! ارتجـف بدنـه وأحـس كأنـه يدخـل في شـبه غيبوبـة، جسـد مسـلوخ بأطـراف مشـوهة، أقـدام متورمة،عينـان نصـف مغمضتـين وجلـد عرقـان، فانتصـب شـعر رأسـه.. مـا أمـر أن يـرى المـرء موتـه قادمـا إليـه يزحف كأفعـى، لاشيء أقـرب إلى المـرء مـن موتـه!

كان ممـددا فـوق الفـراش جامـدا كالتمثـال ينتظـر المـوت الـذي سـيخنق أنفاسـه مثـل جـرذ حقـير، كيـف يمكـن أن يمـوت ميتـة لئيمـة وهـو الـذي كان يشـتهي موتـا اسـتثنائيا زمـن المحنـة؟ وكثـيرا مـا تمنـى أن يلفـظ أنفاسـه عـلى عتبـات التعذيـب؟!

يزحـف الليـل بطيئـا بلونـه الرصـاصي، فينتـشر السـواد

في الغرفــة كالســتار.. لــم يســتطع صالــح أن يوقــد الشــمعة، إذ فقــد القــدرة عــلى القيــام بــأي حركــة تعطيــه الإحســاس بأنــه لازال حيــا، حتــى مجــرد مســح دموعــه التــي انســكبت عــلى خــده بغــزارة، ولا عــلى طــرد الذبــاب الــذي كان يحمــل لــه وســط العتمــة رائحــة العــداوة والحقــد.. علتــه نوبة ســعال حســاد حتــى بصــق دمــا، فأصيــب بالذعــر لــم يكــن ذلــك هلوســة، إذ ظــل الــدم المتخثــر فــوق طســت المبولــة يســتفز كل خلايــا الحيــاة في جســده، أخــذ اللعــاب يســيل مــن فمــه بــدون توقــف والمخــاط ينــزف مختلطــا بالــدم».. «إلاهــي، هــل أمــوت وحيــدا في هــذه الغرفــة وأنــا ممــدد عــلى السريــر كعربــة مهملــة لفهــا النســيان والصــدأ.. كــم هــو قــاس أن يشــهد المــرء موتــه حيــا! «

«هــوى المعلــم لحســن مــن الطابــق الثالــث للبنايــة.. في ذلــك الصيــف الحزيــن بمدينــة وجــدة، هــوى المعلــم مثــل ورقــة صفــراء تلفظهــا شــجرة الخريــف، كــم كان فظيعــا رؤيــة نثــار مخــه مدموغــا عــلى الإســفلت، تولــدت في ذهنــي أســئلة حارقــة، فاحتميــت بالبــكاء، تملكنــي حــزن شــديد وأصبحــت هــذه الواقعــة تلازمنــي ككابــوس مرعــب.. لحســن هــذا كان أول ميــت تشــهد عليــه دموعــي، بكيتــه مــن قلبــي إذ لــم أحقــد عليــه يومــا، صحيــح أنــه كان يعاملنــي بجفــاء، يصيــح في وجهــي بقســوة ولا يشــاركني طعامــه، لكنــي مــع ذلــك أحببتــه. طللــت مــن الطابــق الثالــث بحــذر، كانــت المســافة بعيــدة جــدا، فتأملــت هــذه اللعبــة المعقــدة للحيــاة والمــوت، وذلــك الخيــط الوهمــي المســمى إرادة..

إذا لم نختر حياتنا وتورطنا في الوجود، فليس من العدل أن لا نختار موتنا.. هل اختار لحسن موته، وقبل ذلك حياته؟ هل كان يعلم موته؟ ما معنى ألا يسعى الموت إليك إلا عندما يقرر هو الزمن الذي يقضم فيه جثتك؟ هل يوجد موت متوحش وموت أليف؟ ثم لماذا لا يذهب كل الأموات إلى قبورهم في الموعد؟ قد تكون ولادتنا واحدة، كلنا أبناء تسعة أشهر كما يقال، لكن هل موتنا واحد أم متعدد؟!

نزلت أدراج الطوابق الثلاثة بسرعة، كان الناس قد تجمعوا حول الجسد الهامد، بدا رأس لحسين مهشما، وغمر الدم، الذي أنفجر من الأنف والفم، الوجه والعنق.. اقترب حارس البناية من لحسن، ووضع أنامله على رقبته ليقيس نبضه ثم قال بنبرة حزينة:

- دّا مُول الأمانة أمانتو!

هي الروح أمانة إذن، مجرد وديعة يجب صيانتها لتعود إلى صاحبها راضية مرضية، ذاك ما كان يحيرني أمام الصدمة الأولى للموت، هذا التمفصل بين الروح والجسد جعلني أفكر في صيرورة الثقافة التي تحتفل بأحد مكونات الجنس البشري والأنساق المعرفية الكبرى من روحانية الشرق إلى مادية الغرب، إذا كانت الروح مجرد أمانة، فالجسد لمن؟ الجسد - إن جوزت لنفسي قول هذا- ملك للإنسان، الغربي اهتم بجسده، اعتبره ملكه لذلك احتفى به لكونه فضاءه الخاص الذي يربطه بالعالم.. لكن، مسكين هذا

الإنسان العربي: فروحه أمانة لله وجسده أمانة للمجتمع، فماذا تبقى ليعيش به؟! تُرى إلى متى سيظل العربي يؤجل حياته ويصبر على خيبات الوجود بعيدا عن أخذ نصيبه من الكينونة!»

وجد صالح نفسه أمام ألعوبة لا يستطيع أن يلمّ بجميع تفاصيلها، خيوط متشابكة متاخمة للألم، ومسوقا بقدر غامض كان يسير نحو هستيريا الجنون، وسط الصمت الجنائزي الذي يسكن الأشياء من حوله. أوقد الشمعة وصار يتأمل الأواني المتسخة والملابس التي ظل ينزعها ليغسلها ثم يعود مرارا ليرتديها من جديد بوسخها الذي أصبح مثل الطبقات الكلسية المتراكمة فوق بعضها، امتعضت نفسه، وهبت نسمة برد حملت إليه رائحة البول والغائط النتن الذي زكم أنفه، فقد مضى على الطست ثلاثة أيام وهو رابض في مكانه.. حاول أن يقوم مستندا على الجدار، فخانته قواه وسقط على المائدة، لكن ألم المرض القاسي غيب ألم ذقنه الذي ارتطم بالمائدة، كان يحس بسلطة خفية تعبث بمصيره فتصادر كل ذرة من الحياة في جسده.. قصد الخابية، كان للماء مذاق مر كطعم الخيانة. وحين قفل عائدا إلى الفراش صعق، إذ برز له السرير كقبر بدائي انتصبت عليه الوسادة كشاهدة: «بسم الله الرحمان الرحيم، هذا قبر صالح البشير بن محمد المزداد بوجدة سنة 1962، المتوفى بدائرة آيت بوكماز، أفسح الله له جنات النعيم

ووسع عليه ضيقات القبور، كل نفس ذائقة الموت، إنا لله وإنا إليه راجعون.. وخيل إليه أن أمه ترش الورد وتوزع التين المجفف على المارة، ثم تأتي بفقيه سائب يتلو على قبره سور الجنات والنعيم.. لا بأس، كل واحد يؤثث موته بالشكل الذي يراه مناسبا!

عاد إلى الفراش واستلقى على ظهره، أراد أن ينقلب على جنبه الأيمن فلم يفلح فتذكر أمه التي أصبح جسدها مثل تابوت، ورائحة القذارة المنبعثة من تحتها تشعر الكل بالغثيان.. لقد اشتاق إلى الجلبة القائمة خارج أسوار الموت التي تحتجزه: «**أيتها الآلهة التي يتطاير شر الانتقام من أعينها، أرسلي مزيدا من أحصنتك لتدوس عظامي وتكتم أنفاسي، اغرزي أصابعك في عيني وانشبي أظافرك في لحمي.. أوزريس، يا إلاه الموتى أي جزء من أجزائك الأربعين يقدم إلي في هذا الوادي السحيق!**»

كان الظلام يزداد كثافة داخل الغرفة المحجوبة عن الأنظار، مد صالح يده إلى المائدة يتحسس كوب الماء ليطفئ النار المشتعلة في حلقه، ثم أخذ قميصا وغطسه في الماء وحزم به رأسه.

يحل اليوم الخامس، والمرض لا زال يجثم على صدره كالوحش، أحس صالح كأنه جذع شجرة جوفاء منذورة للريح، وللحظة علته غيمة الموت الذي توارى خلف مساحة الضوء الراكض من كوة الباب، «**فبرز وجه أخته زهرة،**

كانت تنظر إليه بحنان وحب فغمرته فرحة عارمة، كانت بعيدة وراء القضبان وضجيج القلوب المكلومة يعلو في مزار السجن، ظلت واجمة ولم تشأ أن ترفع رأسها، وفجأة انفجرت الكلمات والدموع :

- كنت عند للاّ خدوج عندما جاءني خبر نعيه، ومن هول الصدمة كنت أعدو حافية في الشارع إذ نسيت جلبابي وحذائي في بيت للا خدوج.. ذعرت عندما وجدت أمي تتمرغ في التراب أمام الناس الذين تحلقوا حول باب المنزل، كانت حالته الصحية قد بدأ تتدهور منذ اعتقالك، أصبح وجهه شاحبا، ولم يعد يغادر البيت إلا ليلا، لا نعرف أين يذهب، وكلما سألته أمي صرخ في وجهها، أصبحت معاشرته مستحيلة إذ اشتدت نوبات الربو على صدره وخارت قواه وانقبضت تجاعيد وجهه.. عبثا حاولت أن أغير عاداته، كنت مرارا أتحايل وأسرق منه السّبسي والكيف، لكن أمام انهياره كنت أشفق عليه، أصبحت تورثه عارمة كالمارد يرفض أن يعود إلى القمقم، فأخذ يسقط تدريجيا نحو أعماق مظلمة!

كان مسجّى هناك فوق فراشك، حيث اعتاد الجلوس منذ اعتقالك بعينين ذابلتين ووجه أصفر، وضعت كفي بين راحتيه وأنا لا أكف عن الشهيق، بدا لي كتلة من المرض والعناء الثقيل، كل أطرافه كانت باردة!»

تحسس صالح جسده عضوا عضوا: الرأس، اليدين، الأنامل.. وتنهد عاليا: «كل الأطراف كاملة ودافئة! « وكما

في لوحة قطع رأس القديس يوحنا المعمدان لهانس فريس، حيث يبدو وجه يوحنا شاحبا وقد علته صفرة الموت، أو كما وصفه بروعة لا تضاهي الحكيم دوستويفسكي، كان صالح يبدو كمحكوم عليه بالإعدام في ساحة عامة، إذ تنصب رأسه تحت المقصلة ويسمع صرير النصل القاطع وهو على اللوح.. في تلك الثواني المرعبة قبل أن ينفصل الرأس عن الجثة تنفتح عيناه على وهج الحياة، وبغير ترتيب زمني تحضره وجوه وصور ولحظات تمده بنفس الحرارة التي كانت لها زمن وقوعها، يميز بينها صورة أمه وهي تدعو له بالرضا ويسمع الصوت المرتعش لزهرة التي لملمت تصدع ذاته داخل السجن خاصة عندما فقد نزهة، الأمل الذي انقشع كالبرق في لحظة حلم خاطفة ثم ذاب كفصّ ملح ولم يتبق منه غير الجرح، يتراقص أمامه وجه ربيعة وهي تحضن أمالها، وجسد الباطرونة حليمة التي أسدل عليها لباس الحج في لحظة اعتراف نادرة.. ثم تحضره مليكة، ذلك النبع الذي تألق في رحلة العطش وظل يزهر كل لحظة!

على حافة الموت تبدو الحياة في غاية الروعة، تنفتح شرايين صالح على الوجوه والأشياء كمن يريد أن يلتهم كل شيء في رمشة عين.. يقترب الساطور من عنقه فيسمع صدى ذكرياته: الحنين إلى شيطنة الطفولة، حكمة الجد وأساطيره، النقاشات الصاخبة في الغرف التي تختنق بدخان صبايا يحملون همّ الكرة الأرضية على أكتافهم،

اشــتهاء لذيــذ لتدخــين لفافــة تبــغ واحتســاء كأس مــن النبيــذ الأحمــر، ومــس سرة مليكــة.. كل شيء يأتــي كغيمــة شــاردة، فالمــوت يســاعد الحيــاة عــلى النمــو!

أخــذ الألــم يعــاود صالــح في معدتــه، فيكتــوي بحــدة، يحــس كأنــه يتقيــأ أمعــاءه فيصعــد قلبــه إلى حلقــه، كل الآلام تتجمــع وتقيــم اســتعراضا فنتازيــا داخــل جســده، أخــذ يــدور ببــصره باحثــا عــن خطــر وشــيك، عــلى ركيــزة البــاب كانــت تزحــف حــشرة صغــيرة: «**أيتهــا الرتيــلاء، شــدّي رداء صلبــا لتحجبــي عنــي المــوت الــذي يكمــن خلــف البــاب واســتريني بنســيجك عــن أعــين الأعــداء القســاة الذيــن يريــدون أن يدوســوا جســدي بســنابك خيولهــم!**»

وتحــت وطــأة الخــوف الغريــزي انتصــب المــوت أمامــه بوجهــه الداكــن، تــراءى لــه في صفــة رجــل بديــن وطويــل، عريــض المنكبــين، مفتــول العضــلات، يرتــدي ثوبــا أبيــض وقــد قــوّس حاجبيــه.. أصيــب صالــح بحالــة انصعــاق تفــوق كل وصــف، تفحّــص ملامحــه عــلى ضــوء الشــمعة توتــرت أعصابــه فصــاح في وجهــه كالوحــش:

– مــن تكــون أيهــا الشــبح المقنــع، ولمــاذا تدخــل مواربــة كالجبان ؟!

حدق«الشــخص» في وجــه صالــح بوقاحــة، كانــت نظراتــه مليئــة بالهــزء :

- جئت لنؤنس بعضنا البعض، وإن شئت أخذتك في زيارة خفيفة!

- من أنت حتى تنحدر من الكهوف السديمية لتتجسس على نبضات قلبي وتحسب خطواتي النائمة.. من تكون لتحصي زفراتي وتقود أشلائي نحو الاشتباك؟!

قطب حاجبيه وحدج صالح بصرامة فأدرك صالح هفوته وقال بهدوء :

- تفضل، ولنبدأ طقوسنا بشكل هادئ، نتفاهم كأناس متحضرين، ليس لدي إرغامات أو شروط، فقط أريد أن أختار موتي بين الأموات، اجلس ولنكن أليفين جدا، أفضل أن أذهب إلى موتي حرا، أن أدرك موتي بكل ما أملك من شهوة الحياة ثم ...

فقاطعه «الشخص» بشدة وحزم:

- أعتقد أن المسألة ليس فيها أي عنصر يستحق كل هذا الاهتمام، ثم إن تحايلك على تمديد الزمن لن يجدي، فكل شيء بميقات معلوم وأنا أحترم الزمن وردود فعلي اتجاهه أقوى من ردود أي كائن آخر؟

تصلّبت نظرات صالح فبدت له كل موازين القوى مختلة لصالح عدوه.. الجسد المعتل، الكلام الخافت الذي يشبه حشرجة المحتضر، الندوب الكئيبة في النفس، شعر

أنـه سـيكون مـن العبـث أن يسـتمر في المقاومـة، فقـال لـه بلطـف وبلغـة دبلوماسـية شـحذها بـكل مـا أسـعفته بـه ذاكرتـه مـن كلام المجامـلات وبرقيـات الـولاء والإخـلاص:

- تفضلـوا يـا مولانـا المبجـل، اجلسـوا حيـث تختـارون، فـلي الـشرف بـأن أحظـى بامتيـاز هـذه الزيـارة المباركـة، اجلسـوا سـعادة مبعـوث المنيـة - بـدون شـك سـيروقكم هـذا الوصف-اصـبروا قليـلا فسـأهبكم نفـسي كمـا تسـلم الشـاة رأسـها للجـزار!

رفع «الشخص»حاجبيه بزهو واعتداد ثم قال بمكر:

- ها أنت قد بدأت تنصب الشّرك لموتك!

- الحـق يـا سـيدي أنـي ممتـن بزيارتكـم المفاجئـة وقـد أدركـت بحـدس غريـب هلاكـي ونفـاد مدتـي، والمـوت عـلى كل حـال مقـدر علينـا نحـن البـشر، وكل حـي مصـيره الهـلاك، إذ كيـف نريـد مـن جسـد يحمـل معـه مكونـات زوالـه أن يدفـع عنـا شر ضرر لا يملـك لـه حيلـة ولا سـببا.

وحـين أيقـن أن»الشـخص» بـدأ يقـع تحـت سـلطة أفـكاره أضـاف بحنـو :

- ولتعلمـوا سـيدي أنـي لا أريـد أن أتملـص مـن رحمـة يدكـم الكريمـة التـي دعنـي أقبلهـا..

فانحنــى عــلى يــده التــي لــذّ لــه أن يقبلهــا بانتشــاء، لكــن «الشــخص» ســحبها منــه بسرعــة فاضطــرب صالــح، وفي محاولــة لإعــادة تماســكه قــال في هيبــة:

– أعتــذر إن صــدر منــي مــا يشــين بمقامكــم، وإذا أغلظــت في القــول أمــام ســموكم، فــإن ذلــك ناتــج عــن التــلاشي الشــخصي وليــس عــن ســوء تقديــر لســموكم أو إلى تهكــم أو هــرب متعمــد.

استرســل صالــح بحبــور، وظلــت نظــرات «الشــخص» تشــجعه عــلى الــكلام ممــا أجّــج عاطفتــه، ولأول مــرة بــرزت لــه ملامــح المــوت وديعــة يشــع منهــا بريــق اكتــسى رشــاقة مدهشــة. اقــترب الشــخص مــن صالــح وطبْطــب عــلى كتفيــه، ثــم قــال بغــير قليــل مــن الخبــث الــذي تعمــده:

– لا بــأس، فلننــس كل شيء، مؤقتــا عــلى الأقــل، حــاول أن تقــاوم التفكــير في حضــوري !

– أشــكركم يــا مــولاي فلقــد غمرتمونــي بفيــض أريحيتكــم !

فجــأة أحــس صالــح كأنــه شُــفي مــن البــلاء الــذي ابتــلي بــه وفكــر: «**لا شيء لا يمكــن إصلاحــه أو إخضاعــه للمســاومة.. حتــى المــوت!**» فرمقــه «الشــخص» بنظــرة خاطفــة كأنــه حــزر مــا يــدور بداخلــه وبــادر قائــلا وهــو يهــم بالانــصراف:

- حــاول أن تغـض الطــرف عــن هتــافي الغامــض.. لا تنــس، هــذا أمــر مؤقــت فقــط.

***

استفاق صالــح عــلى وقــع دقــات عــلى البــاب، فطالعــه وجــه مصطفــى العــزوزي، حملــق في وجهــه وقــال مذهــولا:

- صالــح، مــاذا بــك بحــق الســماء. لقــد اســتغربت كيــف أنــك لــم تزرنــي!

تقــدم نحــو الغرفــة، زكمــت أنفــه رائحــة كريهــة، فعلــق ساخرا:

- قلــت لــك مــرارا تــزوج يــا صالــح، إنــك لا تســتطيع أن تقــاوم وحــدك ثقــل العيــش هنــا.. ســارع للــزواج، فهــذه البــلاد الســعيدة لا يقــدر عليهــا إلا أهلهــا.

- تريد أن أصبح ذا النطاقين: الوظيفة والزوجة!

انتبه صالح إلى وقوف مصطفى فدعاه إلى الجلوس:

-يبدو أنك مرهق.. استرح فسأعد لك ما تحتاجه!

- قــهوة إذا لــم تعــارض، لقــد اشــتهيت تدخــين ســيجارة رغــم أننــي أمــوت جوعــا.

حمل مصطفى الكؤوس إلى جانب البئر، بدا حيويا كالعادة طلق المحيا بشعر حليق ووجه معطر، فقال مبتسما :

– ذكرتني بالجوع، لقد حدثت لي مع أحمد الأشهب واقعة طريفة بمراكش.. هذا الأسبوع تأخر أبي في إرسال الزاد، ألهبنا الجوع إذ لم نجد ما نأكله فخرجنا نتسكع في الأحياء لعلنا نصادف زميلا ينقذنا من الورطة، ولحظة خطرت ببال أحمد فكرة شيطانية؛ إذ قادني نحو فرن للخبز وسأل الصبي أن يمده بخبز الحاجة، وعندما تساءل الصبي الذي بدا حديث العهد بالفرن، أشار أحمد إلى صينية بها خبزتان بمنديل أحمر.. سلمنا الصبي الخبز، أنقدناه الثمن، وما أن درنا مع الشارع حتى ركضنا مهرولين إلى البيت!

ابتسم صالح فقدم له مصطفى كأس قهوة وجلس بقربه فوق السرير، رشف من كأسه فانفرجت أساريره:

– أتذكّر يا صالح حكايتنا مع الجوع، عندما كنا بأزيلال أنا وأخي محمد، كنا لا نأتي إلى الدوار إلا مرة كل خمسة عشر يوما، كنا نفطر هناك بالخبز ونتغذى ونتعشى بالخبز، وعندما نأتي إلى منازلنا نبدو مثل الكلاب الجائعة التي ربطت لمدة طويلة بعيدا عن الطعام، نأكل بشراهة وكأننا نختزن في ذاتنا الطاقة اللازمة لباقي أيام الجوع، لم يكن في البيت الفقير الذي اكتريناه سوى

كأسين وإبريق وسكين وقنينة غاز، وكنا نحمل معنا أثناء العودة اللبن والزبدة.. أربع سنوات ونحن على هذا الحال، لم يكن أبي يسلمنا سوى ثمن التنقل بين أزيلال وآيت بوكماز فقط!

فسأله صالح باستغراب:

- ومن أين تشترون الحاجيات الأساسية؟!

- كان بالدرب المجاور لبيتنا دكان تعاقد معه أبي على أساس أن نقترض منه الخبز والسكر والشاي فقط ويسجل ذلك في دفتر، وفيما بعد تعلمنا كيف نأخذ خبزا زائدا عن حاجتنا، ونذهب لحانوت مجاور ونبيعه له بنصف الثمن لنستطيع شراء بعض ما نشتهيه.. حتى سرقتنا كان فيها منطق الاقتصاد، تصور، لم نفكر في سرقة السكر أو الشاي!

- ألم يكتشفكم الأب؟!

- لا أبدا، في يوم عطلة كنت أنا ومحمد عائدين من الحقل، فنادانا أبي لحمل دلو كبير من بئر الدوار إلى المنزل، لم نستطع حمله أبعد من خطوتين، وعندما شكونا له ثقل الدلو، أخرج من قبّ جلبابه دفتر الحانوت الذي نقترض من عنده بأزيلال وأخذ يعدّ:

- هذا خبز، وهذا خبز، وهذا خبز.. ودلو ماء لم

تستطيعا حمله!

انخرط صالح في موجة ضحك أنسته بعض القرف الذي كان يحسه.. اعتذر مصطفى فخرج مودعا، أحس صالح بأنه بدأ يسحب نفسه قليلا خارج دائرة العزلة والصمت وسط غرفة تحولت إلى مستودع لحفظ الموتى، وامتلأت برائحة اللحود والعتمة والأشباح فقام نحو المرآة المثبتة في الجدار، مرآة مسكونة بصدى صوته وبصورة وجهه التي دمغت على صفحتها إلى الأبد: «**ها أنا أقف الآن ندا لنفسي، هي فرصتي الوحيدة لإدراك حجم التحولات التي لامستني بعنف!**» تفحص سحنته فانتابه خوف رهيب، بدا له وكأن المرآة أمامه تعكس صدى أصوات ليس صاحبها، وقسمات وجه يحتضر لا ينتمي إليه، أصيب بذهول لوجود فرق واضح بينه وبين الشخص الذي يطل من المرآة.. التفت إلى الوراء، لم يكن أحد غيره، ثم نظر مواربة إلى المرآة المعلقة على الجدار حذاء الباب، هناك حيث انتصب شخص غريب بعينين كئيبتين وشفتين ذابلتين ترتسم على وجهه النحيف تجاعيد عميقة، فاعتقد أنها ضربة حمى تبرز له خيالات وهلوسات وهمية.. مسح الضباب الذي أحدثته أنفاسه على صفحة الزجاج وحدق مليا، لا زال الغريب متسمرا هناك، يعود صالح إلى ذاكرته لعله يتذكر متى وأين صادف هذا الوجه؛ لكن بدون جدوى، ففكر: «**إني أرصف بجدية سكة الحديد أمام قاطرة جنوني!**» رفع صالح يده اليمنى فرفع الغريب يده اليسرى، التفت

صالح ببطء إلى المرآة، فقام الآخر بحركات مماثلة، لقد كان الاختلاف بينهما واضحا ولا نهائيا! «

انتفض صالح صارخا، فجاءه صوت كالصدى يردد كلامه خشنا وجارحا، رفع يده يتحسس ملامحه، لقد انكمش جلده حتى خيل إليه أنه عبر كالبرق في مجال الزمن، اختزل مسافة عقدين في أسبوع واحد، اختفت معها ملامح وجهه الأصلية كمن قضى ثلاث سنوات من عمره في عقوبة الحبس الانفرادي.. «**هذا جسدي الغارق في صخب الألم يركض نحو الردهات الغامضة لسر الينابيع الأولى، يتأرجح بمكابرة جنونية بين عتبة المتاهات وصقيع الرحيل اليائس، يقود روحي نحو مهاوي مثقلة بالفراغ والصمت!**»

تطلع إلى المرآة فاشتدت دهشته عندما أتاه صوت مبهم من البرج المنخفض لحصن الذات حيث تتوارى كل الطعنات الموزعة على خرائط النسيان والقمع الأسطوري، صوت شائخ مليء بالتجاعيد والبثور.. كان المشهد بالغ التأثير، ولم يستطع صالح أن يفهم عن غريمه شيئا، تتبع حركاته، بدأت شفتاه تتحركان وتشنجت عضلات وجهه فيما ظل حبل داخل مغارة أسفل رأسه مباشرة يدور كلسان ثعبان، عيناه كانتا تنطقان بكل شيء. بدا الغريب قاسيا وقاتلا، إذ ظل يطل عليه من المرآة برأس مستطيل وأذني نعل ترتفعان فوق الرأس في استدارة ورقة شجر

يابســـة تتكـــوم عـــلى ذاتهـــا، وجـــه شـــاحب ومناخـــر منتفخـــة، **«يـــا للدنـــاءة ! مـــا هـــذا البـــؤس الفزيولوجـــي.. مـــارسي أيتهـــا الآلهـــة انتقامـــك بمراســـيم المســـخ عـــلى جســـد أعيـــاه الســـقم والجـــوع!»**

رنـــت عـــن الغريـــب ابتســـامة بلهـــاء، أراد صالـــح أن يجيـــب فأحـــس بالكلمـــات جوفـــاء وبـــاردة تتجمـــد عـــلى عضلـــة لســـانه، فيمـــا تابـــع الغريـــب مؤنبـــا.. ولحظـــة بـــدأ يضيـــق ذرعـــا بصلفـــه، اســـتجمع قـــواه للـــرد فجـــاء كلامـــه مثـــل طلقـــة الرصـــاص :

– إن مـــا قمـــت بـــه يعتـــبر أمـــرا عاديـــا، حـــدث ويحـــدث وســـيظل محتمـــل الحـــدوث، ولكـــن..

– لماذا؟

عندئذ انتفض صالح وقال بنفاذ صبر:

– أيهـــا الحقـــير! هـــل تعـــرف قواعـــد التواصـــل؟ لا يمكـــن أن يكـــون بيننـــا حـــوار، إذا كنـــت تأخـــذ حصـــة الأســـد في الـــكلام!

– لا تلـــح عـــلي في ذلـــك، أرجـــوك.. فاليـــوم لي، لقـــد تكلمـــتَ كثـــيرا وظللـــت دائمـــا تـــدوس رغبتـــي وحقـــي في التعبـــير عـــن نفـــسي، إذ ســـعيتَ دائمـــا وبمكـــر نـــادر إلى أن تدفـــع بـــي إلى المنـــافي الســـحيقة لشـــعاب ذاتـــك، وهـــو مـــا لـــم تســـتطعه اليـــوم عـــلى الأقـــل!

- أيهـا البليـد لكـي نتحـاور علـينا أن نسـتمع إلى بعضنـا حتـى ولـو كنـا مختلفـين، فـإذا لـم نتعلـم كيـف نتفاهـم، فلنتعلـم كيـف نختلـف.. أعـرف أنـك لـن تفهمنـي ولكـن عـلى الأقـل اسـتمع إلى كلامـي!

عـاد صالـح إلى هدوئـه، وحـدج الغريـب بنظـرة حمّلهـا كل عتابـه، إلا أنـه لـم يأبـه لشـتائمه فمـال برأسـه مبتسـما وقـال بتهكـم واضـح :

- لمـاذا تسـكب دموعـك، كـف عـن الهذيـان وابحـث عـن المصالحـة في قعـر ذاتـك، إن مـا تقـوم بـه وسـط هـذه القريـة مجـرد تخريـف وضرب مـن الجنـون!

- ليـس الجنـون إلا طريقـة في التعبـير، وإن شـئت الدقـة فهـو محاولـة للفـرار مـن ذلـك التطابـق الفـج بـين سـلوك الفـرد والقيـم السـائدة داخـل مجتمعـه!

اسـتقام الغريـب قليـلا حتـى توسـط زجـاج المـرآة ورفـع رأسـه نحـو صالـح، وكأنمـا باتفـاق مسـبق تلاقـت أعينهمـا، فصـاح بغيـظ :

- لمـاذا كل هـذا العبـث الـذي يدفعـك إلى أن تعـض أصابعـك ندمـا عـلى تورطـك في الوجـود؟ إنـي أعتقـد أنـه لا يجـوز للإنسـان أن ينصـب نفسـه ميزانـا للعالـم !

- إن مـا سـميته عبثـا، أسـميه أنـا حكمـة، ومـا سـميته

جنونا أدعوه أسلوبا فريدا لإعادة التوازن واكتشاف الحب والجمال الكامنين في ظلمات النفس!

«كان صالح ممددا فوق الأريكة ومليكة عارية تتوسد صدره وتميل برأسها على كتفه، ظلت تتشبث به كما تتشبث أم برضيعها، ولم تغادر المنزل بعد الزوال لتلتحق بعملها.. ظل ينصت للنغم الذي يرتفع مع صوت مليكة وهي تغني مع أم كلثوم، تمتد يده وسط فتنة الدفء التي تقمّط أعضاءه، فيمنح بلهوها الشيق ماء الشهوة لجسد معبئ بلحن البلابل وعطر الياسمين:

- صالح، هل نستطيع أن نهرب من وحشة الذاكرة لنغيب في ألفة النسيان!

- كلما توغلنا في الهذيان، استطعنا أن نذيب الهياج الرخو الذي يستبد برأسنا!

- ألا تخشى المتاهة والخيوط السرية لكهف هذه التجربة معي؟

- إننا نختلس سر الدهشة الأولى ونتوغل في سديم الجسد المشتعل، نسلُّ أشلاءنا في غفلة عن حراس سجون القتل، فالجنون والعشق حصانان يقودان عربة الحياة نحو عتبات مشتهاة.

- إن العشق النهم يأتي على كل شيء!

- ما أجمل أن نكون شهداء دكتاتورية العشق!»

انتبه صالح إلى وقوفه أمام المرآة، فعاد إلى فراشه وأخذ يرهف السمع إلى كل ما يدور بالداخل ويعبر كل المؤامرات الهشة لتواطؤ الجسد والروح! وفي لحظة شعر بالاطمئنان وأخذ حزنه يتلاشى تدريجيا: «**ها أنا أعود لأصالح ذاتي والعالم! وأحمد الله، أنني لم أتماد في غيّي، فلقد كنت أهمّ بقتل خصمي لكني تراجعت، إذ من الحماقة بمكان أن أضيع ذاتي في غياهب السجون من أجل شخص وضيع وحقير!»**

انزلق صالح من تحت الغطاء وتسلل نحو الخارج، سار يتنسم الهواء المنعش والأنسام التي تلاطف جسمه العليل، بدت القرية شفافة في نهاية الموسم الربيعي، تمشى وسط الدوار وهو يتأمل الديكة ذات الألوان الزاهية تسير بكبرياء العاشق تغازل الدجاجات وتتهارش مع الوز.. مر به الشيخ عباس، كان راكبا حصانه وساقاه المتدليتان تهتزان قليلا، فحياه باسما:

- سي صالح، طال غيابك.. لقد اشتقنا لقصصك ونكتك.

وكمن نسي شيئا هاما، حك لحيته وقال بزهو:

- ألم تعلم بالنبأ الجديد؟ إن الجماعة القروية ستنشئ لنا ساقية، هذا ما سمعته من فم النائب عن

دائرتنـــا.

قـــال ذلـــك وهـــمّ بالانـــصراف معتـــذرا بينمـــا واصـــل صالـــح طريقـــه نحـــو الجهـــة الغربيـــة للقريـــة، كانـــت بقايـــا أشـــعة الشـــمس، التـــي بـــدأت تختفـــي وراء المغيـــب، تـــسري في تلاويـــن الأرض فتعكـــس وهجـــا رائعـــا، راح صالـــح يراقـــب الرعـــاة وهـــم يقـــودون قطعـــان الأغنـــام والأبقـــار إلى حظائرهـــا، والقرويـــات العائـــدات مـــن الحقـــول بأكـــوام الحطـــب فـــوق رؤوســـهن وأطفالهـــن يتسلـــقن ظهورهـــن، كـــن يرتّلـــن أناشـــيد أمازيغيـــة تُنـــسي تعـــب الجســـد وتقـــرب المســـافة التـــي لا تنتهـــي.

أخـــذت أســـتار الليـــل تزحـــف وئيـــدة فقفـــل عائـــدا إلى المنـــزل.. التفـــت إلى الشـــجرة التـــي نمـــت قـــرب البـــاب، كانـــت أوراقهـــا تعكـــس ظـــلالا بهيـــة عـــلى الباحـــة فبقـــي مســـتغرقا في تأمـــل العـــروش التـــي تسـلقت الحائـــط وفجـــأة ســـمع نقـــرا، فهـــرع بخفـــة.. كانـــت مليكـــة أمـــام البـــاب، خفـــق قلبـــه بعنـــف وأحـــس كأن قدميـــه تســـمّرتا في موضعهمـــا، حـــاول أن يســـتعيد رباطـــة جأشـــه لكنـــه لـــم يفلـــح فارتمـــى في أحضانهـــا :

- ما بك، صالح؟ تساءلت باستغراب .

أقفـــل البـــاب مـــن ورائـــه فأمســـكت مليكـــة بيـــده، مشـــيا خطـــوات نحـــو الغرفـــة، أحـــس صالـــح كأن العالـــم كلـــه كان محجوبـــا بســـتار مـــن ضبـــاب كثيـــف فأخرجـــت مليكـــة الشـــمس مـــن رداء الســـماء:

– لقــد أتيــت بالحيــاة كلهــا، أشــعر كأنــك انتشــلتني مــن قــبري !

– جئــت أنــزع عنــك وحشــة أيامــك، فــإذا بجراحــك تــروي قلبــي بريــح عاصفــة!

– دعينــي أســتجير بحنانــك مــن أعاصــير الانســحاق الــكلي!

صمت برهة ثم باغتها بمرح:

– لكن قبل كل شيء، كيف عرفت المنزل؟!

– قــل إنــه حــدس المــرأة، مــا كنــت أجهلــه هــو كيــف تقطــع كل هــذه المســافة، شيء مدهــش!

جلســت مليكــة فــوق السريــر، بــدا عــلى صالــح ارتبــاك واضــح فوقــف حائــرا لا يــدري مــا يفعــل، إلى أن أخرجــه صوت مليكــة مــن ذهولــه:

– لماذا لم تأت إلى المستشفى؟

– لقد كنت ميتا ثم حييت، كُتب لي عمر آخر!

أفســحت لــه مكانــا بجانبهــا ودعتــه إلى الجلوس بإشــارة مــن رأســها، وعندمــا لاحظــت ســهوه جذبتــه مــن ذراعــه، فخفــق قلبــه خفقانــا سريعــا :

- لا تقلـــق إلى هـــذه الدرجـــة.. ألا تبالـــغ في تصويـــر إحساسـك بالمـرض؟ يبـدو أنـك لـم تكـن تقـاسي المـرض ذاتـه بـل أعراضــه المتزامنــة.

- لقـد كـنـت أهـذي مثـل المحمـوم، كان الألـم يصعـد إلى كل مفاصــلي ويفـت في عضـدي، حتـى الزفـرات كانـت تصعـد مـن رئتــي مليئــة بالفنــاء ورائحــة المــوت!

- إلى هذا المستوى؟!

- نعـم، لأول مـرة أحـس بـأن المـوت قريـب منـا، تصوري لـو لـم تـأكل الأفعـى زهـرة جلجامـش لـكان للإنسـان مسـار مخا لف !

- إنك تفكر في الموت بشكل جدي!

- كيـــف تريدينـنـــي ألا أفكــر في المـــوت، ذلـــك النغـــم الحزيـن الـذي يبـدو مـن بعيـد رحيمـا وعندمـا يقـترب راكبـا علــة البـدن يـروع الـروح، ليـس كالمـوت دهــاء!

أثارهـا كلامـه فغرقـت في موجـة مـن الضحـك تـرك أثـرا حميـدا في نفســه، بـدت مليكـة رشـيقة وفاتنـة، مـررت يدهـا عـلى خـده وقالـت مبتسـمة :

- إن حديثــك يثــير الاســتغراب، ألهــذه الدرجــة تخــاف المــوت؟

-أنا ما كنت أخشى الموت لو داهمني كطلقة رصاصة وينتهي الأمر!

- ولكن ما دمنا لا نموت إلا مرة واحدة، فلن تصبح المسألة جوهرية في تفكيرنا، إن الموت هو مشكلة الآخرين دائما، مشكلة الأموات، أما نحن فلن نموت قبل الموت. وفي تقديري الشخصي ليس الموت إلا انفعالا عنيفا وشعورا جارفا كالحب والانتقام.. شعور مدمر لا تقوى مجموع وظائف الجسد على تحمله، مثل آلة تسجيل حين تخضعها لشحنة كهربائية تفوق قوة احتمالها فتتوقف عن الاشتغال!

- يمكن القول إن الموت ليس إلا تنويعا على إيقاع الحياة، صدمة تحطم سيرورة الزمن بإيقاعاته المملة وهو أيضا تعميق لأسئلة الوجود .

- بل الموت مجرد لحظة لذلك لا يشغل تفكيري، وعندما سأموت لا يهمني حينها الإجابة عن السؤال.

- هذا إذا كان الموت مجرد قدر شخصي؛ فهو...

قاطعته مليكة وهي تزيل الحذاء عن قدميها:

- حتى موت الآخرين لا يجب أن يشكل انقلابا فجائيا في إرادتنا ولا انعطافا في مصير التاريخ الإنساني برمته !

صمتت برهة ثم قالت:

– ألا تــرى أنــك تتحــدث عــن المــوت والحيــاة بشــكل مانــوي؟!

– ليــس إلى هــذا الحــد، فــإذا كان الإنســان هــو الكائــن الــذي يــدرك يقينــا أنــه ســيموت كمــا قــال فولتــير، فإنــه في نفــس الآن وربمــا للســبب ذاتــه، يتشــبث بالحيــاة ليلغــي المــوت، فالمــوت والحيــاة ليســا إلا حركــة الداخــل إلى الخــارج وحركــة الخــارج نحــو الداخــل .

قامــت مليكــة مــن فــوق السريــر وأزالــت عنهــا جلبابهــا الأزرق، بحثــت عــن مشــجب فلــم تجــده، ظلــت تتأفّــف مــن كل شيء، تســأله عــن أدوات التنظيــف، عــن ســطل أو إنــاء.. وقفــت لحظــة تتأمــل الأثــاث المبعثــر والكتــب الملقــاة هنــا وهنــاك، فرفعــت يدهــا إلى صدرهــا وقالــت مســتغربة:

– أنت تجلس هنا في هذه الغرفة، وأين أثاثك؟!

– هذا كل ما في الهودج، فلا زال بي حنين إلى الرحيل!

– كل شيء مقلوب رأسا على عقب!

– كما الوجود تماما!

ألقــت عــلى وجهــه نظــرة متأنيــة كأنهــا تــدرس صــدق كلامــه في تقاســيم وجهــه، وليغــير الموضــوع بــادر قائــلا :

- سأحضر لك كأس قهوة(سوداء كالمارد، ساخنة كالسعير، خالصة كالملاك، عذبة كالصبابة).

***

كان إبريق القهوة يغلي فوق نار البوطاغاز، تنزل قطرات من البخار المتجمع على سقف غطاء الإبريق فترتطم بحديدة الفرن محدثة نغمة تحرض رغباته على التمرد، مثل نشيد يوحده بظل جسدها استرخى فوق اللحاف، ثم أوقد سيجارة صار ينفث دخانها بانتشاء، كان شدى عطر مليكة يرتفع في الغرفة المبتلة بذاكرة الغياب.. فتاهت فروسه في أجراس الجسد الذي ظل يفيض بالشوق، تأملها متلصصا من خلال الباب وهي تصب الماء من الدلو على قدميها المتناسقتين وقد انحسر الثوب عن فخذيها، فأيقظه غليان إبريق القهوة من دغدغة سهوه: «**أيتها النار المقدسة الصاعدة من أفران الفتنة في مواقد القلب، التهمي كل الطفيليات النابتة حول ضفاف الروح وازرعي في مخابئ جسدي زوايا بروق أليفة يضيء ألقها الرغبات التي تهجع في ظلمات نفسي!**»

قدمت له مليكة كأس القهوة فقبل جبينها وقال برخاوة:

- لأول مرة أحس بالمصالحة مع هذا الفضاء.

- هذا أمر عجيب الشأن، أندهش لسرعة التغير والتبدل التي تلامسك!

- لقد كانت الأوساخ المنتشرة في كل مكان تثقل ذاكرتي.

- كيف تريد أن أحضر ذاكرة وسط هذه المزبلة؟!

- كلما فتحت نافذة عبرتني صورتك!

- حتى في مثل هذا المكان؟!

- كل الأمكنة تتشابه، تتماثل في أشد التفاصيل دقة، ولكنها تختلف من حيث العلاقات التي يقيمها الإنسان معها .

انتبهت مليكة إلى الشمعة التي كانت تذوي ببطء فقام صالح، ووضع مكانها شمعة جديدة، لاحظ أن المنظر قد استهواها إلى حد بعيد، فهمس في أذنها بإغراء :

- إنك اليوم عند ولي الله صالح. إذن، دعني أتبرك بملامسته!

كان جسدها العاري بألوانه القرمزية يتلألأ أمام عينيه، بدت مليكة حلوة كالثمرة الناضجة فلمس نهدها المملوء بالحياة، كبلّور مشع يكنز اللذة والاشتعال، مرّر شفتيه على نحرها فاقشعر جلد جسدها، ثم أخذ يمصها

بانتشـــاء مـــن أعـــلى شـــعرها حتـــى أخمـــص قدميهـــا، موغـــلا لســـانه في ثنايـــا جســـدها الـــذي كان يرتعـــش مثـــل ســـمكة، لمـــس فخذيهـــا فاشـــتعلت بشـــبق وحـــشي، فتذكـــر حكمـــة العاهـــرة ســـعاد أن المـــوت يختبـــئ حيـــث تزهـــر الحيـــاة!

انتهى ما جاء في باب «ذكر بعض أثار الرحلة وقرب المال»

باب في «من أحبت رجلا لم تستحسن بعده غيره ممن يخالفه»

أسمي اشتهائي جنونا

وجسد صالح موسيقى صاعدة من الحلم

رقصة انتحارية توقظ الاضطهاد السابح

في ملجأ الروح...

كلما ازهرت سمات

العشق في قلبي...

نبت الشوق على ضفاف

جسدي المرتعش كاليراعة،

وأنار عواطفي الغامضة !

مليكة النشيد

- لقد توصلت برسالتك التي تطلب مني فيها أن أحكي لك قصتي مع صالح، وفي كل مرة كنت أراوغ نفسي وأهرب من جرح يتفتح في جوارحي كل لحظة. فالغياب يجعل الحب شفافا.. كأني كنت أخشى أن يسرق مني أحد أسرارا تمكنني من مواصلة العيش وها أنت تأتي بنفسك تقول إنك صديقه، وقد عثرت على دفاتره ومذكراته وبيدك خطاباته، هل سبق أن حدثك عني يا طوبة؟

- بطبيعة الحال، وإلا لما عرفت الطريق إليك..

- ماذا تريد أن تعرف بالضبط.. أقصد عم سأحكي بالذات ؟

- عن ذاتك، عن علاقتك بصالح والآمال التي نمت بينكما، فهي الجانب الملغز في هذه الحكاية!

- إنك تطالبني بتذكر ما لازلت أبذل قصارى جهدي من أجل نسيانه!

اغرورقت عيناها بالدموع فاختنق صوتها، وبدأت

تبحث عن منديل بجانبها، بقيت صامتا أقرأ بعض ملامح الجرح الزاحف على ملامحها، شعرت برغبتها في الاحتماء من حكي يعمق آثار الندوب في ينابيع سرها، فأردفت مستفسرة:

- من أين أبدأ؟

- لك الحرية، اختاري من البداية، من النهاية أو حتى من الوسط! لا يهم.. فمربط الفرس هو الحكاية، وجوهر كل حكاية هو رأس الحكاية، أليس الأدب هو فن المستحيل كاذبا أو حقيقيا.. احكي ما تشائين، صفي علاقتك بصالح، انطباعاتك عنه.. فالحكي خلاصة تجربة بشرية بمتاعبها وأسرارها، إنه تثبيت للحظات المنفلتة من بين ثنايا شريط الزمن!

- ولكن علاقتي بصالح شخصية تماما، وثمة أشياء لا يمكن البوح بها أبدا!

-عندما نحكي تجاربنا الذاتية تصبح مشاعا لكل الناس..

-ولكن الحكاية لا تقال إلا بالليل!

كدت أغرق في الضحك، لكني تماسكت بحكمة كي لا أضيع هذا الاستدراج الجميل نحو مدارج الحكاية، فيما واصلت مليكة كلامها:

- الحكايـــة لا تـــروى إلا بالليـــل، حيـــث يفـــض النـــاس أيديهـــم مـــن الرتابـــة المســـمومة التـــي تســـحق روحهـــم، في الليـــل حيـــث تصعـــد النجـــوم وينـــير الكـــون ضـــوء القمـــر البهيـــج، حيـــث يســـمر العشـــاق والندامـــى والمتصوفـــة وتلهـــج بالكـــرى أعـــين مـــن يثقلـــون الكـــرة الأرضيـــة بجثثهـــم.. حينـــذاك تلـــذ الحكايـــة، فتخـــرج شـــهرزاد مـــن مخبئهـــا كالـــسر.

قلت لها بلطف دون أن أخفي ابتسامتي:

- هـــل تخافـــين أن يأتـــي أبنـــاؤك إلى العالـــم بـــرؤوس كالأرض القرعـــاء؟!

- ربما !

- لا تخافي فحكايتنا ستروى للكبار!

صمتـــت برهـــة، واشرأبّـــت بعنقهـــا إلى نواحـــي الغرفـــة كأنهـــا تتصيّـــد أذيـــال الحكايـــة مـــن لحظـــة غامضـــة يتوســـدها جـــدار مـــن جـــدران البيـــت، ثـــم ابتلعـــت ريقهـــا وقالـــت:

«عـــبرت مـــدارج الطفولـــة الشـــاحبة بشـــكل عـــادي فقـــد فتحـــت عينـــي في مدينـــة ســـطات مـــن أب فـــلاح لـــم يدخـــر جهـــدا في لـــمّ شـــمل العائلـــة، كان يكـــد ليـــلا ونهـــارا مـــن أجـــل توفـــير لقمـــة العيـــش شـــاهرا حبـــا خرافيـــا نحـــو عشـــه، ذاق الأمريـــن وظـــل يحتـــضر تحـــت الضربـــات القاســـية للقـــوت والمـــرض.. توفيـــت أمـــي وأنـــا طفلـــة لـــم أتجـــاوز ســـن الرابعـــة بعـــد، لـــم أكـــن

أعـــرف عـــن المـــوت شـــيئا، وبـــبراءة مطمئنـــة دخلـــت الغرفـــة التـــي كنـــت أنـــام فيهـــا أنـــا وســـتة إخـــوة لي، كانـــت مســـجاة هنـــاك بنقائهـــا الفـــرح، بـــدت لي وديعـــة ومضيئـــة، فاقتربـــت منهـــا وجلســـت بقربهـــا أشـــم رائحـــة العـــرق الصاعـــد مـــن جســـمها، ثـــم دسســـت ســـبابتي بـــين أســـنانها وانتظـــرت أن تدغـــدغ أصبعـــي بعضتهـــا الرقيقـــة، لكنهـــا لـــم تفعـــل، كنـــت أظنهـــا تمنحنـــي ابتســـامتها وحنانهـــا الدافـــئ.. وعندمـــا دُفنـــتْ ســـألت أبـــي عنهـــا، حـــدّق في الســـقف ثـــم قـــال:

- راهْ مْشات فين غا نمْشيوْا كاملين!

- وفين غا نمشيو كاملين؟|

- فين ما بغا الله!

- ووقتاش؟!

كلمـــا أحرجـــت إخوتـــي بالســـؤال حـــول غيـــاب أمـــي، كانـــوا يقولـــون بملـــل:

- إنها مسافرة...

وظللـــت أنتظـــر عودتهـــا بفـــرح، لكـــن انتظـــاري طـــال أكثـــر مـــن الـــلازم، ولـــم يعـــد إرســـالي عنـــد جارتنـــا للعـــب مـــع بناتهـــا ولا قطـــع الحلـــوى التـــي يشـــترونها لي قـــادرة عـــلى إيقـــاف صراخـــي، لذلـــك ظـــل الســـفر بالنســـبة إلي هـــو كل مـــكان

لا نعــود منــه أبــدا !

نشــأت يتيمــة الأم فتولّــت العنايــة بــي أختــي الكبــيرة التــي فــرض عليهــا الانقطــاع المبكــر عــن الدراســة بســببي، وهــو مــا يجعلنــي اليــوم مطوقــة بحالــة نــدم وأسي عــلى مصــير أختــي الــذي أشــعر أنــي المسئولة عنــه، كــم هــو قــاس أن تكــون مدينــا لإنســان بــشيء يطــوق عنقــك إلى الأبــد، حتــى لتحــس كأنــه يوشــك أن يورثــك المذلــة والعبوديــة، نــوع مــن الشــعور الفائــق بانكســار الــذات.. رغــم حنــان أبــي، فإننــي تعلمــت معنــى أن أكــون امــرأة محاطــة بالــسر والكتمــان، بالصمــت والنســيان، بالخنــوع والضيــاع، بالدمــوع والخيبــة.. وكلمــا تقدمــت في الســن كانــت تنمــو حــول جســدي الأنثــوي موانــع وحواجــز، وأسرار خفيــة ومقدســة، وظللــت أحــس بــأن أســئلتي دائمــا تقلــق إخوتــي فيتخلصــون منــي بسرعــة، أحــس كأنــي أحمــل معــي عبــوة ناســفة وليــس جســدا عضويا، أســير في الشــارع دون غنــج، لا أتمايــل كمــا أشــتهي، وعندمــا أريــد أن أحــرك أعضائــي يجــب أن ألتفــت في كل الجهــات، وكلما جلســت في موضــع بقيــت ممــدة فيــه كالبضاعــة، وأنــا جــد حــذرة مــن الجيــوب التــي يمكــن أن تفتحهــا ملابــسي في جســدي لأتفــه حركــة آتيهــا، وأحــس بالعيــون تــدور في المحاجــر وتلاحقنــي بــشره!

كــبرت وكــبر جســدي، فأخــذت أشــعر بتبــدلات عميقــة لــم تكــن لــدي الشــجاعة لطرحهــا عــلى أحــد، فنمتْ علاقتــي

بالمرآة والليل، علاقة حميمة مليئة بالأسرار.. كانت الفتاة التي تعكسها المرآة هي هويتي الحقيقية العارية من كل تدنيس، هوية تمدني بالدفء والثقة على عكس ما أحسه بين الناس، هوية مفتتة لُفّت داخل قمّاط من الوصايا وغُلفت بعيدا عن الأعين.. كنت أستطيع تلمس جسدي على المرآة فقط، وعندما تمس يدي صدفة أحد أعضائي أحس بارتعاشة صاعقة سرعان ما يعقبها إحساس آثم بالذنب، فبدأت أعرف لماذا تنهك المرأة جسدها في مواسم الرقص وحفلات الجذبة إنه العنف المضاد، العجز والقصور المفتعل، التنفيس عن المذلة والقهر، تصريف المواجع الراقدة في قرارة الكأس!

كبر أخي سي محمد وصار يعين أبي في الحقل، وتزوجت سميرة وسعاد.. ومع ذروة الجفاف بدأ أبي يُصاب بالعياء، والأرض لم تعد تشبع الأفواه المشرعة. حصلت على شهادة البكالوريا فصرت أحلم بأبواب الجامعة والحرية والمستقبل، وأحن بجنون فرح إلى مداعبة آمال مسافرة في شعاب المجهول.. توفي أبي وأنا في طريقي إلى السنة الثالثة من الكلية فانهارت أحلامي، أخذ إخوتي يسافرون إلى البيضاء كل واحد منهم يحفر مساره الشخصي.. اقتسمنا كل شيء: الأرض، الجراح والأحلام الشائخة، وبعنا المنزل بمجرد ما تقدم لخطبتي أحد المعجبين من الدار البيضاء.. فشل مشروع زواجنا الذي قدت إليه وأنا معصوبة العينين، لأننا كنا قطبين متنافرين.

جلست وحيدة مع أمه في البيت مدة عشرين شهرا، كنت أحس يوميا بالاختناق كلما حط يده على جسدي العذري، ظل الضجر يتسلل إلى قلبي من بلادته ومن سلطة أمة التي كان حضورها وحده يزرع الرعب في قلبي، كانت الكلمات تخرج من فمها سوداء قاتمة، فعثرت على ضالتي في الكتب الكثيرة التي كنت أقرأها، كنت أدفن فيها همومي وأعبر من خلالها بقاع الصمت الذي يخنق الهواء من حولي.. كان ذلك نوعا من التحايل لتحقيق الذات والانتقام من وضع قسري.. اجتزت عدة مباريات حتى نجحت في التمريض، ففسخت عقدة الزواج وجئت إلى أزيلال.

كانت حياتي تدور في روتين قاتل، أموت يوميا دون أن أحس بالعالم من حولي وسط مدينة مسورة بلعنة الكبت والفقر والجهل، ما معنى أن تعيش بدون هدف في حياتك؟ كنت أتنقل بين قبرين: البيت والمستوصف كجثة بكفن أبيض خيط حول جسدي بإحكام: الملاءة البيضاء، الجروح والرضوض، الأورام والكدمات، الدم والقيح، ورائحة الأدوية التي ظلت تتسرب إلى أنفي كرائحة الموت، وتلك الوجوه المعذبة التي تطل عليّ كل صباح.. إلى أن جاء صالح فبعثني من القبر وأزال عني الكفن، لذلك لم يكن بالنسبة لي شخصا عابرا. عاشرته مدة أربع سنوات، ومع ذلك ظل غامضا ومفعما بالأسرار، كان الهبة الوحيدة التي منحني إياها الرب عزاء لي في وحدتي بعد زواجي الفاشل.

منذ رأيته أحسست بأنه من الصعب على التصديق أنني سأعيش حياتي بدونه، إذ قُيضت لي حياة جديدة خارج العلاقات الهجينة التي تجول باطمئنان في رحاب الأزقة والشوارع.. لقد جربت صداقات كثيرة سرعان ما كنت أخفق عند عتبتها الأولى، كنت أبدو مثل بينيلوب التي ظلت منشغلة بغزل قماش لا يكتمل في انتظار عودة عوليس، أو مثل فرس يربض في إسطبله منتظرا فارسه الوحيد، وكان صالح ذلك الفارس !

كان أول رجل أحس أني أحبه بكل جوارحي، حب غريبين يتوحّدان في المنفى؛ تعرفت عليه عندما زارني في المستوصف، إذ كان قد تعرض لحادث اعتداء فشكرت القدر على تلك المصادفة. يومها رأيت في نظراته وهي تتابعني بريقا رقراقا يتلألأ كالشلال، تدللت أمامه بغنج.. دنوت منه ووضعت يدي على ساعده فامتقع وأحسست بحرارة جسده، وعندما أراد أن يتكلم احمر وجهه خجلا وتلعثم لسانه:

- «مجرد جراح بسيطة!»

لا أدري كيف انخرطت معه في حوار شعرت خلاله بنشوة غامضة، إذ خيل إلي كأني أعرفه منذ سنين، وعندما كنت أفاجئه بدعاباتي وبكلماتي التي اكتست مرحا لم أستطع تفسيره آنذاك، كان يحك ذقنه حائرا ويتأرجح بجسده، ثم يتخذ وضعا أكثر قوة ليمنحه الثقة أثناء

الحديث.. بدا التواطؤ بيننا صارخا يشع من النظرات وحركات الأعين، ومن يومها ظل يعتل ليطل عليّ فيما أنا أديم تمريضه وأطيله، لأرى الوجه الذي ابتسم لي في هذه المدينة الأسيرة !

لقد ظل صالح الصوت الذي يؤنس وحشتي، «**حالات النفي تتوحد**» كما كان يردد على مسامعي. امتلكني كليا فشعرت بحبي له يزداد توهجا مع مرور الأيام وتصبح ألفته أروع من قبل، واستمر الشعاع الذي يخرج من ثنايا جسده يعيد إلي حضوري ويقتل جذور الوحدة في كياني، صوته الأليف مثّل بالنسبة إلي إغراء شائقا.. كنت أشم رائحته من بعيد، يأتيني دائما ملتهبا شفافا، يحمل بين طيات جسده صدى أليفا، وكلما وطأ سجادة غرفتي كنت أُهيل التراب على أحزاني، أودعها قبورا سرية وأعانق شهوة الحياة.. أستعيد الآن حضوره كاملا، في وجهه ينتشر ضوء ساحر يشدني إلى حافة الحلم، وفي غضبة تنطلق تلك الجرأة المحتبسة نافذة كحد السكين، لقد ظل ذهنه مشغولا بأمور عجزت عن استكناهها!

منذ دخل حياتي أحسست بتغير مفاجئ، فصرت أمشي في الشوارع طارحة عني تلك الحشمة المصطنعة لكي لا أُتّهم في وسط قروي يسوده الرجال بقلة الحياء.. تصور يا طوبة كيف يمكن أن تنمو بين الإنسان والفضاء الذي يعيش فيه حزازات زائدة؟ وماذا يمكن أن يحدث

لفتاة تعلن عصيانها وتمردها على تقاليد شائخة أعتقد أنك ستفهم ذلك، لأنك ابن الشرق، لقد كان صالح يحكي لي نوادر طريفة عن النساء في وجدة وعن التغيرات التي فرضتها الجامعة هناك.. ومع ذلك كله مارست تحديا سافرا وبنشوة نادرة فطرحت عني طبقة كثيفة من القيود التي كبّلتني، كان يهمس في أذني مشجعا:

- إن الحب يعطينا الإحساس بالحياة ويجعلنا نؤمن بذواتنا وبالعالم المحيط بنا؟

فصرت مهتمة أكثر بجسدي: الثياب الجديدة، التنسيق بين الألوان الزاهية المفتوحة، المساحيق، العطر، البودرة، تلميع الحذاء... وبدأت أتمايل في سيري أتأرجح يمينا وشمالا، أحس كطائر متحرر من أي قيد يشده إلى التراب، أتنزه في الطرقات وأتفحص واجهة المحلات ثم أرفع عيني عن الأرض وأنظر إلى الوجود، كان صالح قد أعاد لي عذرية ناعمة، وأحيى أحلامي التي ظلت تهوي الواحدة تلو الأخرى مثل ورق الخريف!

توقفت مليكة عن الكلام فانتشر الصمت بيننا، لم تتمالك نفسها فانخرطت في نحيب طويل، ولأفر من نظراتها، انتبهت إلى آلة التسجيل لأتأكد من اشتغالها ثم بادرتُ قائلا:

- لماذا تبكين؟ إننا نسرد حكاية، مجرد وهم،

وبكاؤك سيكدر مزاج القارئ، إذا قدر أن يكون لهذه الحكاية قراء، إن لديه من الهموم ما يكفي!

***

ذات يوم أربعاء من شهر ماي، استيقظت مفعمة بحيوية نادرة انتقيت لباسي باعتناء ورحت مسرعة إلى المستوصف، وجدت الحارس يفتح الباب فوقف مستغربا هذا التبكير غير المعهود:

- صباح الخير مليكة، أراك قد أتيت مبكرة أم أن ساعتي بها خلل؟!

- لا، لا فقط...!

تجمدت الكلمات على لساني للمفاجأة، فتورد وجهي حتى بدوت مثل طفل تلبس بجرم صغير، فتلعثمت:

- لدي بعض الأعمال.. لم أنهيها البارحة!

قصدت غرفة الطبيب نظفتها بنفسي، رتبت وضع الطاولة والكرسي، حملت السماعة، وضعت طرفيها في أذني، وبدأت أستمع إلى نبضات قلبي وأنا أموت من شدة الضحك.. بدا الوقت ثقيلا، شعرت بعواطف رخوة تضطرم داخلي، وبإصرار خفي عدَلت عن ارتداء الوزرة...

أخذ الناس يزدحمون في قاعة الانتظار وفي الساحة

المجـاورة للمسـتوصف، قرويـون وقرويـات أتـوا مـن كل فـج عميـق، بـدت وجوههـم عاريـة وشـاحبة فاعتراني الإشـفاق عليهـم، ظللـت أجيـب عـن أسـئلتهم بصـبر وأرشـدهم بلطـف، فأسـمع مـن ورائـي دعـوات الرضـا والترحـم عـلى الوالديـن، حينهـا تأكـدت أن الحـب هـو الـذي يجعـل العالـم يـدور!

كنـت أخـرج كل لحظـة لأطـل عـلى القاعـة حيـث أنـين المـرضى وضجيـج الأطفـال.. ذهبـت عنـد الحـارس لجلـب كأس شـاي، وفي طريـق عودتـي، رأيـت عينـين فاتنتـين ترتقـان خيـوط الحلـم في جسـدي، تسـمرت قدمـاي بينمـا بـادر صالـح مرحبـا بلطـف زلزلنـي.. بحضـوره أخـذ جسـدي يتحلـل إلى أجـزاء دقيقـة محملـة بالرغبـة والشـوق، أحسسـت بـشيء مـا ينفجـر داخـل كيانـي بجنـون، ولا أسـتطيع أن أسـميه لـك، شيء لـه قـوة الديناميـت.

بـدت سـحنته كأنهـا مكسـوة بطبقـة سـميكة مـن الحـزن، قمـت كالعـادة، أخـذت المقـص ولففـت رأسـه بالقطن، بللتـه وسـط قنينـة المرهـم المطهـر.. كانـت ذراعـاه ترتعشـان بسـبب الجـروح والرضـوض التـي بـدت لي عميقـة، التقـت نظراتنـا فأشـحت بوجهـي عنـه خجـلا وتدلـلا!

أخـذ صالـح يتماثـل للشـفاء ويسـتعيد قوتـه تدريجيـا، فتأملتـه مليـا، لاح لي وسـيما وأنيقـا في غـير ابتـذال، اسـتدرت فالتقـت نظراتنـا، غـرز عينيـه في عينـي باحثـا عـن لحظـة يغـذي بهـا جوعـه، ولأتـلافى الحـرج سـألته بحنـو :

- هل تعرفت على أعضاء العصابة؟

وكمن يستيقظ من غفوة أجاب:

- تمنيت لو عرفتهم جميعا، هل تنوي الانتقام؟!

- لا أبـدا، فقـط أريـد أن أكافئهـم لأنهـم قـادوا خطواتـي إلى هـذا المـكان الـذي ابتسـم لي فيـه الحـظ !

تجمـدت الكلمـات عـلى شـفاهي فأطرقـت خجـلا، شـعرت فجـأة أن الدنيـا تبتسـم لي وتفتـح ذراعيهـا لاحتضانـي، تـشرق شـمس دافئـة تراودنـي أشـعتها، فأفتـح صـدري لمـدارات شـهية ثـم أنزلـق إلى دفـع أحـلام تـضرج حـواسي بنغمـة سـحرية !

قام صالح عن الكرسي وتقدم نحوي بوجه منشرح:

- اسـمحي لي أن أقـدم لـك كمكافـأة متواضعـة عـلى إسـعافاتك عرضـا بـأن نتغـذى معـا!

لـم أتمالـك نفـسي مـن الغبطـة، وبطريقـة لا يمكـن تخيلهـا قفـزت قربـه ولمسـت يديـه.. لـم أكـن بالرغـم مـن كل مـا حـدث، أتصـور هـذه السرعـة التـي تطـورت بهـا علاقتنـا، فبـدا كأنـي صرت أعيـش حياتـي لهـذا اليـوم: الجمعة العـذراء!

***** * * * *

لقد نمت بيني وبين صالح علاقة صداقة حميمة، تطورت بشكل مذهل، فغدا لحني الفريد حتى أني حفظت فيه كل شيء: خطواته همساته، ضحكاته التي تشبهه في كل التفاصيل، تشنج عضلات وجهه لحظة الغضب، دقاته الخجولة.. كان عادة لا يستعمل جرس الباب، يريد أن يحس- كما قال لي يوما- كراهب يدخل المحراب للصلاة، وأن يشعر بدفء النقرات التي تحدثها أصابعه وبوقع أقدامي وأنا أهبّ لفتح الباب، كان يقول لي دائما: «**إن المباغتة ليست دائما ذات وقع جميل!**»

ظلت طرقاته الهامسة تكتسح فضائي بجنون، تسري في خلاياي فتنتشلني من قاع همومي ثم تقودني مثل فراشة إلى حقول ساحرة أثناء عطلة نهاية الأسبوع، كنت جالسة قرب جهاز التلفاز، سمعت نقرأ على الباب، فتحت فوجدت صالح يقدم لي باقة ورد:

- أقبل هديتك بامتنان !

كان مرتبكا مثل طفل خجول، بقي واقفا، بينما أخذت الورود إلى المطبخ.. أحسست بالجمر يمتد عميقا في عروقي فينكسر جسدي على صدى نبض حالم، أعبر المدى الواسع خطوة، فتورق أغصان العشق في فسحة القلب على غفلة مني:

- هذه الورود من خارج أزيلال، بدون شك.. إنها

جميلــة، أشــكرك.

– احترت، إذ كنت سأختار السكر على الورود؟

– وما لك جاي تعزي؟!

– لا فقــط لأن للســكر طعمــا خاصــا، والمحبــة في ثقافتنــا تجســد دائمــا بالســكر: العــزاء المصالحــة، الخطبة، الــزواج.. كل شيء، فالحــلاوة تذيــب العــداوة كمــا يقــول المثــل، ثــم إن العيــب الوحيــد في الــورود أنهــا تذبــل داخــل المزهريــة، فيمــا الســكر تــسري حلاوتــه في جميــع الخلايــا.

– ما هذا التفسير البطني للجمال؟!

– صدقينــي، إن أقســى مشــهد يوجعنــي هــو رؤيــة البراعــم والزهــور النــضرة وهــي تفقــد تألقهــا، ويعتليهــا الشــحوب داخــل المزهريــة!

صمتــت مليكــة بغتــة، بــدت كمــا لــو أنها تطــارد أفــكارا شــاردة في قلــب العتمــة، ثــم مشــت نحــو المطبــخ متثاقلة:

– اعتــذر يــا طوبــة، لقــد امتصّنــا الحديــث.. اســمح لي أن أُعــد كأس قهــوة، أوقفــتُ شريــط التســجيل وتابعــتُ بنظــري جســدها الممتلــئ. كانــت تمــشي بتثاقــل مــادة بطنهــا المنتفــخ إلى الأمــام، متحسســة بيدهــا اليمنــي الوجــع الــذي يتســلق ظهرهــا.. اندهشــت كيــف لــم أنتبــه منــذ اللحظــة الأولى للقائنــا

إلى أنهـا حامـل، تـرددت في معرفـة حقيقـة الأمـر، لكـن ولكي لا أثـير شـجنها غضضـت الطـرف عـن المسـألة ورحـت أسـتقصي أثـاث الغرفـة، مـن جهـة البـاب حتـى الشراشـف المقابلـة لمدخـل البيـت: دولاب الملابـس، السريـر الأنيـق، الأريكـة المقابلـة للمائـدة، المشـجب، الـوزرة المعلقـة عـلى البـاب وقـد انتـشرت عـلى كمهـا الأيـسر بقـع للـدواء، المنضـدة التـي رصـت فوقهـا بعـض الكتـب والمجلـدات بشـكل أنيـق.. وفوقهـا مباشرة رسـت لوحـة يتوسـطها هـلال أحمـر، رجحـت أنهـا دبلـوم تخرجهـا مـن مدرسـة المرضـين، تطلعـت إلى الجـدار حيـث انتصـب إطـار صـورة، اقتربـت منـه، إنهـا صـورة صالـح بابتسـامته الحالمـة ووجهـه الـذي تشـع منـه نظـرة تائهـة.. ظلـت سـمات الطفولـة باديـة عـلى سـحنته، وذلـك الميـل إلى الانطـواء حيـث كانـت تصيبـه حـالات شرود، يسـبح إلى مناطـق ظلـت مجهولـة لـديّ، كان واثقـا في البدايـة مـن جدارتـه وحلمـه إلى درجـة الغـرور والتعـالي، لذلـك كان يحـب المغامـرات المشـبوبة بالمجازفـة. كانـت تسـتثيره أتفـه الأسـباب وتؤثـر عـلى حزمـه ورزانتـه، تطلعـت إلى الصـورة فخيـل إلي كأن صالـح يمنحنـي تأشـيرة عبـور نحـو مناطـق الصمـت لمقاومـة الزمـن الـذي يـسرق الحلـم والذكـرى !

«الســاعة العــاشرة ليــلا، الحــرم الجامعــي مطــوق بقــوات الســيمي والجــو مــليء بالتوجــس والرعــب، في تلــك الليلــة التــي غــاب عنهــا وجــه القمــر، وفي غرفــة ضيقــة بحــي لازاري، كنــا عــشرة طلبــة.. وجــوه ســاهمة، وأعــين ذابلــة شــفها الســهر

والجـوع والخـوف، وصمـت لا يخترقـه إلا صـوت أميمـة الخليـل: (يـا دامـي العينـين والكفـين/ إن الليـل زائـل/ لا غرفـة التوقيـف باقيـة/ ولا زرد السلاسـل/ وحبـوب سـنبلة سـتملأ الـوادي سـنابل...)، كنـا نبحـث عـن خيـط أمـل يسـيج أحلامنـا مـن الانهيـار.. خضنـا نقاشـا صاخبـا حـول مرحلـة مـا بعـد التصعيـد وسـبل اخـتراق أسـوار الجامعـة في محاولـة لتحصـين المكتسـبات الطلابيـة في تلـك السـنة الحمـراء، اختليـت بصالـح فقلـت لـه بصـوت مختنـق:

- كل شيء ذهب سدى.. إننا نصل مرحلة الانهيار!

رماني بنظرة عتاب وقال بثقة زائدة:

- لسـنا وحـدنا في السـاحة، خلفنـا جماهـير العمـال والفلاحـين والكادحـين..

- نتصـور هـذه الجماهـير مثـل كتلـة متجانسـة، تتحـول إلى تيـار قـوي يتدفـق مـن الجامعـة والمعامـل والبيـوت نحـو الشـوارع، فنصـل إلى سـدة السـلطة.. يـا لغباءنـا التاريخـي، في كل مرحلـة علينـا أن نبحـث عـن مشـجب أو حلـم جديـد. تأمـل جيـدا الخـوف الرابـض في الأعـين والدمـوع المتلألئـة بخجـل في المآقـي !

- شيء طبيعـي، ففـي لحظـات الرعـب تحـضر كل اللحظـات الجميلـة: ذكريـات الطفولـة، وجـه الحبيبـة، اشـتهاء توسـد ضفائرهـا المخمليـة وذراعهـا البضـة، ورائحـة الأم

الطيبــة.. كل شيء يحـضر قاســيا يحمـل خــرس الأشــياء خــارج الظـل، ويـنـير مسـارات دروب غامضــة. كيـف تريـد في مثـل هــذه اللحظــات المرعبــة أن لا تمتلــئ الذاكــرة بــكل حركــة جميلــة وبســمة فرحــة !

مكثــت أنظــر إليــه مرتابــا مــن تفاؤلــه، فارتفــع صوتــه مصحوبــا بقهقهــات مجنونــة:

- يجــب عــلى المــرء دائمــا أن يُخفــي داخلــه طاقــة هائلــة مــن الســخرية وفي اللحظــات التــي تجتاحــه مثــل هــذه الأزمــات التــي تؤرقــه، يطلــق الابتســامات مــن قفصهــا كفراشــات بيضاء لتعديــل مصــير الأشــياء والعلاقــات!

كنــت أحــس بوجــع الانكســارات القادمــة، فقلــت بلهجــة حزينــة:

- يبدو كأننا ننقب عن شيء يستحيل العثور عليه !

- ها هي لحظات الانهيار تعاودك من جديد !

- بــل واقعيــة ســليمة، يجــب أن نعلــن بجــرأة بيننــا أن نتعلــم النقــد الذاتــي لا الدجــل العقائــدي، لنقــول بصــوت مرتفــع: إن التطــرف هــو الخطــوة الأولى نحــو الســقوط والتهــور هــو أقــصى درجــات الســذاجة والجبــن، لا يجــب أن نهــدم كل شيء في لحظــة نــزق، إن القمــع وحــده ليــس مــبررا لمــا وصلنــا إليــه.. صدقنــي يــا صالــح، إن القضايــا الكــبرى تصبــح أشــكالا بهلوانيــة أو مجــرد فزّاعــات تســتدعي الشــفقة أو الســخرية،

خاصة إذا بقيت مجرد حلم أو شعار أضخم من أن تقوى الهامات المدنية على حمله إلى أقصى مدى !

- إن الإنسان عندما يكف عن الحلم يسقط في مستنقع اليأس، ويعيش على هامش حركية الوجود، بل أجدني أستعير لغة أحدهم لأقول لك: (ليس هناك أشد ألما من أن يحرم جيل من فورة الحماس والتحدي التي تخلقها أوهام المرحلة وحقائقها). ثم إن كل ما حدث، لا يبرر مرة واحدة هذا القتل الوحشي الذي تعرضت له الأجساد، وذلك التشويه المثير للمرارة الذي أصاب أحلام صبية السياسة، كما يحبون نعتنا..

كان يبدو قلقا وساخطا كمن بقي سجين حلم يجره مثل كيس رمل فوق ظهره، خاصة بعد أن وصلتنا أخبار سيئة عن معاناة أسرنا مع البوليس، طبطبت على كتفه، عندئذ قال معتذرا:

- أعرف أنه في لحظات التوتر، لا يمكن تقييم ما يحصل بشكل هادئ وموضوعي، سامحني يا طوبة.. أحيانا كثيرة لا أعرف ما يحدث بالضبط، وأحس بعمق أن المسافة بيني وبينك وبين نزهة تتسع باستمرار، هل من الضروري أن نواصل السير وسط هذا الجنون إلى آخر حد؟

كان ثمة ما يشبه الجرح في كلامه، وبعد هنيهة قال بسخرية ليداري عضة الندم، وليصون حلما يمضي كالسراب في زمان مخبول ومكان أخبل:

- ذات عشاء، قال لي أبي بصوت منكسر يعكس كآبة السنين التي ظل يجرها وراءه كذيل طويل وثقيل:

- لماذا يا صالح، تحملون كل هذا الثقل على كاهلكم، هل تظن أنك وأصدقاؤك ستجنون ثمار تعبكم يوم تبْيضّ وجوه وتسودُّ أخرى؟

وعندما هممت بالرد على شكوكه قاطعني بامتعاض:

- أعرف، أعرف يا صالح، أعرف جيدا، ستقول لي: الضمير والواجب والروح الوطنية وحب التضحية.. كل هذا هراء، أقول لك يا صالح كل هذا زفت، كذب في كذب.. ثق بي، إنها كلمات لا معنى لها، مجرد أحلام توضع كالأقراص المهدئة في فم البلداء، فلا تكن أبلها يا صالح وخذ هذه النصيحة من فم مجرب لا من فم طبيب.. أيام عصرتنا المحنة ودخل النصارى حقولنا ليحولونا إلى أمة من العبيد في عقر دارنا، حينذاك أتى بعض المتأنقين وخطوا فينا باسم الدين والوطنية، كانوا يأسروننا بكلامهم الذي سرعان ما كانوا يتركونه خلف ظهورهم، إذ ما كانت تحين ساعة الجد حتى يتسللوا إلى جحورهم كالفئران.. وها أنت ترى أنهم اليوم هم الوطنيون الحقيقيون، تشاهد صورهم في التلفاز وفي الانتخابات حتى أصبحنا نترحم على أيام فرنسيس!

صمت برهة ليعيد أنفاسه، ثم استطرد بتهكم بين:

- مرة كنت أحمل مسدسا، وتعرف معنى حمل

السلاح أيام الاستعمار، يجب أن يكون لك كبد كالحجر أولا، كنت سأحمله لخلية مكلفة بتنفيذ هجوم على مقر الضابط العسكري، وقد ألقوا عليّ القبض، استغربت كيف اكتشفوني والعمل قمت به في منتهى السرية بين أعضاء خليتي، أتعرف من يكون البركاك الذي وشى بي، إنه الحاج زروال المسعودي!

بهتت لمّا رن الاسم في أذني، الحاج زروال أكبر أعيان المدينة ورئيس المجلس البلدي و...، وختم أبي قوله بيأس ملموس:

- ما كاين لا نضال ولا عبّو الريح!

هذه الحكاية ظل أبي يرددها على مسامعي عشرات المرات، وفي كل مرة ينسي أنه سبق أن حدّثني بنفس الحكاية، لدرجة أني أشك في أن تكون قد وقعت لأبي بالذات، وأنه كان يقول ذلك ليثنيني عما كنت أخوض فيه!»

***

وضعت مليكة فنجان القهوة أمامي وعلقت:

-إنه فنجان صالح المفضل..

ارتعدت قليلا لمؤاخاة شفتين بدتا كأنهما وشمتا على الفنجان إلى الأبد، ولأداري انزلاقي إلى كهوف تزهر بأصوات وصور أشباح ضيّعتها الدروب الملتوية لخيوط

الوهـم السـاهر في الأحـداق، قلـت بأسـى:

- أعتذر إن كنت أثير قلقك؟

رشفت من فنجانها وقالت مبتسمة:

- كـنا نجلـس معـا، نتقاسـم الليـل بالتسـاوي.. أَحـبّ دائمـا أن يجلـس قريبـا مـن فنجـان قهوتـه، يديـر الـكأس في جبـة الطسـت ثـم يـشرع في الحكـي.. يمكـن أن أقـول إن صالـح ليـس سـوى منتـوج خيـال امـرأة ظلـت تنتظـر أحلامهـا قرونـا طويلـة وأول رجـل صادفتـه في هـذا القفـر ألبسـته صفـات فارسـها، ألا يقولـون، خفقـات قلـب المـرأة تبـدو مـن كفيهـا، سـمّ صالـح إذن مخلوقـا أنتجتـه يـداي.

ارتحـت لهـذه البهجـة التـي امتطـت سـحنتها حتـى تـوردت وجنتاهـا، كانـت مسـكونة بإيقاعـات طقـوس خاصـة، فجئـت أنـزع عـن جسـدها جنـون الصمـت وأجعلهـا ترقـص عـلى مـدى هذيانهـا عابـرة حواجـز وأسـلاك الزمـن الـذي يـدور عـلى نفسـه كأفعـى.. وجريـا وراء متاهـات الحكايـة ضغطـت عـلى زر آلـة التسـجيل، فاسـتأنفت مليكـة حديثهـا بهـدوء شـجعني عـلى الدفـع بدفـة الحكـي نحـو الأماكـن السريـة:

- توطـدت علاقتـنا وتوغّلـت في شـعاب عميقـة، إذ ظـل عشـق صالـح يخصبنـي مثـل نهر، فـصرت ألهـث وراءه ولسـت

أدري مــن أي قــوة جاءنــي الإصرار عــلى تملكــه، لــم يكــن الزواج هــو مــا يشــغل بــالي، ولــو أن هــذا حقــي الطبيعــي، بــل ببســاطة، لأن صالــح قــدم لي الإحســاس بالحيــاة فكنــت هبتــه ومنحنــي القــدرة عــلى الشــعور بحقــي في الوجــود، لــم أكــن أســتطيع التفكــير لحظــة في احتجــاب شمســنا، إذ كان يهمــس في أذنــي:

- كيــف يمكــن أن أفقــد نعمــة منحتنــي إياهــا الســماء في لحظــة كــرم نــادرة!

كان صالــح لــين الطبــاع وفي نفــس الوقــت بــدا لي غريــب الأطــوار، أتذكــر مــرة زارنــي في وقــت متأخــر مــن الليــل، كان مخمــورا وعصبيــا، فخاطبنــي بصــوت خشــن، لــم أعــد أتذكــر مــاذا كنــا نناقــش بالــذات.. بلــغ بنــا الجــدال أوج احتدامــه دونمــا ســبب معقــول، فــضرب بكفــه عــلى الطاولــة حتــى تدحرجــت الكــؤوس عــلى الأرض- ســتتضح لي أســباب هــذا الحــادث الكئيــب وتفاصيلــه فيمــا بعــد- ثــم صرخ في وجهــي.. ارتعــدت خوفــا إذ أذهلنــي صراخــه، علتــه هســتيريا عاصفــة فوثــب عــليّ، رفســني بقدمــه وأتبــع ذلــك بضربــة مــن رأســه، ثــم لــوّى معصمــي وجذبنــي مــن شــعري.. شــتمته بقــوة، فوضــع يــده عــلى فمــي يريــد أن يكتــم أنفــاسي، أحسســت بالاختنــاق فلدغــت أصابعــه.. تلقيــت لكمــة عــلى عينــي فدفعتــه بــكل مــا تبقــى لــدي مــن قــوة ثــم ســحبت بدنــي مــن تحــت ذراعــه، توقّــدت عينــاه وتطايــر الزبــد مــن فمــه فــصرخ

كالمجنــون، عــدت متقهقــرة إلى الخلــف، ثــم توجهــت مسرعــة نحــو البــاب، كنــت أنــوي الفــرار خــارج البيــت، فحمــل قنينــة نبيــذ وقــذف بهــا نحــوي، كادت تصيبنــي لــولا ألطــاف اللــه، هرعــت كقطــة مذعــورة إلى المطبــخ وحملــت ســكينا. توقــف صالــح وهــز رأســه ثــم أطلــق صرخــة مدويــة وغــرق في نوبــة ضحــك هســتيري، تســمّرتُ في مكانــي وقــد تجمــد الــدم في عروقــي. فيمــا ظــل يــصرخ وعينــاه تقدحــان شرا، ثــم جثــا عــلى ركبتيــه، وغطــى وجهــه بيديــه فأحسســت بمزيــج مــن المشــاعر الغامضــة اتجاهــه.. دنــوت منــه بحــذر ومــررت يــدي عــلى شــعره فتلاشــى بيــن ذراعــي، حضنتــه وطوقــت عنقــه حتــى أحسســت بأنفاســه تــسري في مســام جلــدي فتثــور أعضائــي، كان هنــاك مــا يشــبه النشــيد الــذي ينهــض مــن رعشــة الصمــت ويحمــل خــرس الأشــياء إلى سريــر نومهــا، رفعــت رأســه بــين أناملــي وغمرتــه بقبلــة أدخلتنــي في انتشــاء وأنســتني كل تهديداتــه، كان صــدره يلهــث، وفجــأة أجهــش ببــكاء صــارخ مثــل طفــل سُرقــت لعبــه، بكــى بــكاء مــرا ولــم يكــن بوســعي إلا أن أتجــاوب مــع بكائــه.. اكتشــفت حينهــا أنــه لا مفــر مــن أن نلتقــي، أنــا وصالــح أغنيــة واحــدة!

كان يدمــدم بشــفتيه، قــال كلامــا كثــيرا لــم أميــز منــه إلا عبــارة:

– سرقوا مني عمرا، وها هم يطاردون حلمي!

أجلســته فــوق الأريكــة ومســحت الدمــوع التــي التمعــت

علـى خـده، ولمـا اسـتعاد بعـض هدوئـه أسرّ إلي بمـا يعانيـه فعرفـت سر اكتئابـه.. سـاعدته عـلى القيـام إلى المطبـخ، غسـل وجهـه بالصابـون فناولتـه المنديـل، شـكا لي مـن صـداع يؤلـم رأسـه فقدمـت لـه حبـة أسـبرين وكأس عصـير برتقـال، رشـف منـه رشـفتين ثـم سـلمني الـكأس فقدتـه نحـو الغرفـة.. كان يبـدو مثـل جنـدي مهـزوم في معركـة غـير متكافئـة، كان الجبـين المتطلـع إلى نجـوم السـماء جريـح كبريـاء مغتصبـة فيمـا ظلـت عينـاه المحمرتـان تخيفنـي وتعذبنـي، ففاجأنـي بصـوت مبحـوح:

- هل أنت نادمة؟

-على أي شيء!

- على علاقتنا.. إني لا أستحق عشقك!

دقـت كلماتـه أجـراس اللـذة النائمـة في ثنايـا مليئـة بالفتنـة والسـحر، أحاطنـي بيديـن معشوشـبتين طوقتـا عنقـي كطـوق الياسـمين، ثـم حـطّ شـفتاه عـلى شـفتي كمـا يحـط زوج حمـام وظـل يحلـم بالـورد وبالصبـح الـذي لـم يسـتيقظ مـن سـهرة التعـب ونشـوة السـكر، وأخـذ يرتـب أمانيـه عـلى أنامـل يـدي، ثـم يـشرد قليـلا كمـن عثـر عـلى حلـم أو ذكـرى وديـة فيفاجئنـي:

- هـل يجـب أن نسـلم عشـقنا للـرياح الموجعـة القادمـة

مـن ضمـور الذاكـرة؟

- عشـقنا ليـس وليمـة يـا صالـح ولا طعـم لنـيران الأحـلام الضائعـة.

- ولكن كيف يمكن للشمس أن تنهض دون سماء؟

- كمـا الثريـا يـا حبيبـي، ينهـض حبنـا مـن شرفـة شـهية!

اتـكأت عـلى ضحكـة صـدرت مـن فجـوات قلبـه لأمحـو الـرداء المعتـق عـلى جلـدي، فتابـع:

- أنـت لسـت امـرأة.. أنـت موجـة موقعـة عـلى أنغـام موسـيقية رائعـة بصخبهـا !

كل غضبنـا كان يـذوب مثـل فـص الملـح، حـك شـعر رأسـه كأنـه يسـتحث خـروج فكـرة جامحـة مـن تحـت جلـدة شـعره، ثـم عانقنـي فالتحـم جسـده بصـدري:

- إنـي أومـن بالضيـاع في حـضرة جسـدك، هـذا التنـين الـذي ابتلعنـي منـذ الرؤيـة الأولى، فتيقنـت أن نظـرة واحـدة يمكـن أن تقلـب تاريـخ المـرء رأسـا عـلى عقـب !

كانـت الأنـوار مطفـأة، عـلى وجـه السريـر عـلا الغطـاء الملـون رأس نمـر، خطـوت فـوق الغطـاء، فجذبنـي صالـح مـن ذراعـي محـذرا:

- انبهك، حذار أن يفترسك هذا النمر؟

انخلـع قلبـي مــن شــدة الفــزع، ثــم انفلتــت منــي ضحكــة مدويــة:

- أتريــد أن أفــر مــن التمــر لآتــي إليــك أيهــا الأســد، حــاضر؟!

(أيها الحبيب الغالي على قلبي

عظيمة هي مسرّتك حلوة كالعسل

طيبة كالخمر،

أيها الليث، الغالي على قلبي

لقد أسرتني، أقف مرتجفة أمامك،

أيها الليث، لو تحملني إلى الخدر

يا حلوي الغالي، بودي لو أغتسل بالعسل

في الخدر الممتلئ عسلا

لأستمتع بحسنك المهيب

أيها الليث، فلأمنحك ملاطفات يدي)

تلاشــيت بحنــو بــين ذراعيــه، فأحسســت في حضنــه

بالأمــان، فيمــا ظلــت رائحــة الخزامــي والقرنفــل والزعــتر البلــدي النابتــة عــلى ضفتــي صــدره مثــل وســادة مــن ريــش الفــراخ، تطفــئ نــار القلــق داخــل كيانــي وتذيــب توتــري، غمرنــي بجســده مثــل طــير يحمــي فراخــه مــن الــبرد والعــدو المحتمــل.. لقــد كان جســده مــأوى لأحلامــي!

كان صالــح أكــبر حمايــة لي في هــذه الأجمــة، فأخذ عشــقي لــه يُعــرّش في حدائــق القلــب ويغــذي حــواسي كلهــا، إذ هــو مــن أيقــظ في ذاتــي ذلــك الانتعــاش الدفــين وصَعّــد الرغبــة المــوءودة في جســدي، فأخرجنــي مــن زخــم العلاقــات الثقيلــة، وفتــح عينــي عــلى عالــم الحــب والجمــال.. عندمــا غــاب عنــي لحظــة مرضــه، فزعــت مــن النــوم فــوق المــلاءة البنيــة.. كلمــا ألقيــت بــصري عــلى غطــاء السريــر، لاح لي رأس النمــر الموســوم بســخرية لاذعــة تــزداد قــوة كل ليلــة !

***

جلســت بالمقهــى بعــد أن غــادرت الفنــدق، كان الأصيــل يحتــضر وأســتار الليــل تهبــط وئيــدة، شــعرت بنســمة بــرد، فــترددت في الرجــوع إلى الفنــدق لحمــل ســترتي.. أخرجــت مــن محفظتــي أوراقــا أتلهّــى بهــا إلى حــين موعــد لقائــي بمليكــة، تأملــت خــط صالــح، كانــت مشــاريع رســائل، مســودّات لــم تســتو بعــد، أقــرأ رســالة كُتبــت بخــط مرتبــك عليهــا الكثــير مــن التّشْــطيبات «إنــي لا أملــك مــن دنيــاي إلا مــا أســتر بــه ســوءتي، وأقيــم بــه أودي، ثــق يــا طويــة، إنــي إذا أصدقتــك

الحديث عن نفسي فقد تأْسى لحالي، وما أنا فيه من ضنك وشظف في العيش.. وقد شقّ علي أن أفني عمري بلا طائل، ولست على ثقة مما يخبئه لي غدي، ستقول لي على لسان الشاعر:

ما فات فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

فلا تتعجل حتى يقضي الله أمرا كان مقضيا (...) جنّبك الله المحن إذ ماذا يعني الكيس مع الأقدار المُجحفة؟» ثم أقرأ أخرى: «إعلم يا أخي، أفرج الله كربتك وأزال غمتك، أنني بعد أيام اليبوسة والقحط، انقادت أموري إلى الاستواء، وتحسنت مواقع صلتي بأهل القرية الظرفاء، فوقعت في نفوسهم موقع الأقرباء الأتقياء، ثم إني أصبت عند شيوخها منزلة الحبيب وحظوة النجيب، فصرت أعرف باطن أمرهم وما خفي في غابر دهرهم، مما أهّلني إلى أن أفتي فيما شكل عليهم بما لدي فيه علم، وأرشدهم فيما عن لي من فكر، ورجح عندي من رأي(...) لقد غاب نحسي واستقر نجمي، فعلت همّتي (...) وقد عقدت العزم يا أخي الأعز أن أبتك همي وأبسط أمامك ما يدور بخلدي، فلقد أصبحت مداوما على بيوت الدعارة، أتيه في المغامرات المليئة بالشبق دافعا عني سوء الضجر، راكبا في ذلك كل صنوف الخطر، فأُصادق الرذيلة حين تهجرني فضائل الأمكنة وصداقة الكائنات»..

***

استقبلتني مليكة بحفاوة، فهمست في أذنها:

- اسمحي لي أن أفض سكونك وخلوتك.

- لا بـأس، فقد قـررت الليلـة أن نسـدل السـتار عـلى هـذه اللعبـة البالغـة التعقيـد، والتـي سـمّيتها حكايـة!

- تذكـري أننـا لسـنا إلا أطرافـا مشـاركة، وليـس لدينـا هـذا الحـق!

- معـك حـق، فمهمـا حاولـتُ لـن أسـتطيع وضـع حـد لحكايتـي مـع صالـح.

سـكتت برهـة، فوضعـت آلـة التسـجيل أمامهـا محفـزا إياهـا عـلى الـكلام، سـلمتني كأس شـاي واسـتأنفت حديثهـا:

- كان صالـح الغيمـة التـي أخمـدت الشـبق المشـتعل في كيانـي، عندمـا يصفـو ذهنـه ونجلـس لتخطيـط مشـاريع ظلـت مثـل قصـور مـن رمـال، سرعـان مـا يُبـدي عـدم اكتراثـه، كنـت أرغـب في اسـتمرار علاقتنـا إلى أقـصى مداهـا، صدقنـي، فكمـا قلـت لـك بالأمـس، ليسـت المسـألة مسـألة حـب تـوج بـزواج.. فقـط كنـت أريـده أن يبقـى بجانبـي إلى الأبـد، لكـن مزاجـه كان يوقـظ في قلبـي الرهبـة والأسى، تملّـك مسـتحيل الجسـد زئبقـي، كان يتحـاشى الدخـول معـي في مثـل هـذه النقاشـات وعندمـا أصر عـلى التعـرض لموضـوع مثـل هـذا، ألمـس في ملامحـه جراحـا ظـل يخفيهـا عنـي مـدة مـن

الزمــن، ســألته مــرة:

– لماذا لا تفكر في الاستقرار أن يكون لك بيت؟

اتخذ كلامي هزءا، ورد بسخرية:

– وهــل أنــا مــشرد، مرمــي في الشــوارع، فأنــت تعلمــين أن لي بيتــا؟!

– أين؟

– في قلبك!

– أقصــد ألــم تفكــر في أن يكــون لــك بيــت خــاص مثــلا، بيــت.. يصبــح وطنــك الصغــير؟

غــاص وســط الصمــت فيمــا ظلــت عينــاه تلتهمانــي بقســوة، كان جالســا فــوق الأريكــة نفســها حيــث تجلــس الآن، يراقبنــي وأنــا أقلــم أظافــري وأحكهــا بمــبرد، كانــت دفقــة مــن نــور تــضيء المطفــأة أمامــه فتعكــس شــعاعا يغســل وجهــه النــدي، تنحنــح محــاولا اســتعادة رباطــة جأشــه وفاجأنــي بصــوت حزيــن:

– تصــوري يــا مليكــة، عندمــا أريــد أن أعيــد إلى ذهنــي معنــى الوطــن الآن، أحســه مثــل مــرآة كبــيرة اصطدمــت بالجــدار فتناثــرت شــظاياها أو مثــل ســيارة في حادثــة ســير مؤلمــة عُجنــت مــن الخيانــات والسفســطة والكــذب ومواســم

الربــح والخســارة، والقهــر والمــوت، والــدم والكبــت، لوحــة رديئــة لرســام مبتــذل!

صمــت برهــة، أشــعل ســيجارة ثــم اســتأنف حديثــه بيقينيــة مفرطــة:

- الوطــن ليــس مجــرد بنــاء، وليــس صفقــة.. إنــه إحســاس يعطيــك الــدفء والإحســاس بأنــك لســت غريبــا.

- ولكــن لكــي نحــس بالــدفء، لا بــد مــن مــأوى.. فــلا وطــن بــدون مــأوى!

- لمــاذا نقــرن الوطــن بالجغرافيــا؟ الوطــن ليــس إطــارا جامــدا، إنــه شــعور فيــض روحــي يغمرنــا بالأمــن والطمأنينــة.

فقلت بعد أن وجدت نفسي متورطة في حوار لم أقصده:

- تعلمنــا أن الوطــن يمتــد عــلى الخرائــط بحــدود جغرافيــة واضحــة!

- ولكــن مــا الوطــن بالنســبة لهــؤلاء الشــباب الذيــن يجتــازون حــدود هذه الجغرافيــا؟ يعــبرون البحــر داخــل قوارب المــوت الــذي يطفــو بالقــرب منهــم متمســكين بخيــوط مــن الوهــم لوطــن متنقــل يعطيهــم الإحســاس بالوجــود، هــم هنــا داخــل الجغرافيــا خــارج الوطــن، يحلمــون بغســل الصحــون في فنــادق ومقاهــي أوربــا والنــوم عــلى الأرصفــة مــع القطــط

السـائبة!

- ولكـن مـع ذلـك فـإن شـعور الغربـة والحنـين يظـل ملازمـا لظلهـم!

أحسسـت كأنـي أفتـح داخلـه جرحـا يتـوارى كالجمـر الـذي يعلـوه الرمـاد فحاولـت أن أعيـده إلى موضوعنـا الأول، لكـن بـدون جـدوى.. علـت وجهـه حمـرة مشـعة، فهـزّ رأسـه نحـوي كأنـه يقـول: «لـن أسـقط في الـشرك، يـا مليكـة!» ثـم تابـع بتوتـر:

- مـا جـدوى أن يمتلـك الإنسـان بيتـا إذا كانـت أحلامـه مطـاردة؟ مـا قيمـة أن يسـعى إلى الاسـتقرار في مـكان إذا كانـت خلايـا دماغـه تطاردهـا لعنـة التشـظي؟!

خفـت أن يصبـح نقاشـنا مصـدر حـزن، فقمـت إلى جانبـه ولثمـت شـفتيه اللتـين بدتـا يابسـتين، وعـلى ضـوء الشـعاع المتسـلل مـن زجـاج النافـذة تـلألأت حبـات مـن الدمـوع حـاول أن يداريهـا قائمـا إلى الحمـام، فتمسـكت بـه وأجلسـته إلى جانبـي، ثـم أخـذت أداعـب شـعيرات شـاربه:

- واش ما غاديش تزوّل هاذ الشارب المعكاز؟!

تركـت كلماتـي ترحـل إلى مسـامعه ببـطء، لكنـه بـدا منشـغلا بالموضـوع نفسـه:

– أحيانا أريد أن أكون مثل الريح دائم التنقل، انظري إلى الورود المنحنية في إجلال لسلطان الريح العارف بأسرار الطبيعة، إن حرية تنقله هي التي جعلته قويا متجبّرا، حتى الأشجار العملاقة التي تجثم فوق الأرض، لو لم تمل برأسها، وتتعطّف لتُكيف نفسها مع هبوبه.. لو أعلنت رفضها لسلطته لأقلعها أو لوّى عنقها !

صمتت مليكة، ظننتها تحاول أن تفر من وصف التفاصيل المعتمة للحادث لتضع حدا للحكاية، فقلت لها:

– في اعتقادي يا مليكة أن انهيار أحلام الإنسان في وطنه، مكانه الأول الذي شهد ولادته واستياءه من طموحاته، تؤدي إلى بناء مشهد أسطوري لوطن لا يوجد إلا في ذهنه فيريد النزوح إليه بأي ثمن: ماض بشع مخيف ومستقبل يستحيل تلمس خيوطه الأولى، كل هذا يترجم بأمل كثيرا ما يكون خادعا، وقد لمست في صالح ذلك الارتداد والرحلة النكوصية نحو الرحم الطبيعي كلما كبرت الانكسارات والجراحات التي يولدها الرحم الاجتماعي في سياق تحولاته التي لم يستطع ذهن صالح أن يستوعبها، وهو الطفل الذي ظل يركض نحو سماء بعيدة يعلق على أفقها كل الأحلام!

– نعم، وهو ما فسره لي صالح في مناسبة أخرى، فقد اهتز مفهومه للوطن مرتين: «المرة الأولى عندما وجد نفسه مع أسرته في الشارع صباح يوم بارد:

«لا أفهم لماذا لا زال هذا الحادث عالقا بذاكرتي، كنا نعيش بحي هادئ بفيلاج طوبا بوجدة، رحل إليه أبي مباشرة بعد نُزوحه من أحفير، حيث اكترى منزلا فيه عشت طفولتي، ونبتت أحلامي مع مرور الأيام داخل غرفة كنت أنام فيها أنا وأختي زهرة، كان يلذ لي أن ألعب بمصراعي الباب، أتعلق ممسكا بالقفل وأدور في مرح.. في أركان هذه الغرفة نمت أيامي المليئة بالدفء وعلى جدرانها خططت خربشاتي الأولى، تلك الرسوم اليانعة التي كانت تنعشني فأقيم معها حوارا يُضحك أفراد أسرتي. في تلك الغرفة اللامتناهية رغم ضيقها ورداءة هندستها، كنت أمرح مثل غزالة باحثا بأسئلتي عن مجهول ما، فيما ظل العالم من حولي ينمو بأسراره.

كنت آنذاك في الثامنة من عمري، وقد قضت أسرتي في هذا البيت نصف عمرها، بدأت أحس بشيء ما يتغير من حولي إذ كانت النقاشات تحتدم من حولي بين أبي وأمي، فلم أُعر الأمر اهتماما يذكر، لأن لغة الكبار كانت تبدو لي ملغزة ولا تخلو من تشويش.. وفي يوم ممطر، كنت أستعد للذهاب إلى المدرسة، عندما سمعنا طرقا صاعقا، هرعت أمي لفتح الباب بعد أن ارتدت سترة رأسها، فإذا بالمقدم مرفوقا بثلاثة مخازنية يستفسرون عن أبي!

لم أذهب يومها إلى المدرسة إذ خضنا معركة ضد تنفيذ أمر السلطة بإفراغ السكنى، كانت أمي تنوح وتندب وأختي تتمرغ في التراب وتصيح، ارتسمت هذه الصور في

عينـي إلى الأبـد، كان المخازنيـة يُخرجـون أثـاث المنـزل ويطوحـون بـه في الخـارج كيفمـا اتفـق، فشـتتوا لعبـي ودفاتـري، وكـسروا المـرآة التـي اشـتراها أبـي بفـرح مـن سـائح أجنبـي، والطاولـة والسريـر والأغطيـة التـي تبللـت بـرذاذ المطـر وتلطّخـت بالوحـل، وحـين اعترضـت أختـي أحـد المخازنيـة الـذي بـدا مثـل المـارد بعينـين ضيقتـين وشـاربين معقوفـين كمقـود دراجـة، جذبهـا مـن شـعرها، فشـتمته بعنـف ولدغتـه مـن فخـذه، ولـم أسـحب أسـناني مـن لحمـه إلا عندمـا ركلنـي في بطنـي، ثـم فتـل ذراعـي وطرحنـي أرضـا، فوثبـت عليـه أختـي زهـرة وخدشـت وجهـه بأظافرهـا، فوجّـه إليهـا لكمـة كادت تصيبهـا في صدرهـا لـولا تدخـل مخزنـي أخـر...

كان يومـا عصيبـا تـرك ندوبـه موشـومة كالجـرح في ذاكرتـي، منـذ ذلـك اليـوم لـم يعـد لـدي الوطـن جـدارا ثابتـا، غرفـة أو بيتـا، وأصبحـت أحمـل وطنـا متنقـلا بـين أضلعـي! صدقينـي يـا مليكـة، فـلا زالـت رائحـة غرفتـي الأولى عالقـة بأنفـي، لأنهـا الأفق الـذي تفتّحـت عليه عينـاي فحضـن حماقتي ونزقـي.. هـذا الحـادث ترسـخ في ذهنـي بفعـل التغـيرات اللاحقة التـي صاحبـت تغيـير مـكان إقامتنـا!»

وفي المـرة الثانيـة، بعـد تجربـة الاعتقـال وانكشـاف الخيانـات وانقـلاب الأحـوال، قال لي بحرقـة وأسى: «انهـار الوطن- الـذي كنـا نشـيده جماعـة - فـوق رؤوسـنا، هـدّت ركائـزه مـن الأسـاس، فكومـت أوهامـي عنـه داخـل كيـس ملـح...»

في أواخـر شـهر يونيـو جـاء صالـح خـبر انتقالـه إلى

ضواحـــي تـــازة، فانتابتـــه مشـــاعر متناقضـــة تتأرجـــح بـــين الفـــرح والحـــزن، طلـــب منـــي آلـــة التصويـــر وعـــرض عـــلي أن نقـضي نهايـــة الأســـبوع بالقريـــة.. فوجئـت عندمـــا فتـــح الغرفة، إذ كان قـــد حـــزم أمتعتـــه وعندمـــا ســـألته أجابنـــي بفـــرح:

- أخـــر ليلـــة بـدوار القنادلـــة، ســـوف لـــن أنـــام هـــذه الليلـــة التـــي اكتمـــل بدرهـــا، ســـأحرص عـــلى اســـتغلال كل دقيقـــة مـــن الزمـــن المتبقـــي لوجـــودي هنـــا.. لا بـــد أن أهتبـــل كل لحظـــة، فـــأي إهـــدار أو تبديـــد للوقـــت ســـيكون مـــن بـــاب عـــدم العرفـــان بالجميـــل، ســـوف أخـــرج لأســـتطلع وجـــود الناس والجـــدران والحقـــول والحيوانـــات، تحدونـــي رغبـــة قويـــة لمـــلء زاد احتياطـــي مـــن محبـــة هـــؤلاء النـــاس، سأستنشـــق كل الهـــواء الـــذي يكفينـــي!

- ولـــمَ العجلـــة، لـــم تـــأزف اللحظـــة بعـــد لـــكل هـــذا الجنـــون!

- أريـــد إبطـــاء هـــذه الليلـــة وإخـــراج الزمـــن اللانهائـــي مـــن حـــدود اللحظـــة المتلاشـــية، ســـأحتلب كل دقيقـــة مـــن لبنهـــا اللذيـــذ!

ظل يلتقط صورا في كل الأمكنة.

- هل لا زالت الصور معك؟ سألت مليكة بفضول.

-لا، لقد احترق «الفيلم» كله.

- جميل!

- كيف؟

- إن أجمل الصور هي التي تحتفظ بها العين!

- بل الذاكرة!

- وهل للغائب ذاكرة؟

- ما أصعب ذاكرة الغياب، ألا ترى بأن وجودك هنا، هو بسبب ذاكرة صالح الذي لولاه لما عرفت هذه البلدة، ولما سمع الناس هذه الحكاية، إذا قدر لها قراء محتملون كما قلت؟

أفرط صالح في الشرب، وجاريته رغم أني كنت أفكر في مساري الشخصي، ومن خلاله مصير علاقتنا بالضبط التي بدت لي في لحظة حزينة كأنها مر السحابة لا ريث ولا عجل.. كان صالح مثل طفل، ظل يغني ويرقص، يقبّلني ويعانقني بقوة، قال لي بمرح زائد:

- ألم أقل لك إنني مثل الريح وسيبقى رحلي دائما معقودا، تطاردني لعنة الصحراء فأنصب خيمتي هنا مدة ثم أنتقل لا أعلم إلى أي جحيم!

صمت لحظة كأنه أدرك جرحي وخمن تخوفاتي، فسألني مبتسما:

- ما رأيك أن نذهب إلى القسم؟!

- ولكن لماذا؟

- لنطل على لعبة الكبار؛ قال ضاحكا.

خفت من شيء غامض فاعتذرت، لكنه ألح علي أن نقضي ما تبقى من السهر في الحقول قرب النهر فلم أعارض.

- ألن توصد الباب؟ قلت له بشبه استنكار.

- لماذا؟!

- خوفا من اللصوص، أو من باب الشعور بالأمن على الأقل!

- إنني أخاف على اللص من هذا البيت!

سرنا بخطى متلصصة كالذئاب وكأننا لا نريد إيقاظ الأشباح النائمة، كانت السماء تتلألأ بنجومها والسحب تركض اتجاه الجنوب فارجة ضوء الألق لعتبات الفجر.. لا شيء غير الصمت الذي يمتزج برائحة الليل فيمتلأ الفضاء برشاقة سحرية، وبين الفنية والأخرى كنا نسمع نباح كلب من إحدى الدور يفضّ سكون الليل الذي ترك أستاره عند قدمي الرمال، فيما ظلت أمواج النهر تفتح الطريق أمام خطواتنا، عبرنا الضفة عبر الجسر وجلسنا بجانب شجرة تين.. كان صالح يجول ببصره

في كل الأنحـــاء، وطفـــق يتأمـــل رقرقـــة المـــاء ســـارحا بعينيـــه في المـــدى الواســـع وراء التـــلال حيـــث تبـــزغ بســـمة الشـــمس، ثـــم التفـــت إلي وعانقنـــي حتـــى اشـــتبك نهـــدي بجســـده البلـــوري:

- إنـــي أريدهـــا علاقـــة عاريـــة إلا مـــن حبنـــا، أن تكـــون مثـــل هـــذا النهـــر مفعمـــة بـــالأسرار والعمـــق اللانهائـــي!

- وأنـــا أحلـــم أن أضـــم الضفـــة إلى الضفـــة ليجـــف النهـــر ويتوحـــد ظلانـــا، ألا تـــرى أن النهـــر أشـــد قـــوة مـــن الريـــح؟ عـــلى الأقـــل فهـــو لا يخطـــئ مجـــراه ويبقـــى وفيـــا لخـــط ســـيره!

بـــدا العشـــب كبســـاط الريـــح ينتظـــر جســـدين انتشـــيا بالرغبـــة، لـــم أتمالـــك نفـــسي، فأطبقـــت شـــفتي بشـــفتيه الناعمتـــين، تضرّجـــت جميـــع حـــواسي بأريـــج شـــهوة فاتنـــة وانتصبـــت حلمتـــا ثديـــي تحـــت لمســـات يـــده، كانـــت قبلاتـــه تغرقنـــي في رضـــاب شـــفتيه، تدخلنـــي إلى مغـــارة سريـــة للحلـــم واللـــذة، حيـــث تنصهـــر أعضاؤنـــا المشـــتبكة في بوتقـــة الزّفـــير، أغمضـــت أجفانـــي لتعبرنـــي أمـــواج الشـــبق المحتشـــدة عـــلى ضفـــاف شـــفتي، صدغـــي، نحـــري.. فتنبـــت عـــلى شـــعاب جســـدي ورود شـــهية.

بـــدا الكـــون كلـــه كلوحـــة مصبوغـــة بألـــوان قـــزح، قـــام صالـــح، تمطـــى قليـــلا، ثـــم تقـــدم نحـــو الضفـــة باختيـــال المأخـــوذ باحتمـــال غامـــض ..لامـــس المـــاء بيـــده، وفجـــأة أخـــذ ينـــزع ملابســـه، رحـــت أراقبـــه وهـــو يتعـــرّى عـــلى شـــعاع

الفجــر، دوخنــي عبــق العطــر الــذي يتضــوع مــن جســده وبــدت ألســنة الضــوء وكأنهــا تنتحــر فــوق أرخبيــل جســمه، حذرتــه:

-إن الماء سيكون باردا وستصاب بالزكام!

لــم يُعــر قــولي اهتمامــا وتقــدم نحــو النهــر، لمــس المــاء مــن جديــد فعلتــه رجفــة، تراجــع قليــلا فاصطفقــت موجــة بقدميــه:

– اســحب قدميــك مــن مــاء النهــر، ستشــتهيك أجمــل موجاتــه!

– أبــي قــال لي: «إن البحــر لا يحــب الغربــاء لذلــك يطردهــم أمــا النهــر، فشــكل ثــان» ...

وبرشــاقة طفــل نــطّ بجســمه واســتلقى فــوق بســاط المــاء:

– يجــب أن أقطــع هــذا النهــر إلى آخــره دون أن التفــت إلى الخلــف!

في فجــر ذلــك اليــوم المشــهود مــارس عــليّ صالــح افتتانــا شــهيا إلى درجــة الهــوس، كنــت أتأملــه بدقــة فيمــا ظــل يتأرجــح أمامــي بقامتــه التــي لهــا شــكل الموشــح، يقــترب منــي حيــث أجلــس، فأتطلــع إلى عينيــه، أبحــث عــن

بسـمة تقودنـي إلى ذاتـه، لاح لي مثـل فـرس يعـبر النهـر، ويداه مشرعتـان كالحنـين.. قطـع صالـح النهـر فأخـذ يشـير لي بيديه مـن الضفـة الأخـرى، بـدا النهـر مثـل جـرح يقـف بينـي وبـين صالـح، جـرح عميـق أقـف أنـا عـلى حافـة أحـد طرفيـه فيمـا يقـف صالـح هنـاك عـلى طرفـه الآخـر، ثـم قفـز بقـوة إلى المـاء.. كانـت لحظـة جريحـة، تلـك آخـر لقطـة يقطفهـا بـصري إلى الأبـد!

ظللـت أتابـع صالـح الـذي اختفـى عـن ناظـري ودخـل في الغيـاب. اقتربـت مـن النهـر، أسـمع النحيـب الـسري للرمـل المحـاصر بالمـاء والصخـر، فصحـت بأعـلى صوتـي صرخـات متقطعـة مزّقـت الفضـاء:

- صالح! صالح؛ ص...اااااالـ......ح...!

ظـل الصـدى يرتـد إلي بـاردا عـبر التـلال والسـهول، كانـت لحظـة مرعبـة، أصبحـت مشـلولة حتـى قدمـاي لـم تسـعفاني عـلى حمـل جثّتـي، فشـلّت إرادتـي وسـقطت مغمـى عـلي.. في تلـك الليلـة كانـت ضفـة النهـر هـي العتبـة الأخـيرة التـي تـوارى فيهـا صالـح في الغيـاب؟

علـت سـحنتها طبقـة سـميكة مـن الحـزن، خفضـت رأسي مداريـا لحظـة حرجـة فجاءنـي صوتهـا بمـرح أكـبر:

- لقد ظلت بذرته تنمو داخلي شيئا فشيئا.

- لا زال هناك متسع للحياة.

قالت ذلك وهي تمرر يديها على بطنها المنتفخ!

انتهى ما جاء في باب «من أحبت رجلا لم تستحسن بعده غيره ممن يخالفه»

فصل الختام

حين اجتزت عتبة بيت مليكة النشيد كانت أقدام المارة قد خفت في الشارع الرئيسي لأزيلال، فيما الأضواء بدت خافتة كما في مشهد مسرحي حزين يضع المرء على حافة أخرى.. عبرت الطريق دون أن ألتفت إلى منبه السيارة التي كادت تدوسني، وحده السائق بدا لي من وراء الزجاج يحرك يديه في حركات طائشة، أحنيت رأسي معتذرا وأتممت سيري فيما ظل صوت مليكة يتشبث بذاكرتي، يجمعني بمسار موجع دخلنا فيه سن اليأس الجماعي بشكل مبكر!

فكرت في بطنها المنتفخ، في تلك البذرة التي تنمو بطيئا لسد شراسة الفراغ وشساعته الموحشة، بذرة تنسل من تشابك السلالات حارة كالجمر، أستحضر صور مدارات غامضة تخلق سر الدهشة الأولى، وتُعمق الارتباط بوجود حميمي أكثر عدالة وأكثر شعرية، حيث لا مكان للغياب. فيما ظلت صورة صالح لا تفارق شاشة عيني.. هل يكون صالح، هذه الوردة التي آخت وشم الجراح والاحتراسات القصوى للمستحيل، قد فهم كل شيء: عواطفه أحاسيسه، العالم الغامض من حوله، الكائنات والأشياء.. لذلك اعتبر بقاءه على قيد الحياة وضعا خاطئا؟ هل استوعب جيدا ذلك الصمت المخادع الذي ظل يغرق فيه

بعيدا عن صدى نزهة، وتلك الغواية المسكونة باختراق الأسوار، والأسئلة التي تذهب إلى أبعد مدى كالرنين أو كأجراس صاخبة تخرق صمت الليل؟ وأفكر: كيف انتقل صالح من الاهتمام بالقضايا الكبرى التي تزن حجم العالم إلى الولع بالتفاصيل الصغيرة؟ أو كما يحب أن يقول: «**لقد كنا نعيش بطريقة ماكروسكوبية**».

ها أنا أتحول من شاهد غائب إلى شاهد حاضر في التباسات مسارات شخوص والتواءات أمكنة قاسية وعنيدة وغامضة ودوخة زمان لم يعد يتسع لكل هذا الزحام من الأحلام.. هل ندفن موتانا جيدا؟ هل نواريهم التراب دون أن يستقروا في أذهاننا ولماذا يسرون على ترك تسجيل ما قالوه وتحليل ما فعلوه لنا نحن الأحياء؟ هل مات صالح فعلا في مدارات غامضة؟

أقترب من محطة الحافلات رويدا رويدا، ثم أغرق في الزحام.

ابنة الكلب هذه الذاكرة.. «ذاكرة الغياب»، بعد مرور أكثر من 20 سنة على نشرها لا زالت تتلبس بي، تأسرني، تحضرني في المنام كما في اليقظة، أريد أن أنفك من أسرها، ولا أنجح، أود قطع صلة الرحم معها فتظل متشبثة بوجداني وبغيرة الأطفال، تود أن تظل الرواية الوحيدة الأثيرة لدي، بيضة الديك، لا يزاحمه أحد من بنات جنسها.. ما اشتهر اسمي ككاتب روائي سوى بها وما أغناني ما خطته يداي خارجها، ولا زال حنيني يقيم في هذه الذاكرة، تغريني تطوراتها حتى بعد موت بطلها صالح البشير، مثل أغنية قديمة تستمر في مدننا بالدفء حتى بعد تبدل الزمان وأهله، ما سأكتبه الآن هو محاولة لقتل «ذاكرة الغياب» في أعماقي، أود التخلص من ابنة الكلب هاته التي تريد أن تأكل ما تبقى في قلبي من حياة.

عبد العزيز كوكاس

باب آخر وهو أعجب وأغرب في
«كيف تتناسل الحكاية في رحم الضياع»

يتحـول الحديـث عـن حيـاة بعـض الأشـخاص والحكـي عنهم، مـع مـرور الزمـن، إلى نـوع مـن الخرافـة والأسـطورة بسـبب التحويـرات التـي تُفقدهـم تدريجيـا علاقتهـم الأصليـة بالواقـع، إذ يتـم الإلحـاح عـلى الجوانـب المضيئـة في سـيرتهم وأعمالهـم، دون ذكـر الانزلاقـات السريـة التـي تشـدهم إلى نامـوس الكـون، ألـم يقـل الرسـول «ص»: «اذكـروا موتاكـم بخير؟» هكـذا كانت الصـورة الحقيقيـة لشـخصية صالـح كمـا كنـت أحسـها في كلامـه وسـلوكه وتفكـيره، تـذوب تدريجيـا مـع مـرور الوقـت، فسـقطت كل الجوانـب السـوية والمألوفـة لشـخصيته الواقعيـة، وتحـول إلى صـورة بطـل يوفـر الحمايـة والاسـتمرارية لوجـود القريـة، التـي رأت فيـه متنفسـا عـن رغباتهـا المقيـدة، وعن كل مشـاعر العجـز والانجـراح التـي وشـمت جسـد دوار القنادلـة، فظـل صالـح بمثابـة النسـغ الـذي يشـد لحـم الجماعـة بمـا يثبـت فيهـا مـن انسـجام وبمـا يُذيـب مـن فرقـة.

ولـو أن علاقتـي بصالـح كانـت قصـيرة، بحكـم تنقـلي إلى مراكـش، إذ لـم نكـن نلتقـي إلا في عطلتـي رأس السـنة وفصـل الربيـع، أمـا في الصيـف فـكان يسـافر إلى أهلـه بوجـدة، وقـد حدثـت وقائـع كثـيرة خـلال فـترة غيابـي أجهـل معظمهـا، لذلـك كان كل شيء يتغـير مـع الزمـن في علاقـة القرية بشـخصية صالـح، قلـت رغـم قـصر علاقتـي بصالـح مـن حيـث الزمـن، إلا أنهـا كانـت علاقـة عريضـة ومتميـزة، فقـد حظيـت عنـده بمكانـة خاصـة، أو هـذا شـعوري عـلى الأقـل اليـوم، حـين وقع عليـه بـصري أول مـرة في ليلـة مـن ليـالي دجنـبر، أحسسـت أنه يولينـي عنايـة خاصـة، لـم يفـه يومهـا إلا بكلمـات مقتضبـة، ولكنهـا حاسـمة، ظلـت تـرن في أذنـي كأجـراس همـس الليـل..

كان في العقـد الثالـث مـن عمـره، معتـدل القامـة وقور السـمت، يعتمـر قبعـة أضفـت عليـه مسـحة مـن الهيبـة، وعينـاه الكبيرتـان يشـع منهمـا بريـق حالـم، يعكـس ابتسـامة السـماء لـلأرض، فيمـا اعتلـت سـحنة وجهـه مسـحة مـن الحـزن غـير المصطنـع.. وبالجملـة فقـد كان نمطـا فريـدا أبيـض القلـب، سـليم الطويـة، بشـوش الوجـه لا يُـرى إلا ضاحـكا.. ارتبـط مجيئـه إلى القريـة بانتهـاء الوبـاء الـذي حـل بالقنادلـة، حيـث مـرت عـلى الأهـالي سـنوات عجـاف، لـذا انشـطر التاريـخ بعـد قدومـه كفلقتـي لـوز كان نواتهـا، فصـار النـاس يوقعـون للأحـداث الكـبرى في تاريـخ الـدوار والأشـخاص بمـا بعـد مجـيء سي صالـح، ومـا قبـل مجيئـه..

كانـت القريـة كلهـا في لحظـة جـذب عـلى مسـتوى الأرض

والحيوان والإنسان، حتى بدا كأن الرحمة هجرتنا إلى الأبد، فجافتنا البركة، وعندما نزل المطر بعد جراحات عميقة، سرقت كل ملامح التوهج والحياة، كان لا بد من بلسم، فكان صالح ذلك الرجل الذي تحول عبر لاوعي القرية الجماعي إلى بطل فوق العادة، تعوض القرية من خلال صورته نقصها، وتعيد التوازن لوجودها من خلال الإشباع الرمزي الذي وجد أهل القنادلة في صالح أحسن من يمثله، إذ سيصبح بؤرة إشعاع تمثل شخصيته ـ الكلية الحضور ـ كل القيم المفقودة، وكأنها تملأ خزانا احتياطيا من مستلزمات البقاء والاستمرار، فكان صالح يغذي مشاعرها الجريحة، لذلك اتخذه الفلاحون كرد إيجابي في زمن المحنة على كل تحديات القلق والتهديدات القادمة من كل صوب، فجسّد لهم نوعا من التفريغ الانفعالي لمشاعر الكبت والقهر بكل أنواعه الطبيعي والاجتماعي الذي أورثهم الفشل والعجز فاستمدوا من سلوكه الموافق لأمانيهم، نسغا للحياة والخلود، ونسجوا حوله حكايات وقصصا نادرة أشبه بصلاة جماعية سرية، إذ كان الكل يستبشر بوجوده ويستمتع بمحادثته ويرى في ذلك فألا حسنا له ولذريته.

يحكي الذين رأوه أول مرة، أنه كان متعبا وشاحبا، ينتحل حذاء باليا، وأسمالا علاها الغبار مثل الدراويش، فيما كانت أصابعه تفرد سبحة صفراء في بطء، بدأ يسأل عن مدرسة.. كدت أموت بالضحك عندما حكى لي عباس

القنادلي رحمه الله، أنه سأل عن المدرسة، استقبله الشيخ في منزله وفي ذلك اليوم نفسه ولدت فرس الشيخ مهرتين، سبحان من صورهما، وتحول خبز الشعير الذي لمسه بيده إلى خبزة كبيرة في حجم عجلة الجرار الخلفية، أكل منها الشيخ وأسرته والرعاة والباقي أطعم به الدجاج والقطط والكلاب والبقر وبقي الخير الوفير..

يروي شيوخ القرية أن سنوات الوباء كانت قاسية ومريرة، حملت معها الموت والفجيعة لأهل القرية في أبنائهم ودوابهم وحيواناتهم.. كانت أياما سوداء، حيث ابتلع القحط خضرة الأرض، فجفت موارد الماء وأصبح العطش يهدد القرية والتهم وحش الوباء الجائع كل شيء، ظلت الريح الناحبة تخطف كل مرة صبيا أو دابة أو طيرا، وأنت تعلم جيدا في قرية مثل هذه، كيف تتساوى الدواب والأبناء لدى الفلاح البسيط، فخسارة الدواب مثل خسارة الأبناء.. كان الإحساس بالموت ثقيلا، إذ حل الطاعون والجوع وانتشر المرض والموت بعد أن اصفرت الحقول، ذبلت البساتين، فانهارت النفوس تحت الضربات القاسية التي وجهها الوباء والقحط، أصبحت الأرض جرداء، وأسياط الشمس المعلقة في سطح السماء كجمرة دائمة التوقد، ظلت تجلد بأشعتها الحارقة الوجوه وتذيب أمخاخ الرجال، والريح الشرسة ظلت تعوي في الأودية والسهول كالذئاب الجريحة، هاجر من أهالي القرية من له أقارب في المدينة، ونزح بعضهم باتجاه قرى مجاورة كانت

بمنأى عن الوباء، هربا من جحيم القحط والجائحة، إلا من وسع الله عليهم في الأرزاق، فقد كانوا أقل معاناة..

«كان المنظر مخيفا، إذ أهلكت رياح الموت النسل والحرث، وكادت لا تبقي أثرا لإنس أو دابة أو طير في هذه القرية، لولا ألطاف القدرة الإلاهية، وخطوات هذا الرجل الصالح الذي استبشرنا بمقدمه، فهو لم يفكر كباقي الغرباء لينجو بجلده خوفا من الجائحة والجوع اللذين كانا ينهشان القرية بوحشية»، روى لي الحاج إسماعيل أن الوباء جاء مرفوقا بالجفاف، «لا يتذكر أحد من كان الأسبق، القحط أم الوباء؟ ظلت عيوننا تراقب السماء بقلق باحثة عن بشارة، عن غيمة ماطرة، كل السحب كانت تمر فوق رؤوسنا غير مكترثة بهذا المحل الذي كاد يقتل القرية ويمحو وجودها، أتذكر –أسي مصطفى كنا أنا ووالدك العزوزي وسي عباس القنادلي وباقي رجال القرية– بعد كل صلاة جمعة، ننظم حشودا من الرجال والنساء، الأطفال والشيوخ، ونخرج في مسيرات جماعية بقلوب خاشعة ضارعين إلى الله ليسقي عباده ويروي بهيمته وأرضه، كان الأطفال يمسكون عصا مثل فزّاعة، وقد رُبط أعلاها بغصن شجرة التين، وحناجرنا تبتهل باسم الله الأحد، فترتعش الدعوات الصارخة: «السبولة عطشانة، اسقيها يا مولانا، والزرع وصل حدّو، اسقيه يا من خلقو، وتا غَنجا تا غنجا يا ربي تعطينا الشتا»... ولم تأت «الشتا»، ولا كفّت السماء عن إطلاق سهامها المسمومة التي قتلت الورود والسنابل، وحقول الذرة والشعير احترقت وهي ملتصقة بالأرض، فمات معها الحلم والأمل»..

إن صالح الذي أعرفه حين كنت طالبا بأزيلال، المعلم المفتون باللذة والخمرة وعشق النساء، المسكون بالدفاع عن كل ما يعتبره قضايا جوهرية لحماية كرامة الإنسان، لا علاقة له بصالح البشير الذي يتحدث عنه الأهالي رحمة الله عليه، لقد نمت صورة مخملية مفارقة للواقع، وقد لمست هذا في حديث والدي «العزوزي» الذي قال لي بعد أن ترحم على صالح الذي لقبه بولي الله، ولما انفجرت ضحكا من هذه التسمية نهرني، وحمل عكازه الذي كان ممددا بقربه وهو يشتمنى ويشتم جيلي الذي لا يراعي حرمة الموتى ولا يؤمن بكرامات الأولياء الصالحين:

«أنت لا تعرف شيئا عن ذلك الزمن الأسود، لقد حلت بالقرية كل الأمراض، الملاريا وداء الجرب والتيفويد والجذري حتى كادت تشرف على الهلاك، إلى أن جاء سي صالح بريحه المقدسة، فجلب السّحب الداكنة التي زحفت على البلدة وأخصبت الحياة في أرجائها، في حقولها وآبارها، وعاد النهر يفيض من جديد بالخير والنعيم..

كانت أياما من غبار، أياما سوداء عصيبة مليئة بالشقاء، ولكن مع حلول الفقيه تغير كل شيء، كان مثل قبس من نور بعثه لنا رب السماء بالرخاء والغيث المدرار الذي أمد القرية بالحياة بعد الغيوم المقفرة من الماء والرحمة..

حولت الأمطار المنهمرة كل ذرة في الطبيعة، الأشواك تحولت إلى نباتات زاهية بألوانها عابقة بأريج ريحها الطيب، والغبار الذي غطى الوجوه بالكآبة تحول إلى صفاء يملأ الطرق

والهـواء والقلـب، حتـى الثعابـين والغربـان التـي كانـت تحـوم فـوق السـطوح أذابتهـا ألطـاف السـماء وتحولـت إلى حيوانـات أليفـة وطيـور رائعـة مـلأت القريـة بألحانهـا الشـذية، وبـدل الرائحـة الخانقـة المتسربـة مـن الأرض العطـشى، أصبحنـا أمـام خـضرة كثيفـة تنعـش العـين وتزهـر القلـب، وحلـت زقزقـة العصافـير محـل نعيـب البـوم المشـؤوم، كل شيء صـار أشـبه بالسـحر، يـسري الـدفء والحـيرة في حيـاة أهـل الـدوار.. منـذ ذلـك اليـوم، بـدأت الشـمس تطـل عـلى القريـة لطيفـة وديعـة، تداعـب سـواعد الرجـال الملتحمـين بغبـار الأرض، وذاب الوبـاء الـذي حصـد أرواحـا بالجملـة وأدخـل عـلى أهـل القريـة الفـزع ورائحـة المـوت، حتـى أصبحـوا منبوذيـن أينمـا حلـوا...»

هـذه الروايـة التـي وردت أيضـا عـلى لسـان عبـاس القنـادلي، سـتنْبني عـلى مـا نُقـل بـين النـاس بالتواتـر، ذلـك أن مجـيء صالـح طُبـع كالوشـم في الوجـدان المشـترك لأهـالي القريـة، لذلـك ظلـت صورتـه حـاضرة في حيـاة النـاس حتـى بعـد غرقه في النهـر الـذي لا يصدقـه أحـد مـن أهـل القريـة ويعتبرونـه أحـد كرامـات الـولي الصالـح الـذي اختفـى في مـكان مـا مـن السـماء بعـد أن أدى مـا أرسـل مـن أجلـه، واسـمه كمـا تـرى لا زال محفـورا في ذاكرتنـا الجماعيـة..

في مسـاء ذلـك اليـوم المشـهود، نـزل الغيـث مـدرارا فغسـلت الأمطـار قلـوب النـاس، وأنعشـت رائحـة الأرض صـدور الفلاحـين وتألقـت القريـة بحقولهـا.. ويـروي الذيـن عايشـوا ذلـك اليـوم، أنهـم شـاهدوا أمطـارا لـم يروهـا بتلـك الغـزارة

منـذ زمـن غابـر، طوفـان مـن الأمطـار انهمـرت كالسـيول، فتفجـرت العيـون وسـالت غدائـر المياه كلجـين الفضـة المذاب، وزعـم بعضهـم أن البـئر الـذي يتوسـط القنادلـة، امتـلأ حتـى فـاض عـلى كل الـدور، فتكونـت الـبرك التـي سـبح في وسـطها الـوز والأطفـال، ولـم يسـتطع أهـل القريـة أن يحبسـوا فرحتهـم، **يقـول أبـي: «في ذلـك اليـوم صلينـا جميعـا حمـدا للـه، وأقمنـا يـوم السـوق مأدبـة كبـيرة عزمنـا عـلى إثرهـا سي صالح، وأتذكـر جيـدا تلـك الفرحـة التـي سـكنت قلوبنـا، فحتـى الحـاج إسـماعيل صاحـب الـدكان الـذي يتبضـع منـه أهـل القريـة، والشـيخ عبـاس القنـادلي والمعلـم المعطـي، لـم يسـتطيعوا كتمان غبطتهـم، فخرجـوا حفـاة يلعبـون في بـرك المـاء مـع الأطفـال، أهـل القريـة كلهـم هبّـوا مزهويـن بالمـاء وانقطـاع الوبـاء الـذي فتـك بدوارنـا والمناطـق المجـاورة.. وشـاركت النسـاء في هـذا الاحتفـال بالزغاريـد والرقـص مسـتقبلات هـذا الخـير العميـم بفـرح عـارم، كان عرسـا سـماويا أعـاد لـلأرض بكارتهـا، وردّ للوجـوه عافيتهـا وبهجتهـا».**

يقـول المعلـم المعطـي في شـبه حـسرة: «كل الذيـن عـبروا هـذه القريـة، كانـوا يعتـبرون أنفسـهم غربـاء، ومـن جهتنـا رغـم الكـرم الـذي ميّـز قريتنـا عـن باقـي القـرى، كنـا نعتبرهـم مجـرد ضيـوف يقضـون وسـطنا بعـض الوقـت، يأكلـون مـن صحوننـا وينامـون في أسرة بعـض نسـائنا، ثـم يحزمـون أمتعتهـم ويرحلـون، أثـرا بعـد عـين.. لكـن مـع سي صالـح كان الأمـر مختلفـا تمامـا، كان يتـصرف وسـط القريـة كمواطن

ـ كما تقولون في المدارس ـ بالطبع فهو رجل متعلم وله وظيفة مع المخزن، لم تكن له أرض ولا منزل قار هنا، ولكن كان قلبه علينا، كان يردد دائما لا تلهجوا بالثناء عليّ بعد أن نسيكم المخزن، سوف أجعل من صبيانكم شخصيات في البلد يشار لها بالبنان، موظفون، أساتذة، بياطرة، ينقلونكم من هذا الفقر المدقع في الروح والجسد..

كان يختلف عن هؤلاء الذين عبروا ذاكرة القرية وجسدها، فكلهم طواهم الزمن وشملهم النسيان، وظل وحده كالوشم.. كان داخل سوق راسو، ما كيدليش نيفو فكل طنجية باش يشم ريحتها، في مساء اليوم التالي، حين كان الليل يسدل خيوطه الأولى، أتاني الشيخ عباس وعرض علي كراء المنزل للسي صالح، كدت أقول لا، فمنذ الحادث المشؤوم الذي ذهب ضحيته الفقيه السليماني، لم أعد أفكر في كراء المنزل، إذ تطيرت من الحادث، أضف إلى ذلك أنني كنت قد جهزت المنزل لأبنائي، لكي نتسع قليلا، فقد أصبحوا رجالا، ومن العيب أن يمكثوا معي في نفس البيت، لكن لساني انعقد، تحت وطأة هاجس خفي، فاستسلمت أخيرا بدون شروط، لكنه رحمة الله عليه كان طيب النوايا، ومثالا للنزاهة وحسن الاستقامة، فلم يخيب ظني».

يومها انتشرت إشاعات عديدة بين حساد المعلم المراكشي الذي أصبح مضغة للأفواه، وللهمز واللمز، وقد سمعت روايات كثيرة عن حادث كراء البيت لصالح، إحداها تقول

إن المعلـم المعطـي المراكـشي كان ينـوي أن ينصـب شركا للفقيـه ليزوجـه ابنتـه رابحـة في حـين تقـول إشـاعة أخـرى إنـه كان اكـترى لـه المنـزل، لينـال في نفسـه الحظـوة ويرجـوه أن يبـارك ذريتـه، وقـد ازدهـرت هـذه الإشـاعة وأخصبـت خاصـة بعـد لقـاء صالـح مـع نجيمـة، المـرأة العاقـر، التـي طلبـت منـه أن يلمـس بطنهـا الجـاف ويخصـب ضرعهـا ذات يـوم سـوق، وبالفعـل قـد تـم لهـا ذلـك فأجـرى صالـح عليهـا كراماتـه، وأنجبـت ولـدا عينـاه في لـون الطيـور الخـضراء، وخصـلات شـعره تشـبه السـنابل الذهبيـة، وقـد أخبرنـي المعلـم المعطـي بصـوت حزيـن وعميـق جـدا: «منـذ أن حـل صالـح ببيتـي حـل معـه الخـير والبركـة، إذ تزوجـت كل بناتـي وكـبر الأولاد، وتوجهـوا إلى المدينـة، وهنـاك تزوجـوا وخلفـوا صبيانـا وبنـات وعاشـوا في تبـات ونبـات..

لقـد كان رحمـه اللـه أنبـه رجـل عرفتـه القريـة، فهـو مهـد أحلامهـا وسـيد رجالاتهـا، سـكن في نفـس بيـت الفقيه السـابق، وكان يعيـش حيـاة عاديـة طيلـة النهار، إذ ظـل زاهـدا في مأكله، مقـترا شـحيحا عـلى نفسـه، يكتفـي بالقليـل اليسـير، فراشـه اللبـد والحصـير، وبالليـل تسـطع غلالـة مـن النـور في غرفتـه، نـور متلألـئ في صفـاء القمـر، كنـا نسـمع همهمـات غريبـة، لكـن لـم نجـرؤ عـلى الاقـتراب مـن موقـع المنـزل، فاختلفـت الروايـات بـين أهـالي القريـة بـين شـامت رأى سي صالـح طيـب اللـه تـراه، كان يقـرأ القـرآن ويحضر الشـياطين ويحـاور الجن لتسـاعده عـلى اسـتخراج الكنـز المدفـون، منـذ عهـود سـحيقة،

بجانب الشجرة التي تنتصب داخل منزله، وقد بنى هؤلاء روايتهم على حكاية قديمة، تقول بأن أحد أجدادي عندما نزح من مراكش واستقر بهذه البلدة، في زمن موغل في التاريخ، قد دفن نقودا وذهبا في مكان مجهول، وترك خريطة لأبنائه التهم الفأر معظمها، والذي يعزز هذه الإشاعة أكثر، هو عندما جاءنا فقيه سوسي سلمه أبي الورقة التي ورثها عن جدي، كنت آنذاك صغيرا جدا، فصرنا نحفر في كل جوانب البيت في صمت، والسوسي يقرأ ويرتل القرآن ويدمدم بأشياء غريبة، لم أكن أفهمها، ثم يحرق البخور معتمدا على قضيب الزيتون الذي يؤشر على مكان وجود الكنز، وقد وجدنا بالفعل أرنبين ودجاجة فوق طست صدئ، لكن سي موح الذي كان يحفر معنا صاح منبهرا، فانهدم كل شيء وطار السوسي إلى جزيرة الواق واق، ولزمنا الفراش أنا وأبي وموح، الذي توفي بعد الحادث بأسبوع واحد تقريبا، من يومها نسينا الكنز ولم نعد نفكر فيه كثيرا..»

كنت أتساءل مع نفسي: هل صالح البشير الذي نُسجت حوله هذه الهالة القدسية من التصورات والتمثلات اللا واعية للفلاحين، كان بالفعل شخصية حقيقية تعرفت عليها في زمن ما؟ أم أنه مجرد صورة رسمها الأنا الأعلى للقرية أمام الرغبات المحبطة لتضبط توازنها، فتحول صالح إلى حلم يقف ضد مشاعر الإحباط والقلق العاصف الذي جرّته قسوة اللقمة والسلطة والطبيعة؟ هل كان صالح

كائنا بشريا تضخّم حجمه بفعل الإسقاطات النفسية المتوالية ليرد عن جماعة الفلاحين غائلة الانقهار اليومي؟

لست أدري، فكل شيء يبدو هنا مشدودا إلى سلطة خفية، سلطة الفوضى، تراكم الأزمنة البئيسة، تداخل الأحاسيس والأفكار، اختلاط الحقائق بالتخيلات.. حتى كدت أنسى الملامح الواقعية لشخصية صالح، علاقته بذاته، أقصد تحديدا بجسده، تلك الانزلاقات العميقة التي كان يحاول من خلالها التغلب على طبيعة الانفعالات التي ولّدها عنف المكان، معظم الناس كانوا يتهامسون ويرون في الفقيه صالح وليا من أولياء الله الصالحين، وصاحب كرامات، «**إذ كيف كان يعبر كل هذه المسافة يوميا بين القسم والمنزل دون أن يهده التعب والإجهاد؟ نحن أهل البلد لا نستطيع أن نداوم ذلك، وقد سمعت غلاما مرة يقول إنه كان يسرح غنمه في الضفة الغربية للنهر، فرأى الفقيه صالح يمشي فوق مياه النهر الهادئ حافي القدمين ومرة أخرى كان سيدي صالح البشير يركب السحاب، وبالإمارة فقد كان لابسا جلبابه الأبيض وهو يسير نحو القسم**» يقول أبي بتعجب لا تخفيه عيناه..

تتفق معظم الروايات التي جمعتها من أهل القرية وعلى لسان شيوخها، على أنه منذ وطأت قدمه المباركة دوار القنادلة كف الشجار والخصام، وحلّ التعاون والتراحم، إذ تحول صالح إلى رسول سلام، كما أخبرني الحاج إسماعيل الميلودي أن «صالح كان أمينا ووفيا، وكلما مازحته ارتسمت

عـلى ثغـره ابتسـامة مرحـة كان يخـاف أن يبقـى الديـن عالقـا برقبتـه، وكلمـا قـدم ليتبضّـع منـي كنـت أبقيـه لحظـة للتمتـع بحديثـه الـذي ينضـح بالحكمـة، فهـو معلـم صبياننـا ومـؤدب فلـذات أكبادنـا، ولـذا كان إنسـانا جديـرا بالتقديـر..

أتذكـر بعـد أسـبوع، عندمـا حـج إلى ديارنـا، صـار يـدق عـلى البيـوت وينصـح الفلاحـين بـأن يرسـلوا أبناءهـم إلى المدرسـة، كان أطفالنـا لا يلجئـون إلى القسـم إلا بعـد أن يكـبروا، إذ كنـا نـرى فيهـم سـندا في حـرث الأرض ومسـاعدتنا في شـؤون الرعي والحقـل، ثـم مـاذا قدمـت لنـا هـذه المدرسـة؟ هـا أنـت تعيـش بعـد كل الـذي خـسره عليـك أبـوك العـزوزي في بطالـة تامـة، لقـد كنـا نـرى أن «الـلي بْغـا يضيّـع بـلادو، يْقـرّي اوْلادو»، وحتـى عندمـا يسـجل أطفالنـا بالمدرسـة فإنهـم لا يلتحقـون بهـا إلا بعـد نهايـة الحـرث الأول، لقـد أحبـه أطفالنـا وشـبابنا، فلـم يكـن يضربهـم أبـدا».

هـذا الأمـر سـيفسره لي فيمـا بعـد صالـح بنفسـه عندمـا اسـتفسرته ممازحـا:

- أراك تتعامـل مـع هـؤلاء الصغـار بعشـق فائـض عـن اللزوم، ألا تـرى أنهـم سـيكبرون مدللـين في زمـن صعـب، حـذار إنهـم شيا طين .

تطلع إليّ مبتسما، ثم قال بلطف:

ـ هـؤلاء ملائكـة، وليسـوا شـياطين، إنهـم عصافـير تحـب لحـن

الحرية..

ـ ولكـن العصـا هـي قضيـب الجنـة، وحنـا مغاربـة، بحـال الكامـون إلى مـا تدقّينـا مـا نْعْطيـوا الرّيحـة..

ـ صدقنـي يـا مصطفـى، لـولا هـؤلاء الصغـار لغـادرت هـذه القريـة منـذ أول يـوم..

ـ أعتقد أن السبيل الأقوى للتلقين هو القليل من العنف..

نظـر إلي بعينـين حارقتـين، فارتبكـت حرجـا، وممـا زاد في دهشـتي هـو تلـك اللهجـة المطمئنـة الواثقـة التـي ينطـق بهـا، فقـال سـاخرا:

ـ تتكلـم عـن تلقـين الأطفـال، هـل نحـن مـن يلقنهـم أم هـم بالأحـرى مـن يملكـون الكثـير ليلقّنُوننـا إيّـاه؟!

ـ صدقنـي يـا صالـح، إن العقـاب البدنـي، القليـل منـه عـلى الأقـل، مسـألة ضروريـة لتقويـم الاعوجـاج..

ـ ليـس القصـاص الجسـدي إلا بدايـة تأسـيس فـروض الطاعـة والـولاء في المجتمـع حيـث يتحـول المعلـم كوكيـل إيديولوجـي إلى مخزنـي مدنـي، يشرعـن العنـف تربويا..

لـم يلبـث اسـم صالـح أن انتـشر في دوار القنادلـة، فترسـخ في الذاكـرة، ومـع مـرور الزمـن، ونمـو الشـدائد والانسـحاق الـكلي تحـت ثقـل الأوضـاع المعيشـية والأمانـي المغتصبـة، كانـت ترتسـم لصالـح صـورة مثاليـة تتجـاوز الواقـع المألـوف

ليصبـح بمثابـة القـوة التـي تؤمـن التعويـض عـن رغبـات مسـتحيلة..

وحتـى نسـاء القريـة سـاهمت بقسـط وافـر في تشـييد أجـزاء هـذه الصـورة غـير العاديـة، إذ كـن يتغامـزن عليـه وهـو يمـر بهـن، وكـم مـن امـرأة حملـت الـتراب الـذي داسـته القـدم اليمنـى للـسي صالـح التماسـا للبركـة وتيمنـا بكرامتـه، «فهـو قـاري القـرآن ومذهـب الشـيطان» يقـول المعلـم المعطـي المراكـشي، «كان عـلى خـلاف المعلمـين الـذي عرفتهـم القريـة، والذيـن يتعيّشـون عـلى موائدنـا ولحـوم دجاجنـا وسـمننا وعسـلنا، وفـروج نسـائنا، ويخالطـون عامـة النـاس، حتـى يبـدو كأن لهـم رأيـا في كل صغـيرة وكبـيرة يثرثـرون ويثرثـرون بـلا طائـل ولا ربـح»..

لقـد ظـل صالـح ملجـأ أهـل القريـة، فالحـاج إسـماعيل يـروي: «أسـلمنا صالـح زمـام القيـادة، فحينمـا يَشْـكل علينـا أمـر ونحتـار في فـض نـزاع أو خصومـة، نُقبِـل عليـه ليُشـير علينـا، بفضلـه اختفـت المشـاجرات أو كادت، وبـدأ التعـاون ينمـو قويـا بـين أهـل البلـدة، وكـم مـرة كان يعـود إلى بيتـه يتنـاول وجبتـه الزّهيـدة، خبـز الشـعير والحليـب فقـط، ثـم يخـرج إلى الحقـول ليعـين هـذا العجـوز الضعيـف أو هـذا المعـدوم في حـرث الأرض وزرعهـا، أو إصـلاح ترعـة مـن تِراعهـا، وفـك نزاعاتنـا حـول الحـدود.. حتـى خـفّ تردُّدنـا عـلى المحاكـم التـي كنّـا نقصدهـا لمجـرد صراعنـا حـول بيضـة دجاجـة.

كنـا نحِـب الأرض فقـط لأنهـا مصـدر رزقنـا وإرث أجدادنـا، ومعـه

تعلّمنا أن الأرض بركة ونعمة، الأرض وطن رؤوف وأم حانية، سر من أسرار الكون، وأن أخطر اكتشاف ابتكره الإنسان هو عندما صنع الحذاء الطويل حيث بدأ الانفصال بين الإنسان والأرض، بين البشر وقيم المحبة والأمن والسلام.. ظل صالح يتحدث لنا عن أشياء كثيرة، لم يكن عقل أهالي القرية قادرا على فهمها بشكل واضح، أشياء ملغزة عن لعبة الكبار والقوانين المشيدة على الرقاب لحماية مصالح الأقوياء، عن التقاليد الأصيلة التي يجب أن تتحوّل إلى قوانين لسلوكنا.. وعلى الجملة فقد بقي حديثه المفعم بالشجاعة والجرأة، يمتلك رنّة خطابية نادرة بين أهلنا، وعلى الرغم من أن الفلاحين لم يكونوا يفهمون العديد مما يقول، إلا أن الوقائع والأحداث التي عبرت جسد القرية، أعطت كلامه مصداقية قوية حبّبت الناس فيه».

روى لي شيخ ممن جالسوه، قال: «سي صالح رجل بألف رجل، وسيبقى ذِكْره خالدا عبر سائر الدهور، لقد أسَرَنا بحكمته، ويوما عن يوم توثّقت علاقته بنا، فصرنا ننجذب إلى حديثه الساحر الذي لا ينضب معينه، كنا نهز رؤوسنا موافقين على كل كلمة تخرج من فمه كحبات اللّآلئ، ونصغي بشغف وَوَلَه كبيرين إلى كلامه المعسول، الذي لا ندري أين تعلمه وعن أي شيخ أخذه، يتحدث إلينا كل مساء قرب البئر، حيث نجتمع حول صينيّة الشّاي، ونستمع إلى حكايات الأزلية والسيرة الهلالية وسيرة الأميرة ذات الهِمّة وولدها عبد الوهاب وقصص ألف ليلة وليلة.. وفي المرات الكثيرة التي كانت تعبر القرية حوادث كبرى، كان يبدو

عصبيـا، يُـسرف في التدخـين ويحـرك يـده كأنـه يلقـي خطبـة حماسـية أمـام حشـد غفـير، فتخـرج الأصـوات والكلمـات مـن فمـه رزينـة وواضحـة كالشـمس.. اجتبـاه اللـه لهـذه القريـة ووهبـه الكثـير مـن الحكمـة وحسـن تأويـل الأحاديـث وكشـف أسرار النـاس حتـى قبـل أن يتفوّهـوا بكلمـة.. سـبحان اللـه، فقـد ظـل يتكلـم بلسـاننا ويقـول الـكلام المحتبـس في حناجرنـا».

هكـذا تنمـو الحكايـة في رحـم الضيـاع، ويتحـول صالـح البشـير مـن مجـرد معلـم قـدم مـن الـشرق إلى هـذا الهامـش القـصي بـدوار القنادلـة، إلى شـخصية أسـطورية ألبسـها القهـر الاجتماعـي وقسـاوة الطبيعـة كل ملامـح البطولـة مـن طـرف كل هـؤلاء البسـطاء الـذي جرحـت نرجسـيتهم في خضـم الـصراع مـن أجـل الاسـتمرار في الوجـود، وهنـا أسـتاذي طوبـة الوجـدي بعـض ممـا نجحـت في اقتناصـه مـن مرويـات، كمـا طلبـت منـي في رسـالتك أن أجمعهـا مـن لسـان شـيوخ القريـة ممـن كانـوا قريبـين مـن الراحـل الـذي تـرك وشـمه الأبـدي هنـا قبـل أن يرحـل، وأتمنـى قـد وفقـت في مسـعاي لمـا تصبـو إليـه مـن كتابـة حكايـة عـن مسـار صالـح البشـير لكـي لا يغـوص في براثـين الغيـاب.

JPM32 Publishing
(Doha – Qatar)
badawi
artes afro arabica
دار بدوي للطباعة والنشر
BADAWI - ARTES AFRO ARABICA
+49 171 1663735 (المانيا)
mohamed@badawi.de

"هذه الرواية مبهرة، وجدت نفسي أمام نص سردي بلغة شعرية منفلتة، يتقصّد الحكي الذي يرصد مواجعنا، يقول آمالنا وآلامنا، لم تكن "ذاكرة الغياب"، بقدر ما هي ذاكرة الحضور أيضا، آلمني قتل البطل الجريح صالح، لأن بعده لن يأتي إلا الطالح والغث، ولو أن الكاتب ترك نطفة منه في رحم مليكة النشيد"

عبد الجبار السحيمي

"جسدت رواية "ذاكرة الغياب" نمط الكتابة المغايرة، كتابة جيل جديد آخذة في النمو، تحتفي بذاتها كما احتفى صالح بظله، وتتمرد عليها كما تمرد هذا على ذاك،كتابة تبوح بالسر وتفشيه.. كتابة مضللة ومفارقة في آن"

إبراهيم العمري

"تقوم الصلة الجمالية للسارد بالجسد الأنثوي في صورة فردية تؤهله لإنتاج معرفة خاصة، فيما أن هذا الجسد أصبح الملاذ الوحيد في "ذاكرة الغياب"، فإن مقومات الجمال فيه ستطفو لتغطي بشاعة الواقع وفقاعاته، إنه عالم مواز يتسع لأحلام السارد"

أحمد لطف الله

"لهذه الرواية لغة لافتة بالنظر إلى طابعها الشاعري وقدرتها التصويرية الباهرة، فهي في توغلاتها الوصفية وتدفق مستويات تشخيصها الأدبي لفضاءات مختلفة تتوزع بين طبوغرافية القرية، وطقوس المقهى، أو السوق، أو السجن... كثيرا ما تدرك مدارج لغوية باذخة التصوير"

محمد أمنصور

ISBN 978-3-98709-020-2

9 783987 090202

2022

badawi